قصص

الفلاحون يصعدون إلى السماء

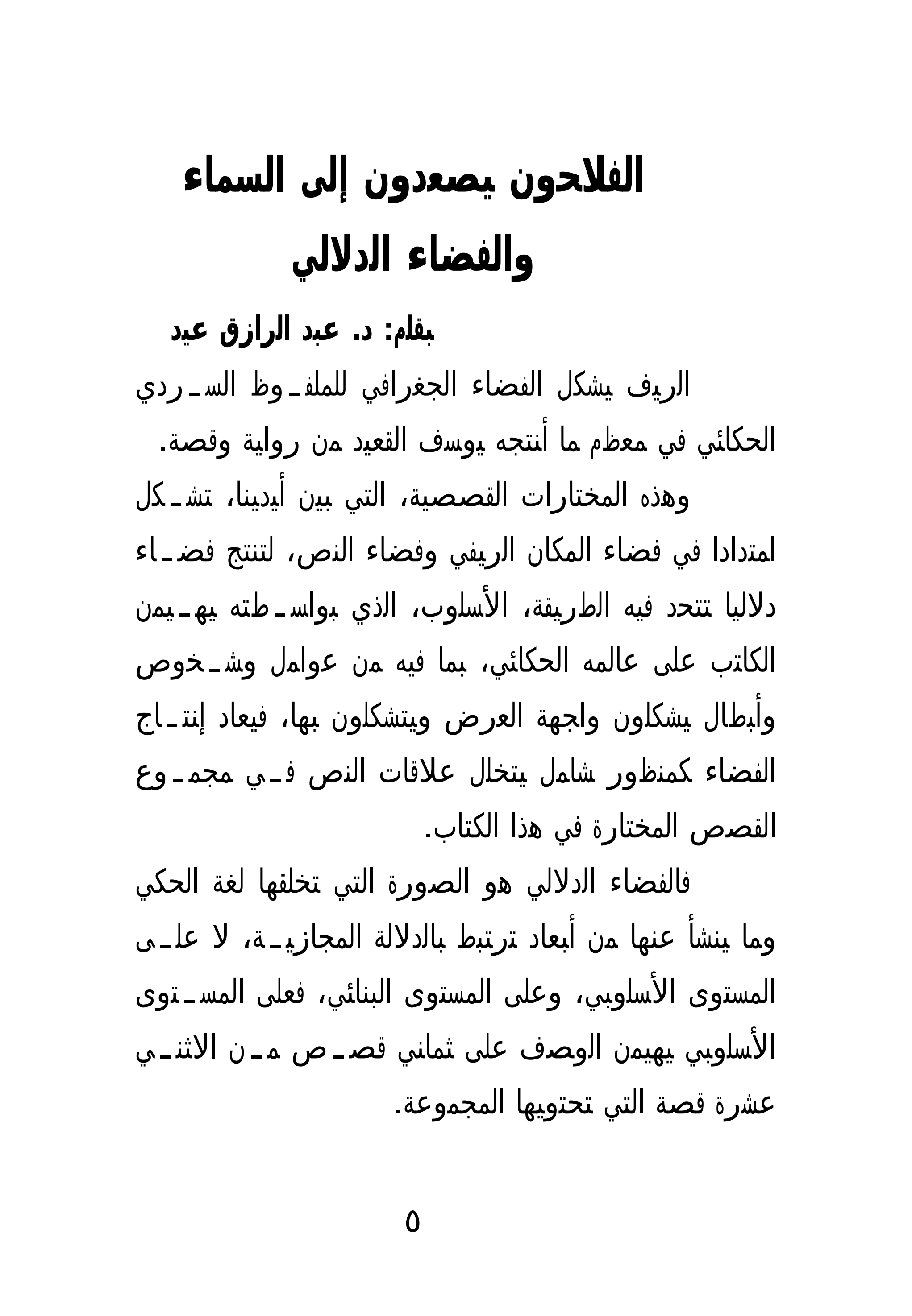
يوسف القعيد

الفلاحون يصعدون إلى السماء

يوسف القعيد

الفهرس

■



الفلاحون يصعدون إلى السماء
والفضاء الدلالي

بقلم: د. عبد الرازق عيد

الريف يشكل الفضاء الجغرافي للملفوظ السردي الحكائي في معظم ما أنتجه يوسف القعيد من رواية وقصة.

وهذه المختارات القصصية، التي بين أيدينا، تشكل امتدادا في فضاء المكان الريفي وفضاء النص، لتنتج فضاء دلاليا تتحد فيه الطريقة، الأسلوب، الذي بواسطته يهيمن الكاتب على عالمه الحكائي، بما فيه من عوامل وشخوص وأبطال يشكلون واجهة العرض ويتشكلون بها، فيعاد إنتاج الفضاء كمنظور شامل يتخلل علاقات النص في مجموع القصص المختارة في هذا الكتاب.

فالفضاء الدلالي هو الصورة التي تخلقها لغة الحكي وما ينشأ عنها من أبعاد ترتبط بالدلالة المجازية، لا على المستوى الأسلوبي، وعلى المستوى البنائي، فعلى المستوى الأسلوبي يهيمن الوصف على ثماني قصص من الاثني عشرة قصة التي تحتويها المجموعة.

فمنذ المقطع الأول في القصة الأولى من المجموعة " رائحة الليل " نبدأه بالجملة السردية الأولى، وقد تحللت إلى عناصر تتصل بمكونات المكان وأشيائه:

" ما أن تأتي هذه اللحظة، اللحظة التي يتلون الأفق الغربي فيها بلون الدم، وتطول ظلال الأشياء، وتبهت أشعة الشمس وتتحول إلى لون ذهبي، يتمدد في ليونة على المساحات اللانهائية من خضرة الحقول.. ما أن تأتي هذه اللحظة، حتى يستعد البلد للغوص في بحر من الركود المعتم " ص ١.

فالجملة السردية الأولى يفصلها عن الجملة السردية الثانية مقطع وصفي، وما أن تبدأ الجملة السردية الثانية " يستعد البلد للغوص " حتى تتحلل هذه الوحدة التركيبية إلى وحدة استبدالية على شكل مقطع وصفي: (ترتفع الظلمة من المناطق الغويطة، والأودية، والسهول، تهبط من الساحات الفضائية التي تفصل بين السماء والأرض " لينتقل إلى وحدة سردية جديدة " تقرأ في لحظة الغروب من كل يوم، في عيون الناس هنا، الحنين لشيء غير محدد، الرغبة في العودة

إلى منازلهم، الاستعداد للسفر في الليل، كحكايا المصـاطب المستطيلة).

الوصف الذي يستقصي عناصر الفضاء الجغرافـي هنا، يتحول إلى منظور شامل يدرج العوامل، والشخصـيات في ملفوظه السردي، فتكتسب الجملـة السـردية وظيفتهـا الإدماجية التي تحيل إلى مدلول، وليس على فعل، فهـي لا تحتاج في إدراك دورها إلى حصول فعل لاحـق، فتكتسـب الأسلوبية التعبيرية هذا الطابع التشكيلي الـذي يشـير إلـى مدلوله، حيث تبدأ الجملة الأخيرة في نهاية المقطـع " فـي الحقول، الجاموسة والبقرة، ولقد راحت وهي شـبه نائمـة، تجتر ما أكلته طول النهار "، ص ٢.

فالجملة الأخيرة رغم انطوائها على عنصر سـردي، إلا أن هذا العنصر لا يحيل إلى وحدة توزيعية بمقـدار مـا يحتوي على وحدة إدماجية، والوحدة الإدماجية تنشق عـن طبيعة استبدالية ذات وظيفة دلالية إيمائية، تنتقـل بالفضـاء الجغرافي من حدوده كمشهد، كخلفية للفعـل، إلـى عامـل تركيبي يساهم في البنية التكوينية للقصة، ويدخل في الوحـدة

التوزيعية للعناصر، بوصفه أحد أركانهـا الأساسـية التـي ستحدد مآل وسيرورة المتن الحكائي.

إن فرسان الخطاب بين الوصف والسـرد، وغلبـة الوصف وهيمنته على لسان الراوي الغائـب، مـنح الكـلام القصصي نوعا من حيادية الكاميرا التي تصور والريشة التي ترسم، لكنها الحيادية التي لا يتقشر فيها الدال على المـدلول بارد أصم مـن خـلال الوحـدة الإدماجيـة ذات الوظيفـة الاستبدالية، بل كان الدال يشع بإيحاءات تبعث النبض والحياة في الأشياء حين تختزن اللغة طاقة سحرية وأسطورية قادرة على بث الرائحة في الليل، وانبعاث الرائحة الليلية في الثياب والناس، حيث (أبو الغيط) الحارس الليلي يشم هذه الرائحة في عبد الفتاح أمام المسجد.

فالجملة القصصية الوصفية بمقدار ما تتمتع بحياديـة وحيدة العناصر، بمقدار ما تخلع عليهـا الـذات أحاسيسـها فتؤنسها، مما يوشي الفضاء بوشاح من الأسى الرومـانتيكي الذي يجعل الجملة التي تصوغه تختلج بشعرية الحياة.

لكن رومانتيكية الليل هنا ليسـت للبـوح والمناجـاة وسفر الأحلام، بل هو ليل الوحشـة والتأسـي لـ ـ (أبـو

الغيط)، وهو ليس تجربة معاناة تعيشها الذات المتوحدة مـع وجعها الرومانتيكي، بل وهو وجود معاش يطرز حياة (أبو الغيط) ويحكم معنى وجودها، بينما (النهار والذي يشـرق ويضيء، ليعطي الحياة لكل شيء، لا يمنح (أبـو الغـيط) سوى الكسل والفتور.

وعلى هذا فالوصف يتجاوز الوظيفة التزينية، وظيفة الإنارة لخلفية المشهد، ليغدو إنارة داخلية لعالم الشخصية، بل إن الشخصية ذاتها تغدو مجرد انعكاس بسيط لعالم الأشـياء الذي يحتويها وفق قانونياته الطبيعية، فتخل العناصر ملتفـة بالبطانة الوجدانية للشخصية المصورة، لكن هـذه العناصـر الخارجية تمارس حضورها الصلب والفـظ علـى الـذوات الإنسانية المجردة من فعاليتها الملموسة في محيطها، فتعيش الشخصية نوعا خاصا من أنواع النفي والتغريب ومـن ثـم التشيئ كما في قصة (قراءة الفاتحة في حقول البطيخ ليلاً).

حيث مأساة (أبو الغيط) مع المكان تنتهي بمأسـاة مع الزمن، حيث زمن الآخرين مغاير لزمنه، فالنهار الـذي يعطي الحياة لكل شيء، فإنه لا يمنحه سوى الكسل والفتور، في حين أن مأساة (الأدهم) في (قراءة الفاتحة في حقـول

البطيخ ليلاً) مع الزمان، تنتهي إلى تلاشـي الأدهـم فـي المكان، وضياعه في عناصـر الأشـياء المشـكلة للفضـاء المكاني.

فالدهر يـنهض هنـاك عامـل يمـارس تحولاتـه وتطاولاته على (الأدهم) فيذهب بهيبتـه ووقـاره ونفـاذ شخصيته، بعد أن كان المنصف وسط الظالمين، والد اليتـيم، ورجل الأرملة، وراعي المطلقة، وأب من لا أب له.

يستدعي ماضي وتاريخ هذا الرجل أمام تحدي حقول البطيخ التي تسرق يوميا، وعندما ينهض لهذه المهمة، يلاحقه الإخفاق تلو الإخفاق، لينتهي هذا الأدهم الملقب بـ ـ (سـبع الليل) للاختفاء بقلب بطيخة، حتى أنه لم يستطع أن يخـرج رأسه من داخلها.

ربما تسربت إلينا رائحة دون كيشوتية من (الأدهـم سبع الليل) لكنها رائحة لا تحتمل مذاق المزاح أو الهـزل، لأن الجانب الهزلي في دون كيشوت يتأتى من خلال مفارقة الإصرار على عيش الماضي في الحاضر الأمر الذي يقـود إلى التشوش والمس العقلي، بينما نحن ـ في حالة الأدهم ـ تجاه رثاء للفتوة والرجولة إذ تتآكل بفعل الزمن.

لقد أضحك سرفانتس العالم لأكثر من ثلاثة قرون - من الخرف النبيل لدون كيشوت، ومـن فرسـه الأعجـف، وفروسيته الرعناء، لكن هذا التهكم كان يتأسس على نبـوءة برهن تاريخ المجتمع الأوربي على مصادقيتها، عندما حلـت الآلة البخارية فالعربة فالطائرة فالصاروخ محل فـرس دون كيشوت، لكن الدون كيشوت العربي لم يبرهن إلا على أننـا عندما نقعد فارسا، فلن يخلفه إلا جبان وغد ولعل الصـورة النموذجية لهذه المأساة الوجدانية العربية تتمثل فـي صـورة فقدان (عبد الناصر).

إن ثلاثية الاضمحلال، فالضياع، فالذوبان للشخصية في النثر القصصي الأوروبي في العصر الحديث بوصـفها معادلاً نقيضا لصورة الشخصية في النثر القصصـي القـديم هذه الصورة القائمة على ثلاثية تدرج صورة البطـل، مـن البطل العملاق فـي (الملاحـم) إلـى البطـل الأخلاقـي (العصور الوسطى) إلى البطل الإشكالي (القـرن التاسـع عشر) نجد ما يعادلها في مجموعة القعيد بصورة الشخصية الهامشية التي تدوس بين الاضمحلال، والضياع، والـذوبان، لكن القعيد يعيد إنتاج إشكالية الشخصية المهمشة في العصر

الحديث، من خلال وعي تاريخي وجمالي خلاق في استكناه الخصوصية السوسيولوجية لهذه الظاهرة في السياق العربي، والمصري تحديدا.

فإذا كان تدرج الشخصية الإشكالية التي رصدها لوكاش في القرن ١٩ تنحدر باتجاه ثلاثية الهبوط والانحدار (اضمحلال - ضياع - ذوبان) حسب تشخيص غولد مان كمعادل لتوثيق السلعة وأثر ذلك على الشخصية الإنسانية وما لحقها من ضياع واغتراب وتشيئ في المدينة الغربية الحديثة، حيث وجدت هذه الشخصية علامتها ورمزها في أدب الحداثة، فإن القعيد يكتشف مظاهر التهميش، والاضمحلال ليس انسياقًا وراء تقنيات الحداثة والاستجابة لمؤثراتها استجابة خارجية، كما يمكن أن يلاحظ في الكثير من النصوص العربية المعاصرة، بل من خلال سبر مظاهر هذا التهميش في حالة التحاق الإنسان العربي بفضائه الطبيعي والبيئي كثمرة للعجز عن الانفصال عنها نتيجة للتخلف وانحطاط الثقانة، أي بالصورة المعاكسة للسياق التاريخي الأوربي.

فإذا كان الوصف كتقنية حداثية تلازم مع اضمحلال الشخصية في الأدب الغربي كنتيجة لتوثين السـلعة وتقـدم الثقافة بال ضمير، وبروز عالم الأشياء بوصفه هو الوجـود الذي يلغي أي وجود ما عداه، ومن ثم ضمور الفعل الإنساني في العالم الخارجي، وفقدانه لبطولته وجدارته في أن يكـون مركزا للكون.

فإن الصورة ذاتها يتم تلمس مظاهرهـا فـي هـذه المجموعة لكن من خلال رسم لوحة الحياة المهشمة والمهملة للمجتمع الريفي، حيث الاضمحلال والذوبان والتشيئ لثمـرة الالتصاق بعناصر الفضاء المكاني والانصياع لضـروراته، نتيجة عدم القدرة على الفعل المؤثر في عناصر هذا الفضاء وأشيائه.

هذه الشخصية الهامشية المصورة فنيـا ليسـت إلا معادلاً لواقع تهميش الريف وتحول عالمه وبشره إلى كائنات أنثربولوجية تثير دهشة السياح في زمن الانفتـاح واقتصـاد السياحة كما في (المؤتمر الصحفي الأخير للفاتنة مباركـة) حيث تبدو المفارقة في ذروتها عند اعتبار ما يميـز أصـالة (مصر المفتوحة) إنما يمكن في قريتهـا البائسـة، وعتـه

(مباركة)، حيث لكل قرية في ريـف مصـر مباركتهـا، مخلوقة لا يعرف أحد أهلاً لها، فذات يوم لا يذكره أحد نبتت من الغيب، وخرجت من رحم المجهول.

تلك هي صورة الأصالة في مواجهة (حضارة هـذا العصر المزيفة، وفق خطاب الترجمان)، وهو يتحدث عـن شركة كنوز مصر السياحية الأمريكية ـ المصرية. ولعـل هذه القصة هي الوحيدة التي تنطوي على اسـتخدام تهكمـي وساخر للحكي واستخدام الدلالة المعاكسـة للجملـة رغـم الفصاحة الشديدة التي تكون أجواء القصة.

النثر القصصي، فن مديني تعريفًـا، فهـو المعـادل لنثريات الحياة المدنية وقطاعاتها السفلى بما تنطوي عليه من إيقاعات ومدركات، لكن القعيد يتمكن بأصالة خاصة ونادرة من تطويع هذا الفن لاستجلاء اللحظة الخاصة في مجريـات حياة الريف الراكدة، دون توتر رومانسـي يكفـر بالمدينـة المتعمرة لصالح طهرانية الريف كما يفعل معظـم الكتـاب العرب المنحدرين من أصول ريفية، بل هـو يـتمكن مـن الكشف عن أعمق المشاعر الإنسانية والكونية، من خلال هذه الكائنات الغائصة في بؤسها وشقائها، (فمحمد أبو إبراهيم)

في قصة (مناجاة القلب الحزين) يكتشف بعد ثلاثين سـنة معنى وأهمية أم إبراهيم في حياته، لكن بعد فـوات الأوان، وأم إبراهيم تكاشفه بأنه لم يكن يحبها، ولم يكـن يعاشـرها كالآدميين، وإنه سيكون سعيدا لمواتها، لكي يتـزوج امـرأة تنجب له طفلاً يحمل اسمه، أفاضت بذلك دون أن تقول لـه إنها كانت بمجرد أن تمتد يده إلى جزء من جسـمها حتـى يقشعر بدنها وتشعر برغبة في القيء، تلك هـي تـداعياتها الملفوظة والسكوت عنها، بينما هو يقسم أنه لـو امتـد بهـا العمر بعد هذه الليلة، لتغيرت حياتهما معا، لكن القصة تنتهي بأنه مضى وهو يبكي.

هكذا تمضي ثلاثون سنة في حياة زوجين، مطمورة بالبؤس وعدم الإحساس بالآخر، سوى ما تكنه المرأة خـلال هذه الفترة من نفور واشمئزاز، مع ذلك فهي تعاتبه على عدم محبته، وعدم حسن معاشرته لها، عبر حركة دائرية للزمن، يستخدم فيه القطع والحذف والتقديم والتأخير، والاسـترجاع وكل التقنيات في استخدام زمن السرد زمـن الحكايـة ممـا يصعب تحليله في هذا السياق.

ليرتقي بفن القص ووظائفه التركيبيـة والتوزيعيـة والتحفيزية والإبهامية والدلالية بما تفيض عنه من مشـاعر إنسانية متداخلة ومتراكبة تذكرنا بعوالم فوكنر لاسيما روايته (عندما كنت محتضرة).

في هذه القصـة تتـوازى الوحـدة التوزيعيـة ذات الوظيفة التركيبية في بناء متن الحكاية مع الوحدة الاندماجية ذات الوظيفة الاستبدالية وتتداخل الوحـدتان لتكشـف بنـاء القصة عن أبعاد دلالية تشف من وراء الكلمات، وتتوالد فـي شبكة تناظر الحكاية مع السرد المختلج برهافة الحس وحرارة الشعور.

إن الراوي الذي يهيمن على الخطـاب مـن خـلال غيابه في ضمير الغائب وهيمنة الوصف في عرض المكـان والأشياء بل والشخصيات أيضا، حيث على هـذه الأرضـية المكانية (الريف، يتأسس الحكي مما يجعل القصـة كتخيـل ذات مظهر مماثل للحقيقة، إذ يتمكن القـارئ مـن مرافقـة الكاتب في ارتياد أمكنته المجهولة وهو يتوهم أنـه قـادر أن يسكنها أو يستقر فيها إذا شاء، لكن قارئ هذه المجموعة لـن تغريه بالاستقرار في فضاءاتها القاحلة روحيـا، وإن كـان

يتراسل وجدانيا بشكل عميق مع الوجع الإنساني فيهما، رغم تغاير تجربته عن تجاربها، حتى ولو لم يعش في الريف قط، غير أن هيمنة الراوي لا تتم وفق سـيطرته الكليـة علـى الأحداث من خلال إخفائه الضروري خلفها، بل تتبدى هـذه الهيمنة من خلال إطلالته، التي تتبدى على الأغاب من خلال نهايات القصص، الأمر الـذي يفسـر لنـا هـذه الظـلال الرومانتيكية، والوظيفة التعبيرية الشعرية للجملة، من خـلال اختتام العديد من القصص بنهايات مجازيـة لا تنبثـق مـن منطقها الداخلي لهذه الخواتم، ولعل ذلك يتبدى بشكل صريح في نهاية قصة (قراءة الفاتحة في حقول البطيخ ليلاً) حيـث الراوي يطل كحكواتي معلنًا:

عن البطل كنت أقول.. أحكي قصتي، عـن الرجـل المفعم بالجسارة، عن الأسطورة.. أحكي عن الأدهم، سـبع الليل لكم يا أهل بلدتي..

هذه النهايات التي تحل فيها الذات (الراوي) محـل موضوعية مآل سيرورة الحكي تتعارض مع منظور الفضاء الوصفي الحيادي، لكنها تلتقي مع تلك النبرة والرنـة التـي تخلفها الوظيفة الدلالية للوحدات الاستبدالية.

ومثل هذه النهايات نصادفها فـي القصـة (صـهد الشراقي) حيث بكاء الأم، ووصول الدموع إلى فمها، يترك طعم ملوحتها في فمها الجاف المتشقق، ثم يـردف الـراوي معلقًا، و(هي تتذوق طعم الملح الذي كان مألوفًا في حياتهـا من قبل) لينتهي الحكي القصصي بهذه الجملة التي هي نتاج خطاب الراوي، وليست نتاج نمو الحدث وتطـوره باتجـاه مصائره المنبثقة عن نموه العضـوي الـداخلي، فالنهايـة المجازية تبدو وكأنها تعليق خارجي على مجريات الحدث.

والأمر نفسه نجده بشكل أكثر بروزا فـي قصـة " الشتاء يأتي إلى الضهرية، حيث القصة لا تعتمد على مـتن حكائي يشد جميع العناصر في وحدة بنائية، فهي تستند إلـى أسلوبية تصويرية، حيث العلاقة بين الكائن والطبيعة تتسـم بقسوة جبرية تجعل من الجفاف البارد لا ينبت في الأعمـاق سوى العقم.

لكن الإنسان رغم هذه الظروف يملك القـدرة علـى الحلم خارج هذا الجحيم المتلف،حيث التوازي بين الملفـوظ والسردي والأسطورة (الغلام الرضيع الذي يتكلم؟).

والأسطورة هنا تتناسخ في بيئة عناصـر التجربـة المعاشة، لتشف عن نوع هذه المعاناة الإنسانية التي تتسـرب عبر الحكي والكلمات بما تحمله من انفعالات وجدانية للراوي الذي يبدو متخفيا وراء الحكي، لكنه الحاضر أبدا عبر شحن الكلمات بالمعاني والدلالات، حيث الفضاء الريفـي كمكـان يتحقق في فضاء النص فيتحول إلى منظور شامل قادر على دمج الأسطورة في مكوناته ليفضي بفضائه الدلالي من خلال الصورة التي تخلقها لغة الحكي.

في حين أن قصة (البكماء) تنطوي على منظورها الدلالي من خلال تعبير الحكي في متن النص، مما يجعل من الدلالة ثمرة تشابك عناصر الحكي ذاته، أي من خلال التحكم بالوحدة التوزيعية ووظائفها التركيبية التي تفضـي بالمجـاز بمثابته مجازا بنائيا، يتولد من تراكم الأحداث، لا من الوظيفة التعبيرية للغة، حيث إن الفضاء المكاني ليس ضرورة بنائية لتوليد الدلالية، فيمكن للحدث أن يتحقق في الريف أو المدينة فالمعول عليه نوعية الشخصية (البكماء) ونمـط صـلتها بالمحيط، وطبيعة تواصلها بالآخر، لكن جريان الحدث فـي الريف يومئ إلى مستوى آخر من مستويات دلالة الحـدث،

فالرغبة في التواصل الإنساني ليس حاجة إنسـانية للصـفوة البشرية، بل إن الإنسان رغم أنه يعيش في هذا العالم الـذي يغط في الإهمال والنسيان ينشد التواصل، ويمتلـك مشـاعر إنسانية رفيعة ليست حكرا على رفعة المقام الاجتمـاعي أو الثقافي، فالبكم والعجز والعزلة والإهمال لـن تعطـل فـي الإنسان قدرته على تحقيق نفسه بالإنسان.

هذه النغمة الإنسانية تتخلل قصص المجموعة رغـم بيئتها الريفية الموغلة في محليتها، ورغـم القتـام والكآبـة والسكون هناك سطوع لمشاعر إنسـانية لا يمكـن وأدهـا فالأسطى (أحمد) في قصة رحلة الأسـطى أحمـد وأختـه بهية، يرتعش قلبه بالحب حتى ولو بعد السـتين، والفضـاء الريفي يحضر في هذه القصة بوصفه مناخًا روحيا للبـراءة والبساطة والعفوية، ومرجعا لمنظومة القيم في ذهن الأسطى (أحمد)، هذه المرجعية سترتطم بمنظمة مغايرة بشدة، فتنشأ المفارقة أن قلبه الذي ارتعش بعد سكون طويل، لم يـرتعش إلا باتجاه عاهرة، فلا يبقى أمامه سوى أن يبكي.

قبل أن ننهي هذه الإطلالة السـريعة، فالمجموعـة بحاجة إلى وقفات تحليلية مطولة لنتمكن من الإحاطـة بفـن

القص عند كاتب مجرب وذي خبرة عميقة وأصيلة كالقعيـد، نقول قبل الانتهاء من هذه الإطلالة، كنا نتمنى على الكاتـب أن يجعل قصته (كما تكتب القصص السياسية الرديئة) آخر قصة في المجموعة، نظرا لما انطوت عليه هذه القصة مـن دلالات، كان يمكن لها أن تكون خاتمة سفر الفلاحين الـذين يصعدون إلى السماء ففزع جرس المقاول من قبل طـوابير الفلاحين في دورانهم اللانهائي، كان يمكن أن يكون مجـازا بدائيا يتوج حالة الفيقوقة بعد غيبوبة طويلة كان يغـط فيهـا الريف في عالم النسيان والهامشية والإهمال، لينبعث فضـاء دلالي جديد.

د. عبد الرازق عيد

رائحة الليل:

ما أن تأتي هذه اللحظة، اللحظة التي يتلـون الأفـق الغربي فيها بلون الدم، وتطول ظلال الأشياء، وتبهت أشـعة الشمس وتتحول إلى لون ذهبي يتمـدد فـي ليونـة علـى المساحات اللانهائية من خضرة الحقول، تتـداخل مسـاحات الظلال مع المناطق التي تغطيها الشمس، تتحـول خضـرة النباتات من اللون الأخضر الرصاصي إلى زرقة خفيفة.

ما أن تأتي هذه اللحظة، حتى يستعد البلد للغوص في بحر من الركود المعتم، ترتفع الظلمة من المناطق الغويطة، الأودية، السهول، تهبط من المساحات الفضائية التي تفصـل بين السماء والأرض، تقرأ، في لحظة الغروب من كل يـوم، في عيون الناس هنا، الحنين لشيء غير محدد، الرغبة فـي العودة إلى منازلهم، الاستعداد للسفر في الليل، للحكايا علـى المصاطب المستطيلة.. في الحقول، الجاموسة والبقرة، وقـد راحت وهي شبه نائمة، تجتر ما أكلته طول النهار.

الليل الأول:

يقوم أبو الغيط من مجلسه (يكون فـي المصـلى، جالسا، يستمع إلى درس العصر، وهو وعظ ديني، يبدأ عقب صلاة العصر، ولا ينتهي إلا لحظة الغسق، ويتناول أمـورا عامة) يلم ذيل جلبابه في يده، ويرفعه، تبدو بطـن رجلـه رفيعة، معروقة، عارية إلا من شُـعيرات قليلـة.. يركـب مداسه، يسير ناحية البلد، يعرف جيدا أن هذه هـي سـاعة المغربية بلا زيادة وبلا نقصان، يذهب إلى التليفون.

(يوجد هناك التليفون، قد يكـون التليفـون الوحيـد بالبلدة، وسلاحليك السلاح، ومكتب الباشكاتب، ودوار العمدة، وحجرة النوبتجية، غير أن هذا كله اسمه التليفون) كي يستلم سلاحه، يوقع بخطه المتعـرج، فـي دفتـر قـديم، متآكـل الأطراف، باهت اللون، باستلام البندقية.

يعود إلى منزله، نسمة هواء كسلى، تعبر الحارة في فتور، يقف على باب منزله، يمسح طربوشه بطـرف كمـه الأيمن (هذا الطربوش يحمل رقمه، ويميزه عن باقي الناس هنا). ينتعل حذاءه الميري، يخرج. الذين عادوا من حقولهم

مبكرين، يجلسون على المصاطب في ساعة العصر النديـة، الحارات تقطر طراوة تبعث الانشراح.

ـ سلامو عليكو يا رجاله.

كان على أبي الغيط أن يكررها، كلما مر بجماعـة من الرجال، يردون عليه:

ـ وعليكم السلام ورحمة ا وبركاته، أتفضـل يـا شيخ الخفر.

ـ ا يكتر خيركم.

البخار يتصاعد من أكواب الشاي، دخـان الجـوزة يخرج من الأنوف التي اسودت من كثرة التدخين، يرتـدون الملابس النظيفة، ذات الألوان الفاقعـة والخطـوط الطوليـة والعرضية، خرج أبو الغيط من حجرة التليفون، هبط الظلام على كل شيء، هبت عليه، وهو أمام حجرة التليفون، نسـمة هواء، فحملت له رائحة الليل، أدرك أنه مقبـل علـى ليـل مفروش بالهموم والأحزان.

الليل الثاني:

سار إلى دركه في شرقي البلد. (والبلـد مقسـمة، بمعرفة شيخ الخفر شخصيا إلى مناطق، كل منطقة معينـة، مسئول عنها خفير، وكل منطقة تسـمى درك) أدرك أنـه متعب من العمل في الحقل، طول النهار (وظيفة الخفير هنا، من الوظائف التي لا يتفرغ لها أحد، فهي عمل يقوم به إلـى جانب عمله الأساسي وهو الفلاحة، في قطعة أرض يمتلكهـا أو يؤجرها)، ولكن لا بد من السهر حتى الصباح.

تذكر عشة وردة، الشاي، المعسل، الضحك حتى مـا بعد منتصف الليل، فأدركته بعض الراحة. أوغل الليل فـي صمته وسواده، السماء من فوقه مفروشة بالنجوم الشـاحبة، نباح الكلاب، أنين ساقية تدور على البعد، صوت رجل ينادي على آخر في الظلام البعيد، رجل يغني لنفسه، يقطع الغناء، وصوته ليس جميلاً على كل حال، كي يستحث حماره علـى السير، هدأ كل شيء، صوت رجل بـالقرب منـه، أمسـك بندقيته الميزر، صاح بأعلى صوته:

ـ من هناك؟

ضحك على نفسه عندما عرف فيه الشيخ عبد الفتاح، إمام المسجد، اقترب منه، شم فيه رائحة الليـل، عـاد إلـى وجومه، تذكر أن زوجته، هذا المساء، كانت جميلـة، فلعـن لقمة العيش، وإنها حكت كعوبها بطوبة حمراء، حتى كاد الدم يبك منها (تقوم المرأة بأفعال محددة، كالطقوس المحفوظـة، تقوم بها المرأة مع نزول الليل، وذلك بعد أن تنتهي من عمل العشاء، وبه تتم عملها اليومي، فتغسل قدميها، وتفك شعرها، وتغير ملابس العمل اليومية، بملابس زاهية الالـون، خفيفـة شفافة).

تمنى أبو الغيط أن يذهب إليها، لا بد وأنهـا نائمـة، أنفاسها تخرج في ليونة، صدرها الممتلـئ يعلـو ويهـبط، الخصر النحيل، البطن المتماسك رغم أنه عرف الحمل أربع مرات. أخرج أبو الغيط علبة الدخان الصدئة (يلف بنفسـه سجائره، ولا يشرب سجائر المكنة، إلا في مناسبات خاصة، كالفرح أو المأتم، أو عندما يعزم عليـه أحـد بهـا). لـف سيجارة رفيعة حتى يكفيه الدخان حتى الصباح.

وجد نفسه يغوص في كتل الظلام ومساحات الصمت فترحم على كل شيء فكر: في كل مرة يسقط الظلام يستحق

الإنسان أن يتلقى العزاء، في الظلام العميق يموت الإنســان بمفرده، سار أبو الغيط قليلاً، نظر حوله، في الظلام، تتـوه معالم الأشياء، تتغير سحنتها، لا يملك الإنسان إلا النظر فـي أعماق ذاته.

عاد أبو الغيط إلى مكانه الأصلي، الليل بـدا يخـر ظلامه وصمته. الشيخ عبد الفتاح فوق مئذنة سـيدي أحمـد النشابي:

ـ ا أكبر، ا أكبر.

عبد الستار جاره، يروي أرضه التي اشتد ظمؤهـا للماء. وردة في عشتها، توزع الدور الأول من الشاي. محمد محمد، يستعد لإغلاق دكانه، بعد أن قل عدد الزبـائن. (لا يبقى بعد صلاة العشاء، حول دكانه سوى عدد قليل، يقفـون أو يجلسون، لأسباب غير البيع والشـراء، لسـماع نشـرة الأخبار، أو الأغاني من الراديو، أو الحـديث بـلا هـدف واضح، سوى الرغبة في إزجاء الوقت، ونـادرا مـا يقـوم أحدهم، أثناء ذلك، إلى البنك، في طلب شيء ما) الكلوب في دكانه، بهت نوره، هجمت عليه كتل الظلام من كل جانـب، فتحي العايق يمني نفسه بليلة مترعة بالوصال مع وردة.

يمر عليه شيخ الخفر، ويوصيه بكذا وكذا، يطلب منه بعبارات محفوظة أن يكون يقظًا. لا بد وأن يخرج أبو الغيط علبة الدخان، إنه يدرك أن ما بقى فيها قليل، ولكن مـا مـن إخراجها بد، يبدي شيخ الخفر تمنعه، يلح عليه، يمر الأمـر بسلام، بعد ذلك، تأتي دورية النقطة الثابتة.

ـ من هناك؟

يضحك الشاويش فتحي:

ـ لا يا ولد صاحي.

تتم الأمور مثل جميع الليالي، كل هذا يمضي سريعا، يذهب كل لحاله، لا يبقى في نهاية الأمر، سوى أبي الغـيط بمفرده. يحدث الصمت ويتحسس الظلام، يسمع كل همسـة، كل آهة تخرج من البيوت التي يحرسها. يمضي الليل، ثقيـل الخُطا، بطيء السير، أخرس، له رائحـة الأرض المرويـة حديا، أو رائحة الزرع الأخضر، في فصل الربيع.

الظلام يخنق البيوت، تغوص فيه هامـات النخيـل وشواشي الأشجار، فلا يبدو منها شيء ما. الصـمت يغتـال التأوهات، وكلمات الشوق الملتاع، نقيق الضـفادع، صـفير الصراصير، أنين السواقي، وغناء السحاب الأزرق الـداكن،

لا تبدو منه سوى مزق صغيرة باهتة، وأبو الغيط يتكئ على بندقيته الميزر الصدئة في خوف وحذر.

بين الحين والآخر، يسمع سعلة من بعيد، يرد عليها (هذه السعلة هي الدليل الوحيد على أنه يقظ لم ينم، وهي تقليد وضعه لهم شيخ الخفر بنفسه، وتجري الأمور، عادة، على هذا النحو، تبدأ من قبل البلد، من أول خفير، وتستمر حتى آخر خفير، وهكذا، وما على كل خفير يأتي عليه الدور، إلا أن يسعل بصوت عال).

تهب الرياح فجأة، حاملة معها رائحة الليل، يصيح:

ـ من هناك؟

تتسلل قطة بجوار الحائط، فيقول:

ـ من هناك؟

ولا أحد سوى أبي الغيط نفسه.

عاد أبو الغيط من عشة وردة، شرب الشاي، أخذ نفسين من الجوزة التي داخت من كثرة اللف وسطهم. عندما وقف تماما، وضع البندقية على كتفه، وضع يده اليمنى في جيبه، موهما الكل أنه سيدفع الحساب.. همست وردة في حروف لينة ممطوطة:

ـ عيب يا شيخ الخفر.

تعالت أصوات الباقين:

ـ يا راجل عنك.

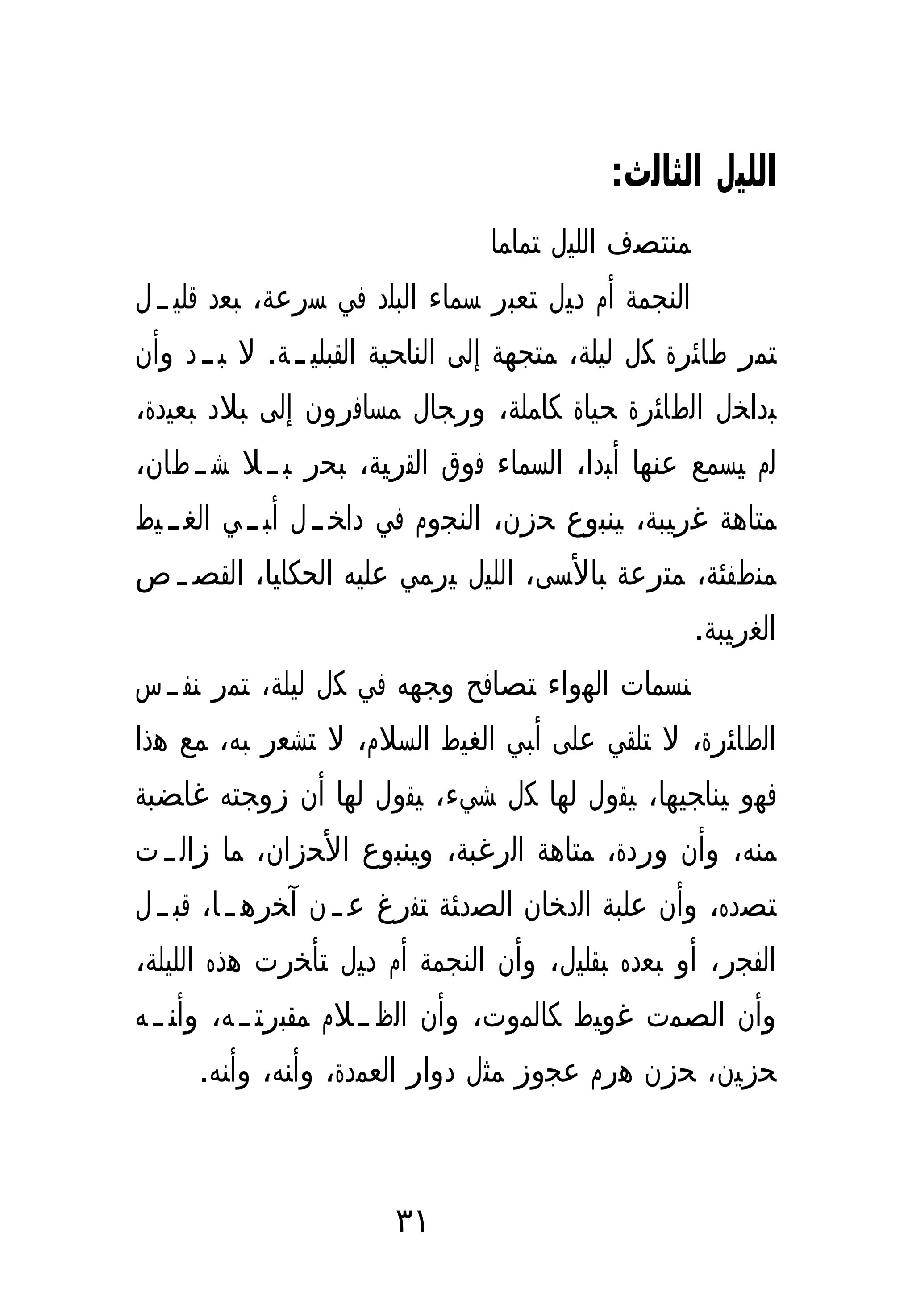
طلبه على حسابي يا وردة.

حمل بندقيته وهمومه، خرج من العشة، عـاد إلـى الصمت والظلام.

ـ من هناك؟

ينظر إلى البيوت. فكر، لو تعلمت فـي المـدارس، لحاولت عد النجوم (يستخدم النجوم لمعرفة الجهات الأربـع الأصلية، وبالتالي لمعرفة البلدان المجاورة، وعـن طريـق النجوم، يعرف أبو الغيط، لحظة انتصاف الليل، وساعة قدوم الفجر).

ينظر إلى البيوت التي يلفها الظلام المعتم، عندما يفك السحاب الأزرق الغامق حصاره حول القمـر، تبـدو علـى جدران البيوت خطوط متعرجة من أيام انتخابـات مجلـس الأمة، لو كنت أعرف القراءة، يدوس علـى ظلـه، يخنـق السحاب القمر مرة أخرى، يموت ظله، يضـيع، يتـوه كـل شيء، يبحث عن الظلال تحت قدميه، لا يجد شيئًا.



الليل الثالث:

منتصف الليل تماما

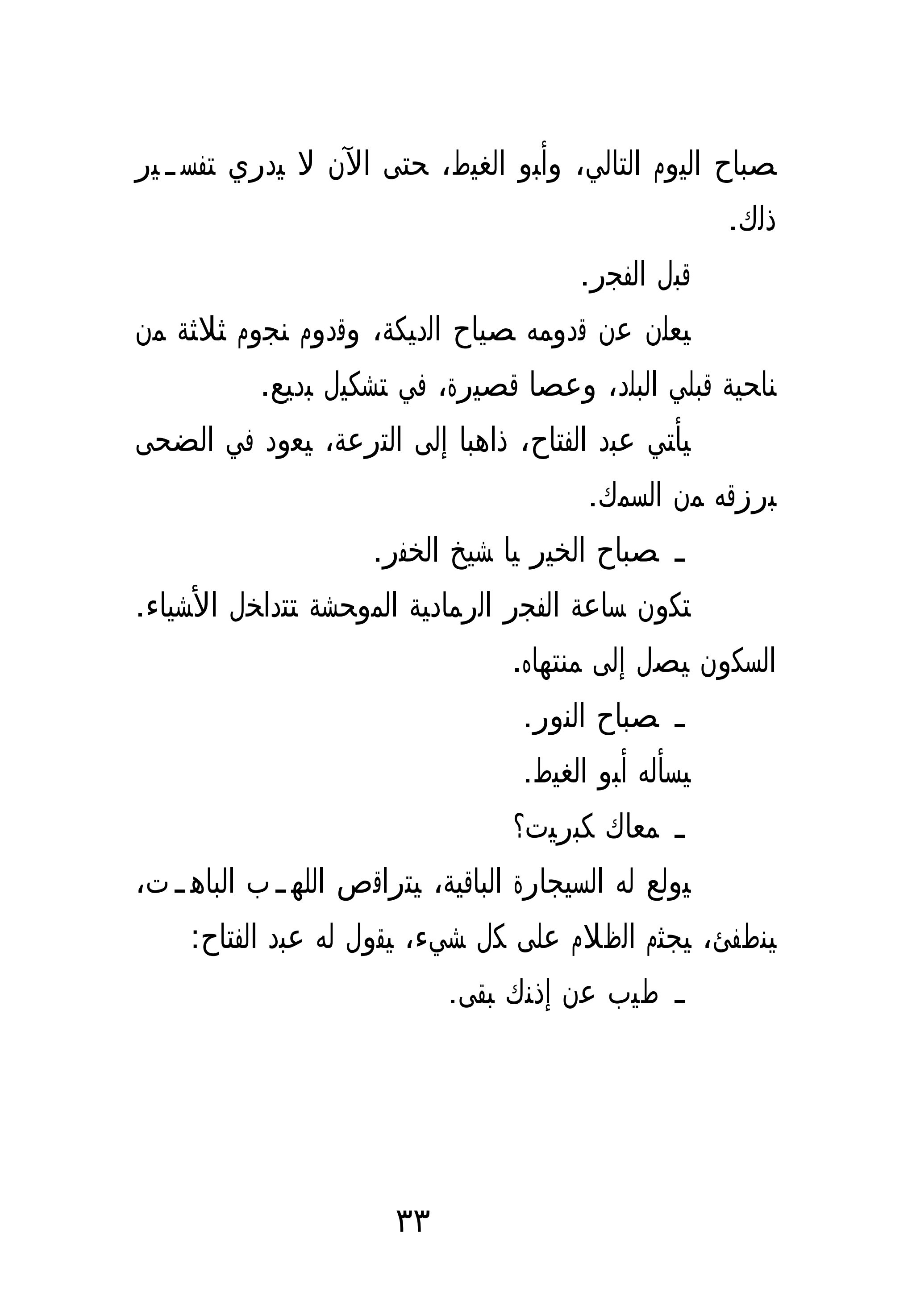
النجمة أم ديل تعبر سماء البلد في سرعة، بعد قليـل تمر طائرة كل ليلة، متجهة إلى الناحية القبليـة. لا بـد وأن بداخل الطائرة حياة كاملة، ورجال مسافرون إلى بلاد بعيدة، لم يسمع عنها أبدا، السماء فوق القرية، بحر بـلا شـطان، متاهة غريبة، ينبوع حزن، النجوم في داخـل أبـي الغـيط منطفئة، مترعة بالأسى، الليل يرمي عليه الحكايا، القصـص الغريبة.

نسمات الهواء تصافح وجهه في كل ليلة، تمر نفـس الطائرة، لا تلقي على أبي الغيط السلام، لا تشعر به، مع هذا فهو يناجيها، يقول لها كل شيء، يقول لها أن زوجته غاضبة منه، وأن وردة، متاهة الرغبة، وينبوع الأحزان، ما زالـت تصده، وأن علبة الدخان الصدئة تفرغ عـن آخرهـا، قبـل الفجر، أو بعده بقليل، وأن النجمة أم ديل تأخرت هذه الليلة، وأن الصمت غويط كالموت، وأن الظـلام مقبرتـه، وأنـه حزين، حزن هرم عجوز مثل دوار العمدة، وأنه، وأنه.

المسافرون في هذه الطائرة، لن يعودوا إلا بـالوهم والجنون، بعد مرور الطائرة يشرق القمر، نـوره الفضـي يغسل الأشياء، يمنحها شكلاً جديدا من أشكال الحياة، شـكلاً هادئًا، فضي اللون، ساجيا.

على ضوء القمر، تكتسب التصـاوير والرسـومات والأشكال على الحيطان حياتها. تتكحل بقطرات فضية مـن الضوء المصفى، تعيش من جديد، حج مبـرور، أبـو زيـد الهلالي يركب حصانه، صورة الكعبة الشـريفة. و علـى الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، عند دكـان محمـد محمود. بقالة الضهرية المتحدة. الشـكك ممنـوع والزعـل مرفوع، والرزق على ا مضمون.

ما يدهش أبا الغيط، أن هذه التصاوير، تكتسب فـي الليالي المقمرة معنى جديـدا، شـكلاً معبـرا، هـي نفـس الرسومات، ولكنها تبدو بالنهار شيئًا عاديا، باليا، تفوح منـه رائحة القدم، يعلوها غبار يؤكد بطء مرور الأيام والليـالي. أما في الليالي المقمرة، فإنها تعيش من جديد، تتحرك، تروح وتجيء، يعايشها أبو الغيط، غير أنها تموت في نفسه، فـي


صباح اليوم التالي، وأبو الغيط، حتى الآن لا يدري تفسـير ذلك.

قبل الفجر.

يعلن عن قدومه صياح الديكة، وقدوم نجوم ثلاثة من ناحية قبلي البلد، وعصا قصيرة، في تشكيل بديع.

يأتي عبد الفتاح، ذاهبا إلى الترعة، يعود في الضحى برزقه من السمك.

ـ صباح الخير يا شيخ الخفر.

تكون ساعة الفجر الرمادية الموحشة تتداخل الأشياء. السكون يصل إلى منتهاه.

ـ صباح النور.

يسأله أبو الغيط.

ـ معاك كبريت؟

يولع له السيجارة الباقية، يتراقص اللهـب الباهـت، ينطفئ، يجثم الظلام على كل شيء، يقول له عبد الفتاح:

ـ طيب عن إذنك بقى.

يتركه، يمضي، يعود أبـو الغـيط إلـى الصـمت والوحدة، يتحسس البندقية، ينظر إلى الاتجاه الذي سارت فيه الطائرة. ينحسر على كل شيء.

في الصباح، يذهب إلى زوجته، لا بد وأنها غاضبة، لن يقول لها أي شيء، يأخذ منها ثمن باكو دخان، يخـرج، يذهب إلى الحقل.

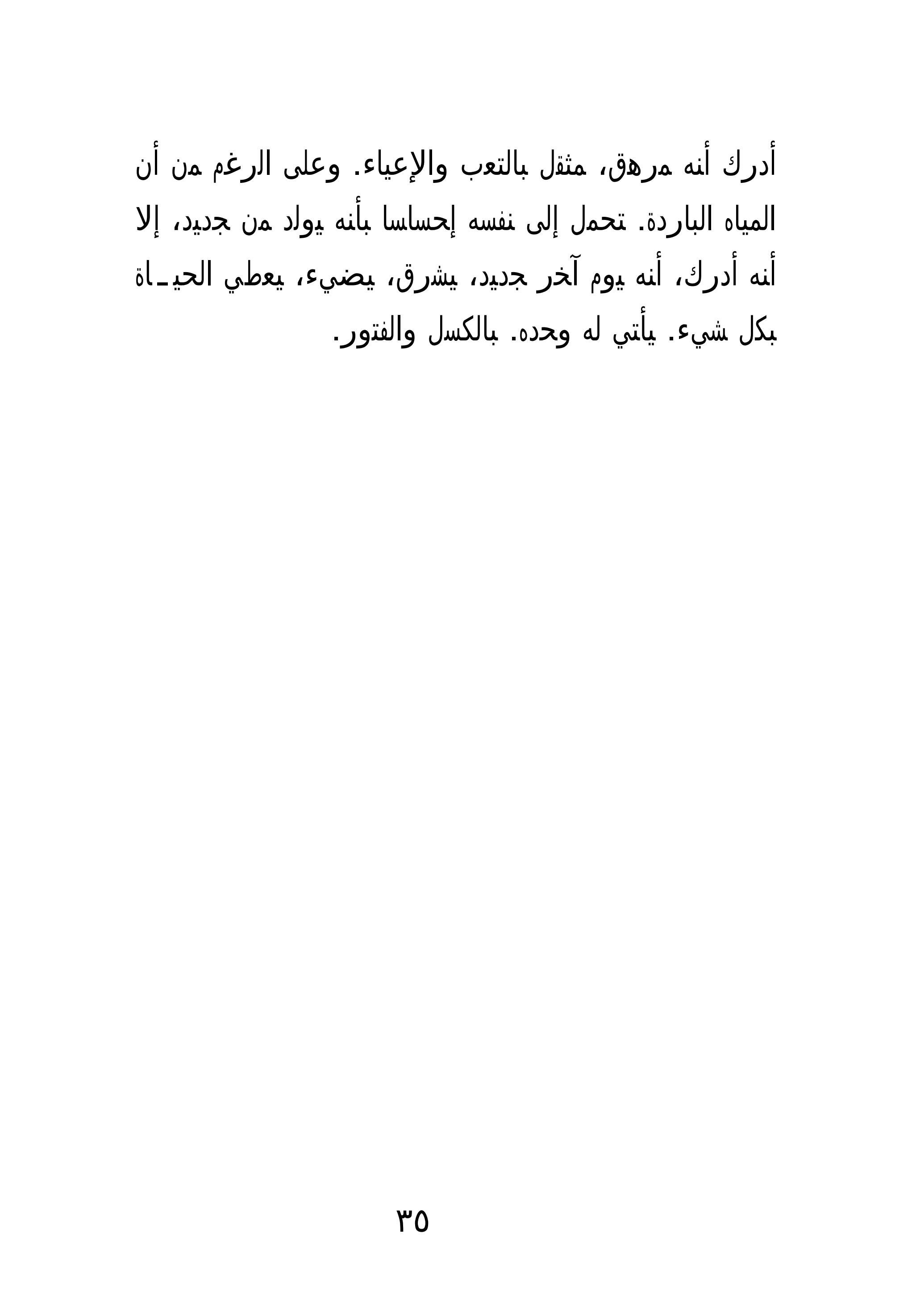
عندما سمع الصوت المألوف.

ـ الصلاة خير من النوم.

هان عليه كل ما لقاه في ليلته.

يبدأ لون النهار الأزرق. الظلام يتحول، ببطء، إلـى زرقة خفيفة، تبدأ ملامح الأشياء تتضح. الزرقة تذوب فـي بحر رمادي، يسمع شقشقة العصافير. صوت تساقط قطرات الندى فوق الأوراق، يدوس بقدمه على النجيـل الأخضـر. اللون الذهبي يتداخل في كل شيء، حديد البندقيـة الصـدئ، طنبوشة الساقية القريبة.

قضى أبو الغيط حاجته بجوار مدار الساقية. أقعـى على شط القناة، أخذ بيديه قليلاً من الماء البارد، رفع يديـه إلى وجهه، ترك المياه تناسب على ملامح وجهه المجهـدة،



أدرك أنه مرهق، مثقل بالتعب والإعياء. وعلى الرغم من أن المياه الباردة. تحمل إلى نفسه إحساسا بأنه يولد من جديد، إلا أنه أدرك، أنه يوم آخر جديد، يشرق، يضيء، يعطي الحيـاة بكل شيء. يأتي له وحده. بالكسل والفتور.

مناجاة القلب الحزين

" ١ "

عندما عاد محمد أبو إبراهيم، من الحقل في المساء، فوجئ بجمع من الناس أمام بيته. دهش، أسرع في سيرة نبت في داخله أكثر من تساؤل، وحاول أن يتصور ما يمكـن أن يتسبب في جمع هذا العدد من أهالي البلد أمام منزله. وعندما أصبح على عتبة داره، لم يشعر به أحد، كانت النـاس فـي داخل المنزل أكثر منهم خارجه، حـاول أن يبعـد الأطفـال والصبية المتزاحمين، كي يوجد لنفسه طريقًا يـدخل منـه، تنحنح أكثر من مرة، وضع الفأس على الأرض.

ـ فيه إيه يا جماعة؟

رفع صوته كي يشعر أهل البلد بوجوده، وبأنه عـاد أخيرا من الحقل، وبأنه متعب مهدود الحيل، يود أن يرمـي نفسه، وينام نومة لا يقوم منها.

ـ فيه إيه يا جماعة؟

هذه المرة فقط سمعوه، واتجهت إليه الأنظار، ودون أن يدري، ارتفعت يده الخشنة وعبثت بشاربه الكث، ونزلت أصابع يده لتمر على ذقنه الطويلة، رد أكثر من واحد:

ـ مراتك.

وقبل أن يسأل عما حدث: أشارت الأيدي والعيـون إلى الحجرة الداخلية، وهي الحجرة الوحيدة في منزله، كانت الحجرة مظلمة، ثمة لمبة جاز صغيرة في كوة بالجدار فـي المقابل، غير أن الظلال الكثيرة لـ رءوس وأجسـام تـروح وتجيء مع النور الباهت، كانت تفرش الحجرة كلهـا فتبـدو مظلمة، وبعد أن ألفت عيناه الظلام، بدا له الأمر كله، زوجته ممدة على الأرض، ضئيلة لحد الموت، كانت عيناها تنظران إلى مكان ما في السقف، وكان تنفسها واهنًـا لدرجـة أنـه تصور أنها ماتت.

ـ ما لها يا جماعة؟

لم يتطوع أحدهم بشرح الأمر له، قال كل منهم كلمة. كانت الكلمات مهوشة، وبلا ترتيب، غير أنه فهم الموضـوع كله، زوجته مريضة، اكتفوا بقولهم أنها مريضة، أما مـا هو المرض؟ وكيف بدأ الأمر؟ فلم يكن هناك ما يقال، فـالمرض

يبدو لهم وكأنه ليست له بداية محددة وليست له أيضا نهايـة في يوم ما. أعاد نظره في الجالسين حول زوجته، كان هناك تساؤل يرف على شفتيه كالطير الحبيس، إنهم فعلوا المطلوب طوال النهار، فالمرض فاجأها وقت الضحى، وطلبـت هـي منهم ألا يرسلوا في طلبه، خوفًا على اليومية.

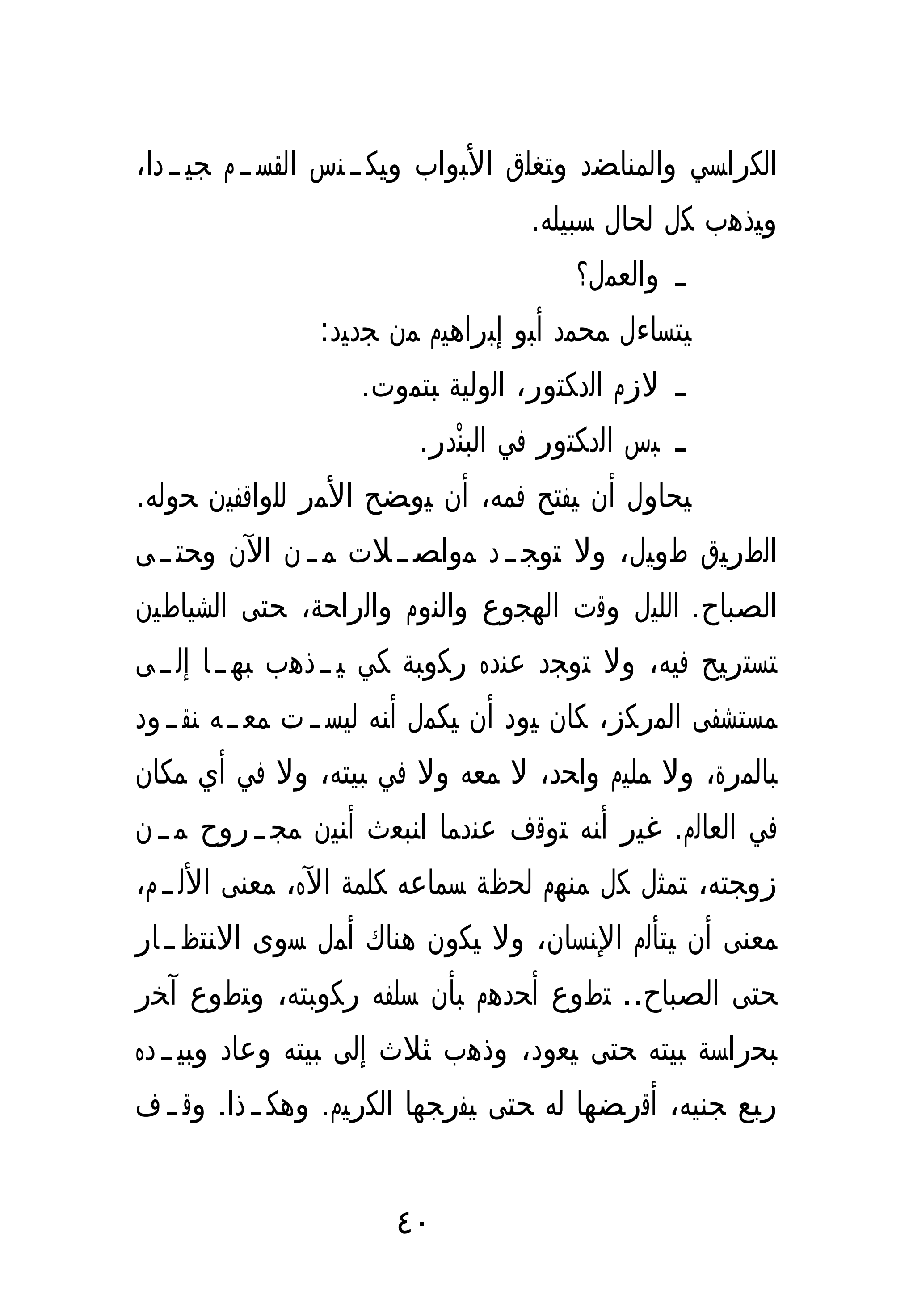
ـ وإيه العمل دلوقت؟

نظر كل رجل إلى الواقف بجواره، رفع أكثـر مـن رجل منهم يده إلى رأسه، علامة أنه يفكر في الأمر جيدا.

ـ لازم الدكتور.

ـ دكتور.

البلدة صغيرة، صغيرة جدا، نقطة باهتة لا حجم لهـا على خريطة الوادي، وليس بها مستشفى، بل تتبـع الوحـدة المجمعة في بلدة قريبة، والطبيب فيها يسـكن فـي البنـادر البعيدة، وما أن يؤذن الظهر، حتى ينظر إلى ساعته، ويخلع البالطو الأبيض ويرمي السماعة، إنه مسافر إلى البندر، وبعد سفر الدكتور بدقائق يبدو القسم الصحي لمن يـراه، وكأنـه مغلق منذ ألف عام مضت. في دقائق قليلة، يكون المرضـى قد طردوا (الدكتور سافر خلاص) هكذا يقولون لهم. وترفع



الكراسي والمناضد وتغلق الأبواب ويكـنس القسـم جيـدا، ويذهب كل لحال سبيله.

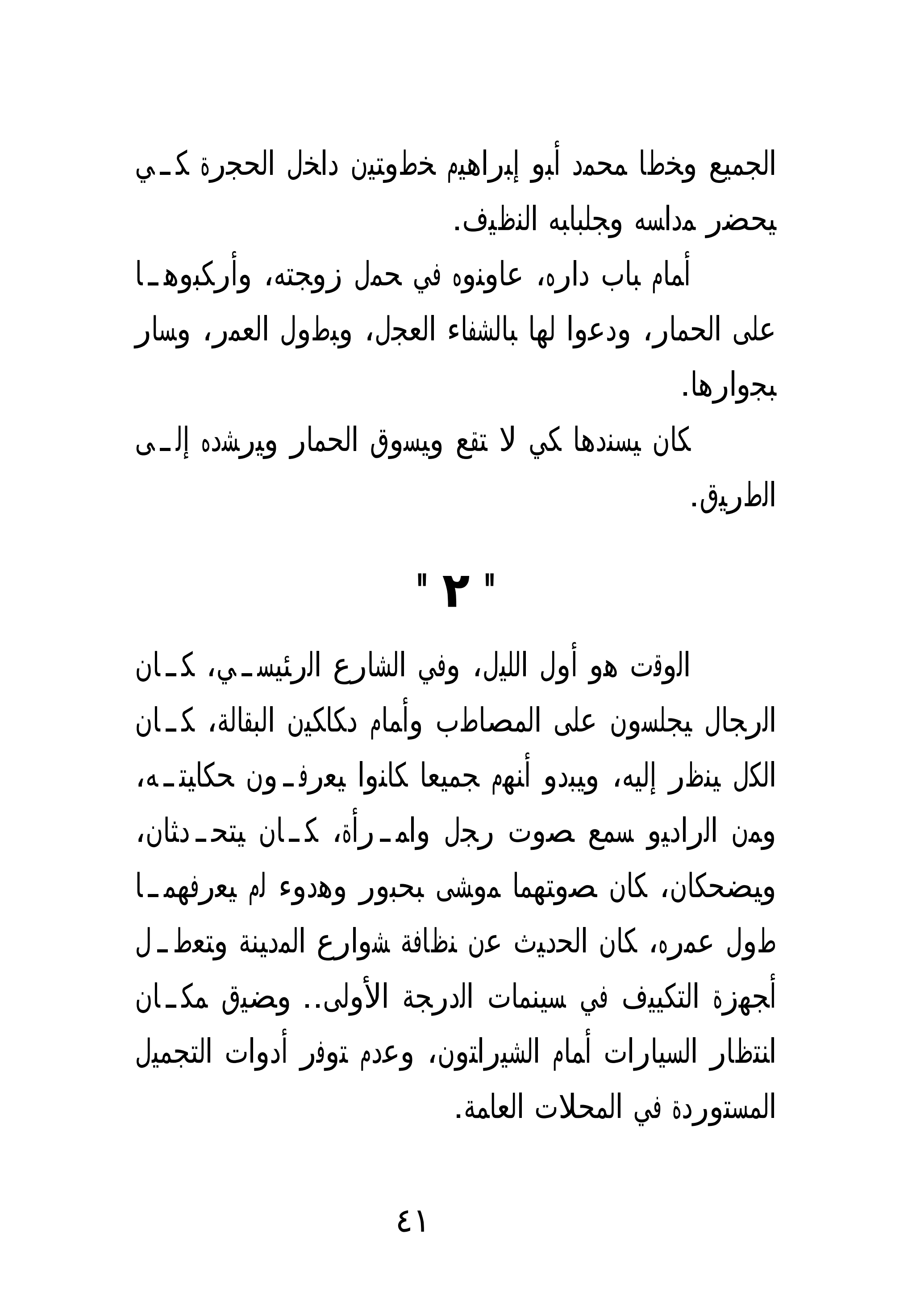
ـ والعمل؟

يتساءل محمد أبو إبراهيم من جديد:

ـ لازم الدكتور، الولية بتموت.

ـ بس الدكتور في البنْدر.

يحاول أن يفتح فمه، أن يوضح الأمر للواقفين حوله. الطريق طويل، ولا توجـد مواصـلات مـن الآن وحتـى الصباح. الليل وقت الهجوع والنوم والراحة، حتى الشياطين تستريح فيه، ولا توجد عنده ركوبة كي يـذهب بهـا إلـى مستشفى المركز، كان يود أن يكمل أنه ليسـت معـه نقـود بالمرة، ولا مليم واحد، لا معه ولا في بيته، ولا في أي مكان في العالم. غير أنه توقف عندما انبعث أنين مجـروح مـن زوجته، تمثل كل منهم لحظة سماعه كلمة الآه، معنى الألـم، معنى أن يتألم الإنسان، ولا يكون هناك أمل سوى الانتظـار حتى الصباح.. تطوع أحدهم بأن سلفه ركوبته، وتطوع آخر بحراسة بيته حتى يعود، وذهب ثلاث إلى بيته وعاد وبيـده ربع جنيه، أقرضها له حتى يفرجها الكريم. وهكـذا. وقـف



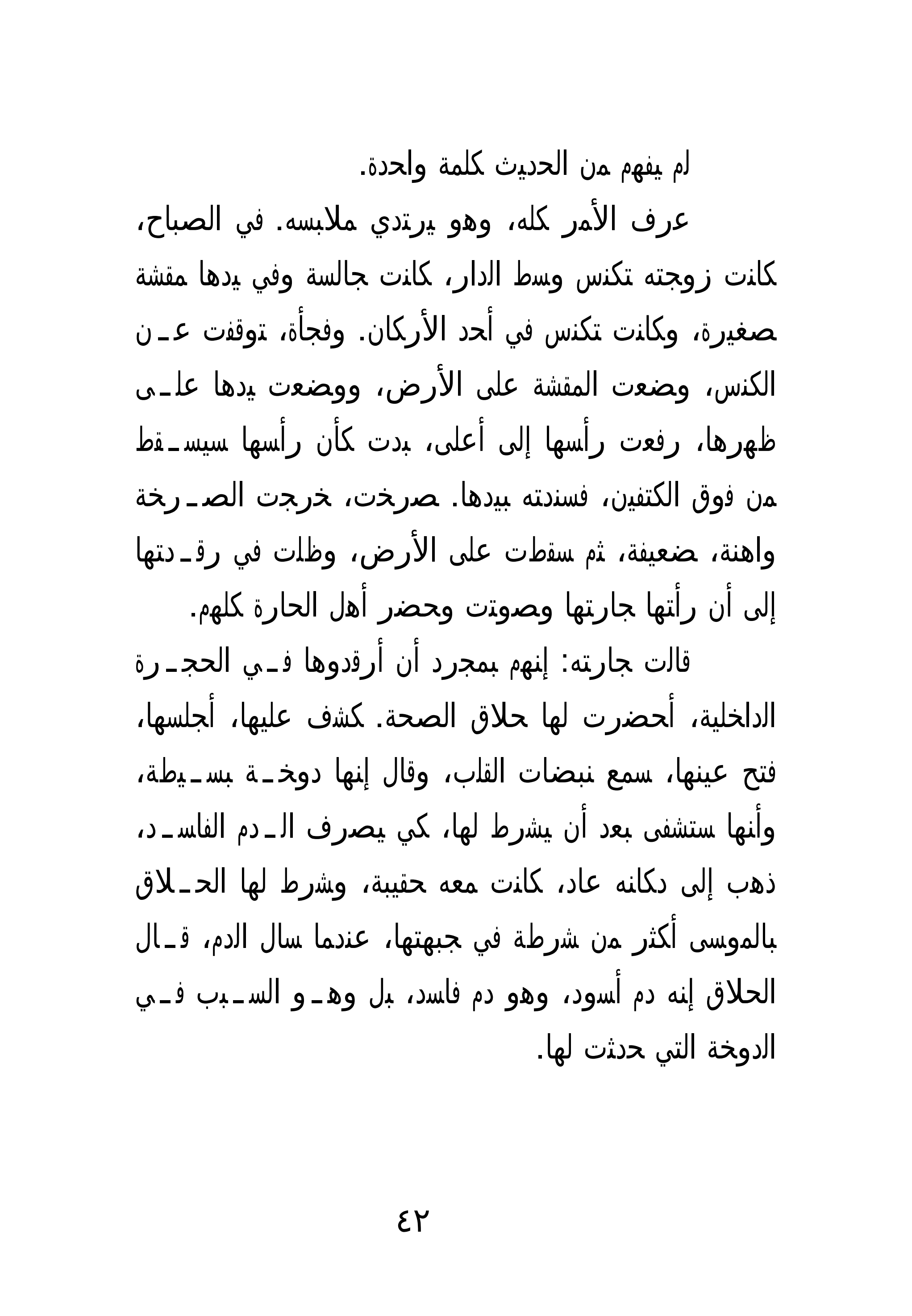
الجميع وخطا محمد أبو إبراهيم خطوتين داخل الحجرة كـي يحضر مداسه وجلبابه النظيف.

أمام باب داره، عاونوه في حمل زوجته، وأركبوهـا على الحمار، ودعوا لها بالشفاء العجل، وبطول العمر، وسار بجوارها.

كان يسندها كي لا تقع ويسوق الحمار ويرشده إلـى الطريق.

" ٢ "

الوقت هو أول الليل، وفي الشارع الرئيسـي، كـان الرجال يجلسون على المصاطب وأمام دكاكين البقالة، كـان الكل ينظر إليه، ويبدو أنهم جميعا كانوا يعرفـون حكايتـه، ومن الراديو سمع صوت رجل وامـرأة، كـان يتحـدثان، ويضحكان، كان صوتهما موشى بحبور وهدوء لم يعرفهمـا طول عمره، كان الحديث عن نظافة شوارع المدينة وتعطـل أجهزة التكييف في سينمات الدرجة الأولى.. وضيق مكـان انتظار السيارات أمام الشيراتون، وعدم توفر أدوات التجميل المستوردة في المحلات العامة.



لم يفهم من الحديث كلمة واحدة.

عرف الأمر كله، وهو يرتدي ملابسه. في الصباح، كانت زوجته تكنس وسط الدار، كانت جالسة وفي يدها مقشة صغيرة، وكانت تكنس في أحد الأركان. وفجأة، توقفت عن الكنس، وضعت المقشة على الأرض، ووضعت يدها على ظهرها، رفعت رأسها إلى أعلى، بدت كأن رأسها سيسقط من فوق الكتفين، فسندته بيدها. صرخت، خرجت الصرخة واهنة، ضعيفة، ثم سقطت على الأرض، وظلت في رقدتها إلى أن رأتها جارتها وصوتت وحضر أهل الحارة كلهم.

قالت جارته: إنهم بمجرد أن أرقدوها في الحجرة الداخلية، أحضرت لها حلاق الصحة. كشف عليها، أجلسها، فتح عينها، سمع نبضات القلب، وقال إنها دوخة بسيطة، وأنها ستشفى بعد أن يشرط لها، كي يصرف الدم الفاسد، ذهب إلى دكانه عاد، كانت معه حقيبة، وشرط لها الحلاق بالموسى أكثر من شرطة في جبهتها، عندما سال الدم، قال الحلاق إنه دم أسود، وهو دم فاسد، بل وهو السبب في الدوخة التي حدثت لها.

تقدم النهار، ولم تتحسن حالتها، وتطوع أكثـر مـن رجل، وتطوعت أكثر من امرأة، بوصف وصـفات كثيـرة، وذهب الجيران إلى منازلهم وأحضروا المطلـوب وعملـوا اللازم، غير أن حالتها لم تتحسن، لدرجة أن قال أحدهـم، أن الحكاية ليست حكاية مرض، وإنها يجب أن تـذهب فـي المساء إلى الشيخ عبد المقصود، وفي الحضرة سيزول التعب ويذهب المرض. وقال الجميع، إنها غلبانة، وأن زوجها رجل على قد حاله، وأن الشيخوخة قاسية وأن عمرها مع زوجهـا لا معنى له، وهما معا بلا أطفال وبلا أرض وبلا أهل. إنـه شيء مفزع إلى أبعد الحدود.

بعد قليل، تركوها وانصرفوا، بل إنهم منـذ الباديـة الأولى، ومنذ أن حضروا، كان كل منهم يفكر فـي أعمـال أرجئت وأشغال يجب أن تـتم، وبعـد أن حضـر الحـلاق ومضى، وقال كل منهم، ما كان يود قوله، حتى فكروا فـي الانصراف، غير أن أحدا منهم لم يشأ أن يكون هو البـادئ بترك المنزل إلى أن قامت واحدة، وقفـت تمامـا، نفضـت التراب من فوق ملابسها، استأذنت واعتذرت بـأن عنـدها

أولادا صغارا، وزوجها في الحقل يجب أن تجهز له غداءه، و.. و.. و..

قُبيل العصر، كانت كلمات (آه ياني، ويا ناس، ويـا عالم، ويا خالق هوه) تملأ الحارة، في البداية، لم يتصور أحد أن الأصوات العالية تصدر من المرأة المريضة، غير أنهـم بعد أن حضروا إليها أدركوا أن الألم عاودها أكثر من المرة الأولى، فجلسوا حولها، وراحوا يتسامرون إلـى أن حضـر زوجها.

" ٣ "

في الطريق، كان الليل والنجوم البراقة. وفي الظلام لم يكن يبدو سوى مجرى مائي يلمع تحـت نـور النجـوم الفضي اللامع، وعلى البعد أمامهما، ثمة أنوار باهتة صغيرة كحبات الخرز، تلمع وسط الظلام.

وكانت الأرض في كل النواحي حولهما، حفرة باردة عميقة، لا حد لعمقها، إنها مثقلة بذكريات الربيع والصـيف، وتنتظر في نفس الوقت الشتاء القادم الذي لا مفر منه أبـدا. لقد كانت الطبيعة من حولهما، تمر بأيام الخريف.

وفي الحقول الواسعة لم يكن هناك صـوت سـاقية تدور، ولا نباح كلب، ولا غناء فلاح يملأ رحابة الليل، ويبدد وحشة الظلام الدسم، ويتغنى بكلمات عن المرض، والعليـل الذي طال اشتياقه للعلاج، وخيانة الأصدقاء.

كان أمامه ومن خلفه جسر طويل ممتـد، لا يـدري أوله ولا آخره، شعر بأنه متعب ومهدود الحيل وغير قـادر على المشي، حاول أن يسرع في سيره كانت زوجته تـئن، أنينًا منقطعا، لم يكن يخرج من فمها سوى كلمـة آه يـاني، وعندما ازدادت تأوهاتها، حاول أن يفتح فمه، أن يكلمها غير أنه لم يجد ما يقوله واكتشف في هذه اللحظة، أنه لم يوجه لها كلمة واحدة طوال الطريق، فكر في أن يقول لها سلامتك، أو أن يقصر الطريق بكلمة أو كلمتين، غير أنه لم يمكن قد تعود على الحديث معها من قبل.

بدا الطريق طويلاً إلى البنـدر، وراح محمـد أبـو إبراهيم يتخيل الطريق كله، وراح يتذكر آخر مرة سار فيه، وحاول أن يحسب ما يستغرقه الطريق من وقـت، وغـرق بخياله في أنوار المستشفى وأغمض عينيه من الضوء الباهر، وراح يرص الكلمات التي سيقولها للـدكتور علـى طـرف

لسانه، ذلك أنه بعد أن يصل إلى المستشفى، يربط الحمار جيدا ويموت العقدة على الحديد كي لا يسرقه أحد، فأولاد الحرام في البندر لم يتركوا لأولاد الحلال شيئًا، يحمل زوجته على ذراعيه، كم ذكره ذلك بليلة الدخلة، ليلة أن حملها من المحمل حتى حجرته على يديه، كان ذلك منذ ثلاثين عاما وكانت الأيام حلوة، وكان هو شابا قويا، وكانت زوجته فتاة رائعة، رغم الفقر، كان لكل شيء طعمه الخاص، أما الآن في الاستقبال، يضعها على الأرض، والأرض البلاط تذكره بهواء الجنة الرطب، يجلس بجوارها، ينتظر حضور الطبيب، ويحضر الطبيب، ينظر إليه، وقد يركله بقدمه.

ـ مالك يا راجل أنت.

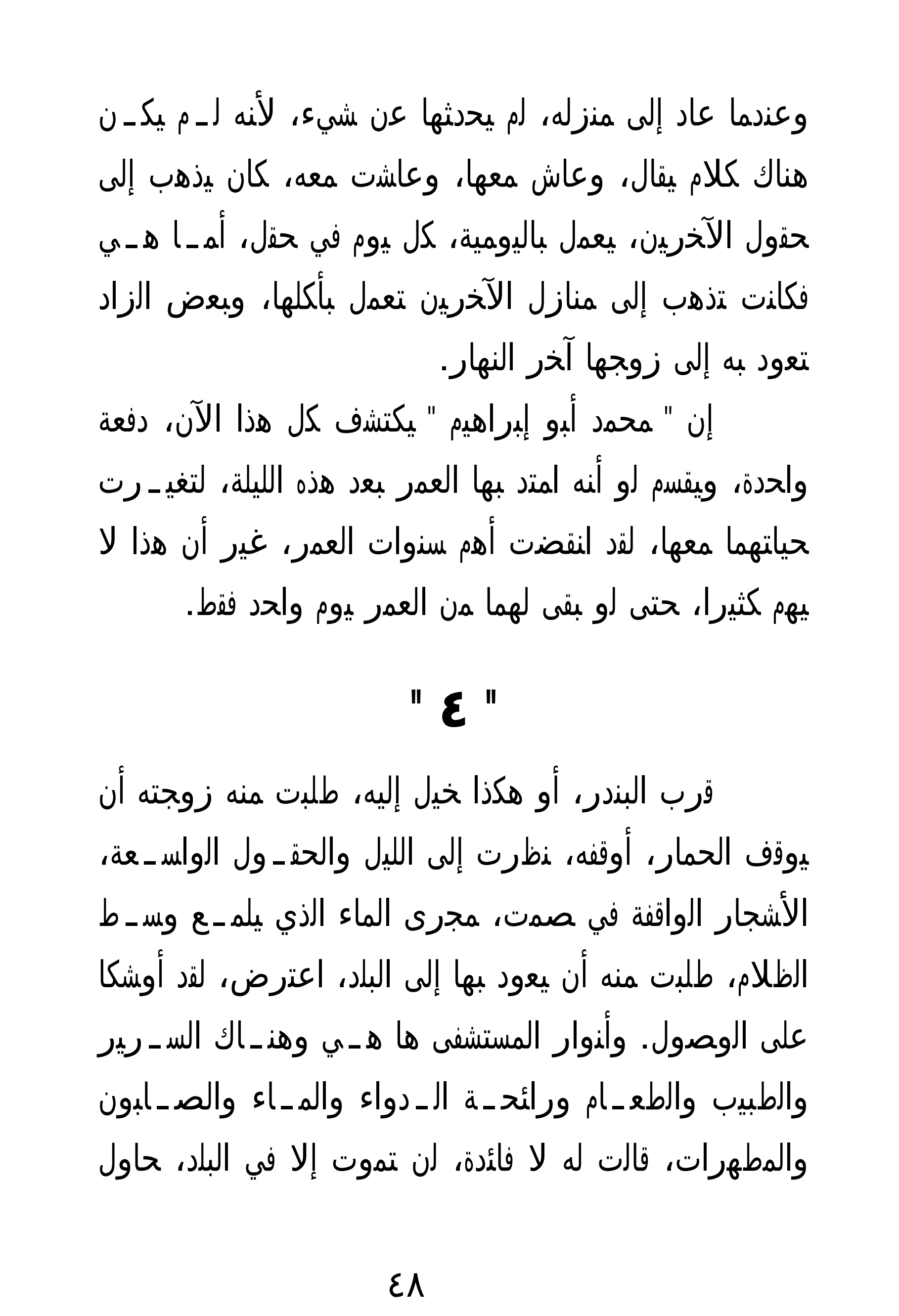
في هذه اللحظة، يقف محمد أبو إبراهيم، يمتد أمام الطبيب ضخما كالمارد، يبلع ريقه، يمد يده ضارعا للدكتور، يحاول بسرعة أن ينتقي أحلى الكلمات التي سمعها طول عمره، هنا حاول محمد أبو إبراهيم أن يتذكر العبارات التي يسمعها، عادة، من الراديو ومن خطب المساجد يوم الجمعة، ومن الشباب الذين يتعلمون في البنادر البعيدة.

ـ يا سعادة البيه

قد يقاطعه الدكتور، وقد يتركه ويتحدث مع آخـرين، فالاستقبال في مستشفى المركز ممتلئ دائما بأناس من كبـار الخلق غير أنه سيعاود الحديث، وسيقول كلمات أحلـى مـن الكلمات التي تدور في ذهنه الآن، حتى يلين قلـب الـدكتور ويعالج زوجته.

في الطريق، بدأت زوجته تفيق، وخرجت من بـين شفتيها عبارات صغيرة كلمات مكسرة مهشـمة، اسـتدارت معانيها في ذهنه بصعوبة بالغة، قالت له: إنه مرتاح البـال لأنها ستموت بعد لحظات، ثم يتزوج هو من امرأة أخـرى، تنجب له طفلاً يحمل اسمه، وأنه لم يكن يحبهـا ولـم يكـن يعاشرها كالآدميين.

أحس محمد أبو إبراهيم. أن الكلمات تغـوص فـي روحه كالسكاكين، حاول أن يقول لها إنها على حـق، وأنـه نادم على ما حدث، غير أنه صمت، تمثلت له وهـو سـائر بجوار الحمار، أشياء كثيرة، تزوجها لأنـه كـان يحـب أن يتزوج، ومن اليوم الأول. كان عليه أن يذهب إلـى حقـول الآخرين كي يعمل بالأجرة، في طريق عودته لم يكن يذكره بأمر زوجته سوى الحناء الحمراء في كفي يديـه وقدميـه.

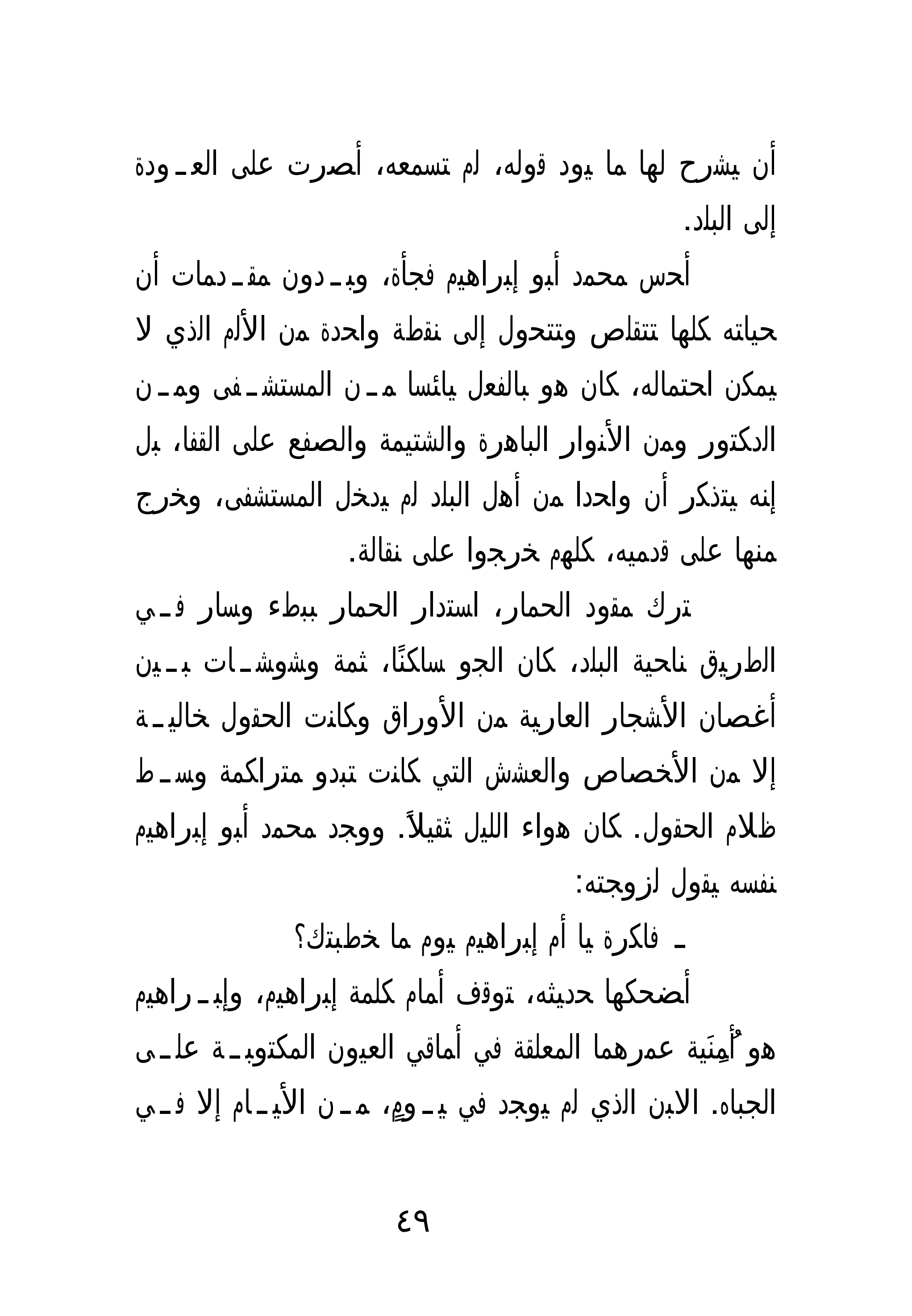


وعندما عاد إلى منزله، لم يحدثها عن شيء، لأنه لـم يكـن هناك كلام يقال، وعاش معها، وعاشت معه، كان يذهب إلى حقول الآخرين، يعمل باليومية، كل يوم في حقل، أمـا هـي فكانت تذهب إلى منازل الآخرين تعمل بأكلها، وبعض الزاد تعود به إلى زوجها آخر النهار.

إن " محمد أبو إبراهيم " يكتشف كل هذا الآن، دفعة واحدة، ويقسم لو أنه امتد بها العمر بعد هذه الليلة، لتغيـرت حياتهما معها، لقد انقضت أهم سنوات العمر، غير أن هذا لا يهم كثيرا، حتى لو بقى لهما من العمر يوم واحد فقط.

" ٤ "

قرب البندر، أو هكذا خيل إليه، طلبت منه زوجته أن يوقف الحمار، أوقفه، نظرت إلى الليل والحقـول الواسـعة، الأشجار الواقفة في صمت، مجرى الماء الذي يلمـع وسـط الظلام، طلبت منه أن يعود بها إلى البلد، اعترض، لقد أوشكا على الوصول. وأنوار المستشفى ها هـي وهنـاك السـرير والطبيب والطعـام ورائحـة الـدواء والمـاء والصـابون والمطهرات، قالت له لا فائدة، لن تموت إلا في البلد، حاول



أن يشرح لها ما يود قوله، لم تسمعه، أصرت على العـودة إلى البلد.

أحس محمد أبو إبراهيم فجأة، وبـدون مقـدمات أن حياته كلها تتقلص وتتحول إلى نقطة واحدة من الألم الذي لا يمكن احتماله، كان هو بالفعل يائسا مـن المستشـفى ومـن الدكتور ومن الأنوار الباهرة والشتيمة والصفع على القفا، بل إنه يتذكر أن واحدا من أهل البلد لم يدخل المستشفى، وخرج منها على قدميه، كلهم خرجوا على نقالة.

ترك مقود الحمار، استدار الحمار ببطء وسار فـي الطريق ناحية البلد، كان الجو ساكنًا، ثمة وشوشـات بـين أغصان الأشجار العارية من الأوراق وكانت الحقول خاليـة إلا من الأخصاص والعشش التي كانت تبدو متراكمة وسـط ظلام الحقول. كان هواء الليل ثقيلاً. ووجد محمد أبو إبراهيم نفسه يقول لزوجته:

ـ فاكرة يا أم إبراهيم يوم ما خطبتك؟

أضحكها حديثه، توقف أمام كلمة إبراهيم، وإبـراهيم هو أُمِنَية عمرهما المعلقة في أماقي العيون المكتوبـة علـى الجباه. الابن الذي لم يوجد في يـومٍ، مـن الأيـام إلا فـي

أحاديثهما، خرجت الضحكة من فمها خافتة، غيـر محـددة الملامح، أقرب إلى الأنين، ومن الضحك، دمعـت عيناهـا وحلمت برائحة الملابس الجديدة، وليلـة الدخلـة، والحنـة الحمراء، ودت أن تقول له إنها في لياليها الأولى معه، كانت تخافه لحد الموت، وكانت بمجرد أن تمتد يده إلى أي جـزء من جسمها حتى يقشعر بدنها، وتشعر برغبة في القيء.

في الليلة الأولى لُبدت في ركن الحجرة من الخـوف حتى الصباح. وبدأ لها الليل رحلة عذاب في انتظار طلـوع النهار. وعندما كانت تبدو منه أي حركة خلال نومه، كانـت تقترب أكثر من الجدران تطلب منها الأمان.

ـ مالك يا أم إبراهيم؟

نظرت إليه، لم تقدر على فتح فمها:

ـ المشوار ِلسه طويل يا أصيلة.

ارتمت نظراته على ليل مفعم صامت، إن محمد أبو إبراهيم يسير بجوار الحمار مبهور الأنفاس ويتكلم بصـوت سريع متهدج كأنما قد نجا من حريق أو أنقـذ مـن غـرق، ويعبر عن نفسه بعدم تكلف وبشكل يشبه سذاجة الأطفال. ما لها أم إبراهيم؟ الحقيقة أنها لم تمرض اليوم، ولا الأمس، إنها

مريضة منذ سنوات مضت، سنوات طوال وهي تئن وتتوجع وتقول آه ياني، ويا ناس ويا خلق هوه ويا حكماء بر مصـر داووني، غير أن أحدا ما ولا حتى محمد أبو إبراهيم نفسه لم يسمعها، وظلت طوال سنوات العمر وهي تئن وتتوجـع ولا من مجيب. ها هو البلد مرة أخرى. وقرب البلـد، وعـادت التأوهات، كان الليل والظلام والسكون يـوحي لـه بمعنـى الموت، وكانت نفسه قد هدأت، وعندما قالـت آه لأول مـرة سرح خاطره، ونظر فلم تطالع عيناه سوى الظلام، وقالت آه مرة أخرى، فأدرك معنى الألم، معنى أن يجد الإنسان نفسـه بإزاء إحساس لا يستطيع التعبير عنه إلا بالتـأوه، آه يـاني. خرج الصوت من الفم، فوصله فورا. إن " محمد أبو إبراهيم " يشعر الآن أن هذه الآه تخصه هو تنبع منه، تخـرج مـن فمه، وعندما ارتع صوتها، أحس أن طبقات الصوت تغوص في لحمه كقطرات الدموع الدافئة، وبـدلاً مـن أن يحـاول إسكاتها أو أن يقول لها إن البلد قريب، وأن المنزل على بعد فركة كعب، بدلاً من كل هذا وجد نفسه دون أن يدري يقول معها آه، تنطلق من فمه مبحوحة تقطر ألما وحزنًا ومـرارة

قالها أول مرة، فأحس بها تسقط فوق حبة القلب فتريحه وفي المرة الثانية خرجت منه عالية فأحس بدوخة ورعشة.

وهدءا معا، ومن حولهما كان الليل يعشـق صـمت الجراح، سار محمد أبو إبراهيم في صـمت، كـان يسـير ساهما، خلف الحمار ويده ممسكة بزوجته. وعيناه تخترقـان الظلام أمامه.

لقد كان يبكي.

الشتاء يأتي إلى الضهرية

... وكان أن كافأ حاكم البلاد الطفل الرضيع، بمائة جنيه كاملة، بعد أن استمع إلى نبوءته، وأخذ الطفل المائة جنيه من حاكم البلاد بيمناه، وكانت ورقة واحدة، وأعطاها لأمه، التي كانت تحمله على صدرها. ثم مات على الفور.

غير أن الأيام صدقت نبوءة الطفل، وعمت البلاد أوقات عصيبة.. "

ومن حكايا العجوزة، في ليالي الشتاء، المستطيلة الوجه ". وسميت الضهرية، باسم الظاهر بيبرس، بمناسبة خليج الإسكندرية، وكان ذلك سنة اثنتين وستين وستمائة هجرية.

" من كتب التاريخ "

" ١ "

قبل مجيء الشتاء من كل عام، تبدأ الحياة في الضهرية، في الاستعداد للبيات الشتوي، ومجيء الشتاء إلى الضهرية، يعني جملة أشياء، في الحقول، تتساقط الأوراق

الخضراء من فوق الأشجار، تذوي، آخذة معها الأمل والرجاء، تبدأ الحشرات الحقلية في تجميع مواد غذائية كافية، تخفيها في أماكن بعيدة عن عين ويد الإنسان، تصافح الوجوه، نسمات المساء اللينة الطرية، مثقلة برائحة الشتاء المقبل، تتجدد هذه الرائحة في أنوف الناس، بأريج الأرض، بعد رخة السماء الأولى.

ـ كل سنة وأنت طيب.

في الحقول، يعمد الرجال إلى الأخصاص، يسدون الثقوب الموجودة بها، يقيمون جدارا في الناحية البحرية، التي تركت خالية في أيام الصيف الحارة، يخزنون عيدان الحطب، حيث تحمل معها في حرارة الصيف وذكرياته العزاء في الأيام الباردة المقبلة. يحفرون في الأرض، في منتصف الخص تماما، حفرة، يستعملونها راكية لإشعال النيران. يخفون في مكان ما، من الخص، قوالح، وقطع من الخشب الجاف، وبذلك يتأكدون أن الخص أصبح مناسبا لقضاء ليالي الشتاء الطويلة.

تبدو الحقول، في لحظة العصاري، خالية تماما، مساحات لا نهائية من السواد المعتم، وبين هذه المساحات،

تبدو قطع صغيرة من الخضرة الرصاصية. ومجيء الشـتاء يعني أن يذهب الرجال إلى سوق التوفيقية، يوم الثلاثـاء، أو إلى كفر الزيات، لشراء الغيار الشتوي، يشترون ملابس ثقيلة من الصوف، تقيهم برد الشتاء.

في الشتاء، يقل سفَر الناس إلـى الـبلاد الأخـرى، فالضهرية لا يصلها بالعالم الخارجي إلا طريق متـرب، لا يصبح صالحا للسير في أيام الشتاء، بسبب الأمطار الغزيرة، يلتصق الناس بالبيوت والأرض، يجترون ما حوته القلـوب من ذكريات أيام الدفء الماضية، يـأكلون المخـزون مـن الطعام، ويتشممون رائحة الدفء في الأيام الباردة.

في الأيام الباردة من كل عام، يذهب الأطفـال إلـى المدارس، وتسمع في الضهرية بين الحين والآخر، صـوت جرس، وترى أمام مدرسة أنصاري سمك الإعدادية، ركوبة تلميذ صغير، أتى بها من عزبة نائية، حيث لا توجد مواصلة سوى هذه الركوبة، في الصباح الباكر، والبخار يخرج مـن الأفواه مع الكلمات، حاملاً رائحة الدفء إلى الناس، تشـاهد التلاميذ حاملين كتبهم، ذاهبين إلى مدارسهم، يتناقشون فـي الصباح البارد، في أشياء بسـيطة سـاذجة، ويوجـد فـي

الضهرية، ثلاث مدارس وكُتاب. مدرسة إعدادية، ومدرستان ابتدائيتان هما مدرسة الوحدة المجمعة بالضهرية، ومدرسة عسران عبد الكريم، وكُتاب يحتل جزءا صغيرا من مسجد سيدي أحمد عبد ا النشابي، يحفظ فيه القرآن الكريم، وتفسر الأحاديث النبوية الشريفة.

وبعد رخة السماء الثانية، يتأكد الناس أن الشتاء قد أتى فعلاً، يخرج الرجال، بيدهم فئوس، يجاطون بها الطين، يسلكون القنوات الصغيرة لمياه المطر المتجمعة في قيعان الحارات، يفرشون بكميات التين الجافة الحارات، تبدو نقاط العرق الحارة على الجباه كشيء نادر الحدوث في هذه الأيام الباردة، يعود الرجال إلى بيوتهم، وتكون الدنيا قد ليلَتْ، يكفنون الأحلام التي لم تتحقق بعد، في أكفان بيضاء، يوسدونها في أعماق القلوب، انتظارا لمجيء الربيع المقبل.

في الشتاء، تهاجر الطيور، تهجر أعشاها القديمة، تطير مهاجرة نحو الجنوب باحثة عن الدفء، مخلفة وراءها الحقول والمنازل والأشجار خالية من كل شيء، تتناثر أعواد القش الصفراء، التي كانت تتكون منها الأعشاش في الجو، مثيرة في النفوس إحساسا سائلاً بالأسى، في ليالي الشتاء لا

يسمع الناس غناء الكروان، يخدش الصمت الليلي، وعندما يولد الصباح على صفحة الليل، لا يسمعون شقشقة العصافير، ولا زقزقة القمري، وفي الصباح، تشرق الشمس اللينة الشتوية، وتبدو الضهرية مغسولة، ندية بمياه المطر المتساقطة في الليلة السابقة. في لحظة العصاري الندية، يجلس الرجال تحت الأشجار، لا تبول عليهم الطيور الصغيرة، ولا يتفاكهون بذلك، فمعنى أن يبول طائر على إنسان هنا، أن ذلك نذير له بالخير، بأنه قد آن الأوان، كي يشتري كسوة جديدة.

في الصباح، تبدو لهم الشمس الشتوية، الموشاة بكثير من الذكريات، ذكريات أيام الدفء الماضية. في ليالي الشتاء، ينام الشبان على الأفران، يفترشون الأجولة الفارغة، ينامون عليها، أما الرجال المتزوجون، فينامون في القاعات الضيقة، في أحضان زوجاتهم اللاتي يشيع من أجسادهن البضة رائحة الدفء.

وفي عقل الفلاح البسيط، يؤثر الزمان بقدر ما يؤثر فيه المكان، بكل ما يطرأ عليه من تغيرات. فيبدو الليل في الشتاء، سقعان متعفرا، يختلط الرجال والأشجار والبيوت

والأشياء، فتبدو كلها وكأنها كتلة واحدة، تتلاشى المسـافات، تذوب الأشياء في بعضها البعض.

والسماء الليلية في الشتاء، تبدو دائما معتمة، تنتشـر على صفحتها كتل السحاب الداكن، فـي منتصـف الشـهر العربي، يتذكر الناس في الضهرية، إنهم يشـاهدون القمـر مشطورا، يبدو نصفه فقط.

وبعد أن تسح قطرات المطر، يشرق جزء من القمر، تبدو الأشياء مغسولة، لامعة، في آخر الليل، يسمعون صوت تساقط قطرات المياه، فتحمل إلى النفـوس رائحـة شـتوية رطبة.

في أيام الشتاء الباردة، يكون صباحك مساك، وهـو تعبير يقوله الناس، ابتداء من شهر كيهك، تدليلاً على قصـر النهار الشديد في الشتاء. وبعد شروق يوم جديـد، واتضـاح معالمه، يقف الرجال في الساحة الواسعة أمام سـيدي أحمـد عبد ا النشابي، يخرج البخار من الأفـواه مـع الكلمـات، يحددون طبيعة هذا اليوم، وهم يفركون أصابعهم، من شـدة البرد.

ـ دا يوم من أيام العجوزة.

يؤكد الآخرون حديثه، يناقشونه.

ـ لا دا يوم من أيام الراعي.

ولا ينفقون على شيء مؤكد.

ـ يا عم دا يوم من أيام المعزة

وينصرف كل لحاله، وقد كون لنفسه فكـرة محـددة عن هذا اليوم، فكرة تناسبه هو شخصيا، وتناسب ظروفـه، وفي الطريق إلى حقولهم والأرض مبلطة بفعل مياه المطـر، يترنمون بجزء من موال حزين، عن بطـل مـات بـالأمس القريب مقتولاً.

أيام العجوزة:

" وهي الأيام التي يشتد بردها، وتهطـل أمطارهـا وتنتفخ الوجوه، وتحمر الأطراف، ويتجمد الهواء، من شـدة البرد،

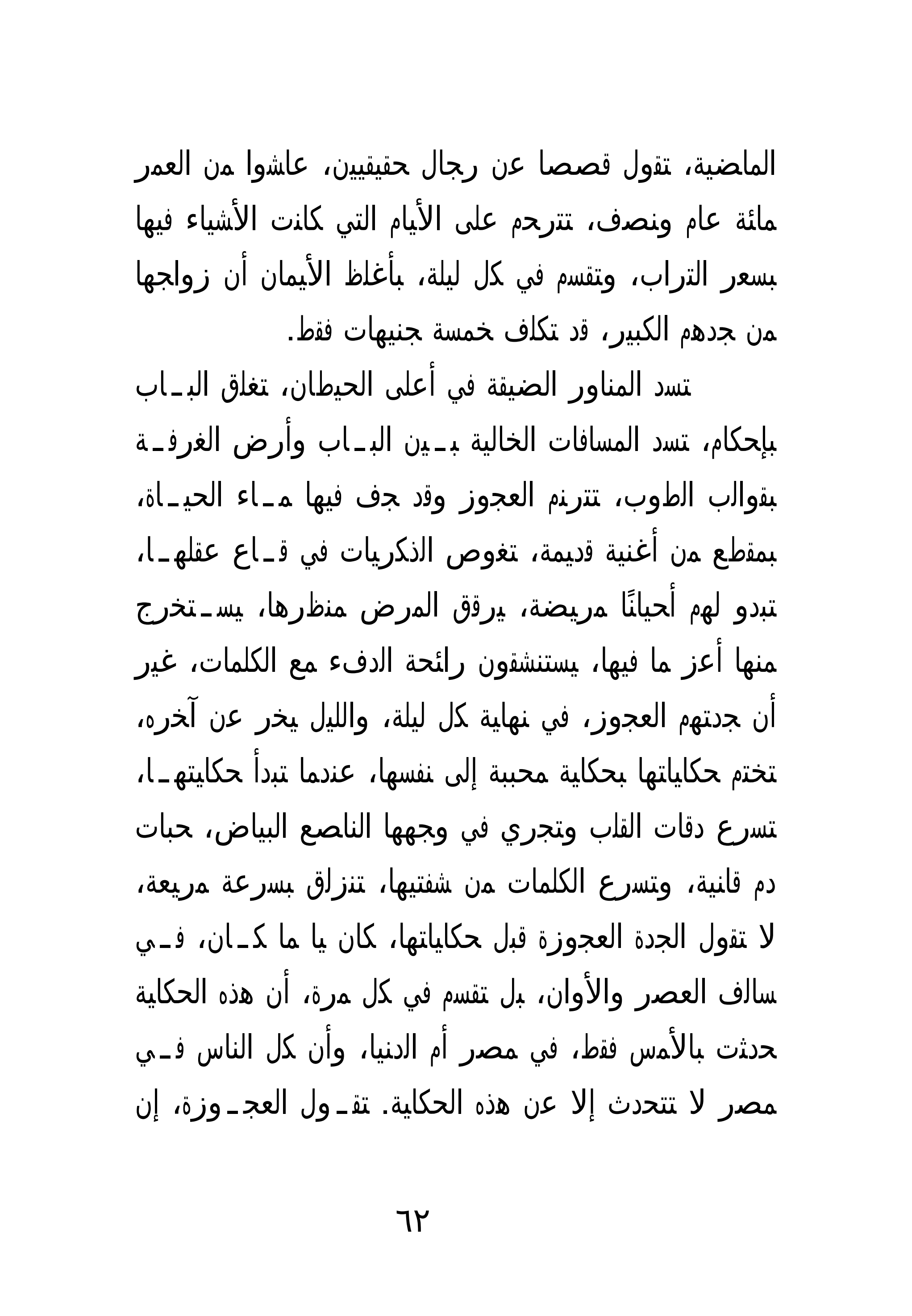
ـ نزلي حطب من على السطح يا بت.

ما إن تغيب الشمس، ويتوه نصف قرصها الأحمـر تحت السحاب الداكن، حتى تصعد البنت إلى سطح المنـزل، تحمل عيدان الحطب، ترميها في وسط الدار، فالليل الشتوي

طويل، نوع من الرحيل الدائم، وتحتاج العجوزة، في هـدأة الليل إلى الحطب كي تشعله، وتدفئ الأبناء والأحفاد ترمـي الحطب في لحظة المساء حتى لا يبتل مـن ميـاه المطـر، فابتلال الحطب يجعل إشعاله أمرا صعبا، تحضـر قـوالح، ترسل من يحضر لها الشاي والسكر، والعجوزة تدرك الليالي التي مرت من هذا الشتاء بشكل مبهم، وبطريقة ساذجة كلما مرت ليلة من الليالي، خطت بإصبعها خطأ، ويكـون الخـط طوليا على سطح الفرن المثقل بالسناج، وتعد الخطوط كلمـا مرت بالفرن، وبهذه الخطوط تدرك عدد الليالي التي مـرت (والناس يرتبطون بالليل أكثر من ارتباطهم بالنهار، لقصـر اليوم، وطول مساحة الليل، وهذا يجعل وعيهم أكثر ارتباطـًا بالليل).

ـ ولع راكية نار يا ابني.

في الليل تجلس العجوز فـي أحـد أركـان القاعـة الضيقة، تلف قدميها بقطع قماش من ملابس قديمة، يجلـس أحد الشباب، يحضر المنقد، يرص فيـه القـوالح والحطـب بعناية شديدة، يبتعد بين الحين والحين كي يختبر مهارته في رص الحطب، تحكي العجوزة حكايا معادة، عن أيام العمـر

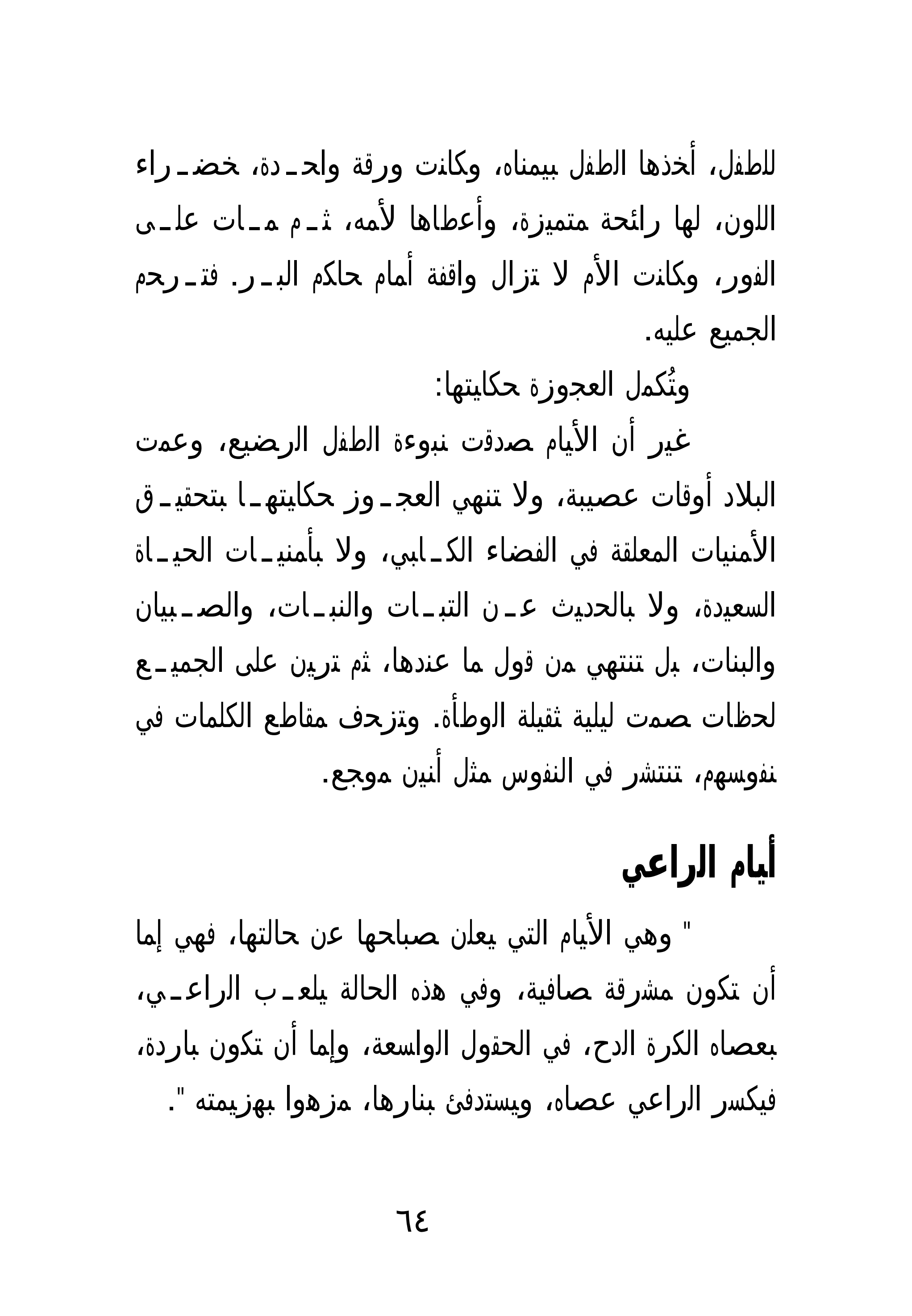

الماضية، تقول قصصا عن رجال حقيقيين، عاشوا من العمر مائة عام ونصف، تترحم على الأيام التي كانت الأشياء فيها بسعر التراب، وتقسم في كل ليلة، بأغلاظ الأيمان أن زواجها من جدهم الكبير، قد تكلف خمسة جنيهات فقط.

تسد المناور الضيقة في أعلى الحيطان، تغلق البـاب بإحكام، تسد المسافات الخالية بـين البـاب وأرض الغرفـة بقوالب الطوب، تترنم العجوز وقد جف فيها مـاء الحيـاة، بمقطع من أغنية قديمة، تغوص الذكريات في قـاع عقلهـا، تبدو لهم أحيانًا مريضة، يرقق المرض منظرها، يسـتخرج منها أعز ما فيها، يستنشقون رائحة الدفء مع الكلمات، غير أن جدتهم العجوز، في نهاية كل ليلة، والليل يخر عن آخره، تختم حكاياتها بحكاية محببة إلى نفسها، عندما تبدأ حكايتهـا، تسرع دقات القلب وتجري في وجهها الناصع البياض، حبات دم قانية، وتسرع الكلمات من شفتيها، تنزلق بسرعة مريعة، لا تقول الجدة العجوزة قبل حكاياتها، كان يا ما كـان، فـي سالف العصر والأوان، بل تقسم في كل مرة، أن هذه الحكاية حدثت بالأمس فقط، في مصر أم الدنيا، وأن كل الناس فـي مصر لا تتحدث إلا عن هذه الحكاية. تقـول العجـوزة، إن

عنوان هذه الحكاية هو، حكاية الطفل الذي ولد في بر مصر وهو يتكلم.

تقول الجدة العجوزة.

حدث أن ولد طفل صغير، نزل هذا الطفل من بطن أمه بهي الطلعة، رائع القسمات، جميل التقـاطيع، وكانـت ولادته بلا متاعب، وبمجرد نزوله على الأرض، لـم يكـن محاطًا بدم ولا خلاص، طلب من القابلة، بصـوت واضـح الدبرات أن تذهب به إلى حاكم بر مصر لأمر هام، وذهبـت به أمه التي كانت صحتها قوية، إلى حاكم البلاد، في مكتبـه بمصر أم الدنيا، وكان الحاكم هناك، يقف على باب مكتبـه، كأنه كان ينتظرها، وتقسم الجدة العجوزة أنه كان ينتظرهـا منذ ألوف السنين، وتكمل الجدة: أن الطفـل الرضـيع قـال لحاكم بر مصر، إن هذه البلاد تنتظرها شدائد عظيمة، أيـام قحط قد تطول، وتسوء حال الناس، ويرفع القرآن من صدور الرجال، وترتكب المعاصي جهارا، قال الطفل الرضيع، وقد تطول وقفة الأعداء، وفي نهاية كل الأمـور، سـوف يـأتي الأمل، والحلم والرجاء، وكان أن كافأ حاكم الـبلاد الطفـل الرضيع بمائة جنيه كاملة، أخرجها مـن جيبـه، وأعطاهـا



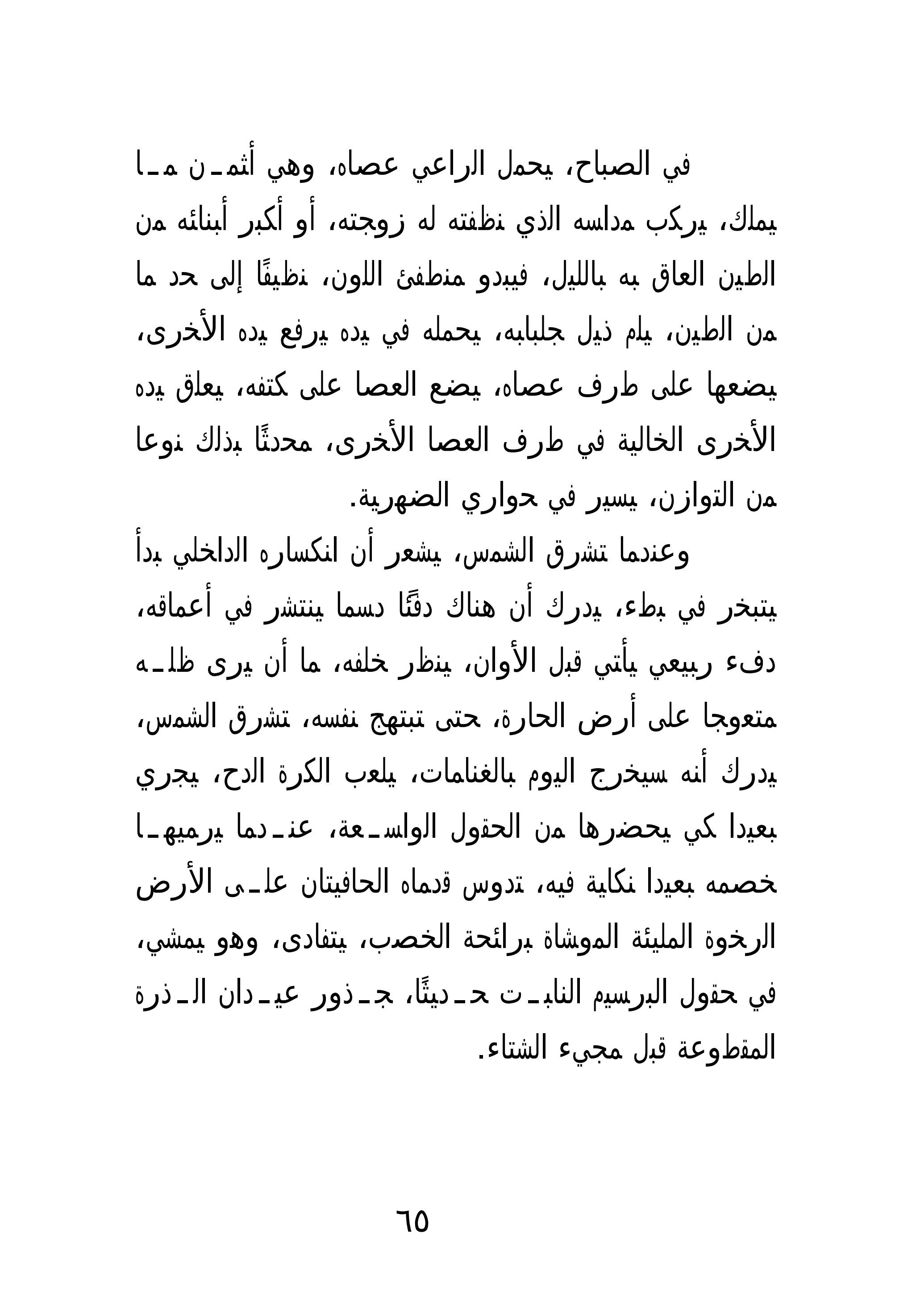
للطفل، أخذها الطفل بيمناه، وكانت ورقة واحـدة، خضـراء اللون، لها رائحة متميزة، وأعطاها لأمه، ثـم مـات علـى الفور، وكانت الأم لا تزال واقفة أمام حاكم البـر. فتـرحم الجميع عليه.

وتُكمل العجوزة حكايتها:

غير أن الأيام صدقت نبوءة الطفل الرضيع، وعمت البلاد أوقات عصيبة، ولا تنهي العجـوز حكايتهـا بتحقيـق الأمنيات المعلقة في الفضاء الكـابي، ولا بأمنيـات الحيـاة السعيدة، ولا بالحديث عـن التبـات والنبـات، والصـبيان والبنات، بل تنتهي من قول ما عندها، ثم ترين على الجميـع لحظات صمت ليلية ثقيلة الوطأة. وتزحف مقاطع الكلمات في نفوسهم، تنتشر في النفوس مثل أنين موجع.

أيام الراعي

" وهي الأيام التي يعلن صباحها عن حالتها، فهي إما أن تكون مشرقة صافية، وفي هذه الحالة يلعـب الراعـي، بعصاه الكرة الدح، في الحقول الواسعة، وإما أن تكون باردة، فيكسر الراعي عصاه، ويستدفئ بنارها، مزهوا بهزيمته ".



في الصباح، يحمل الراعي عصاه، وهي أثمـن مـا يملك، يركب مداسه الذي نظفته له زوجته، أو أكبر أبنائه من الطين العالق به بالليل، فيبدو منطفئ اللون، نظيفًا إلى حد ما من الطين، يلم ذيل جلبابه، يحمله في يده يرفع يده الأخرى، يضعها على طرف عصاه، يضع العصا على كتفه، يعلق يده الأخرى الخالية في طرف العصا الأخرى، محدثًا بذلك نوعا من التوازن، يسير في حواري الضهرية.

وعندما تشرق الشمس، يشعر أن انكساره الداخلي بدأ يتبخر في بطء، يدرك أن هناك دفئًا دسما ينتشر في أعماقه، دفء ربيعي يأتي قبل الأوان، ينظر خلفه، ما أن يرى ظلـه متعوجا على أرض الحارة، حتى تبتهج نفسه، تشرق الشمس، يدرك أنه سيخرج اليوم بالغنامات، يلعب الكرة الدح، يجري بعيدا كي يحضرها من الحقول الواسـعة، عنـدما يرميهـا خصمه بعيدا نكاية فيه، تدوس قدماه الحافيتان علـى الأرض الرخوة المليئة الموشاة برائحة الخصب، يتفادى، وهو يمشي، في حقول البرسيم النابـت حـديثًا، جـذور عيـدان الـذرة المقطوعة قبل مجيء الشتاء.

وقت الظهير، ينام عرباوي على ظهره في العـراء، وشمس الشتاء شفاء، تستريح في عينيه، وهو في نومته هذه، زرقة السماء الغامقة، يرى في نومتـه أن زرقـة السـماء الشتوية، زرقة خاصة، لها لون معين، يلعب السيجة بجـوار الساقية الكبيرة، ينتظر، وهو يلعب السيجة، مجـيء الليـل، يمني نفسه، بليال دافئة مترعة بالشوق والوصـال، تسـرح عيناه في الحقول المترامية الأطراف، يحتوي الخضرة الدافئة في نفسه.

في الشتاء، تكثر زراعة البقول، يزرع فيـه القمـح والشعير والبرسيم، وأيام الشتاء، أيام فقيرة، ولا تدري مـن أين يأتي الناس بالنقود هنا، غير أنهم يجرون الحيـاة جـرا بطيئًا تتسرب كافة الأشياء، تأتي النقود بطريقـة غامضـة، تذوب في زحمة الحياة، كما جاءت.

مع الراعي فتى صغير، يذهب وقت الظهيـرة إلـى الضهرية يحضر طعامه من المنزل، يحضر مياه معين لعمل الشاي والسكر والمعسل يقف الفتى طيلة النهار مع الغنمات، يمنعها من أكل مزروعات خلق الله. فالغنمات لا ترعـى إلا حول المصارف والقنوات وفي الأرض البور، أو الأراضـي

التي لم تزرع بعد. والراعي يقضي بقية يومـه فـي غـزل صوف الغنم، بمغزل صغير في يده، يصنع مـن الصـوف طواقي ملونة، يبيعها للناس، وهذا العمل أحب إلى نفسه مـن أي شيء آخر.

والراعي ليس فلاحا، وهو من أصل عربي، ويـتكلم بلهجة مختلفة عن حديث الناس هنا، ويحشر في كلماته ألفاظًا عربية، وعدة أبيات من الشعر يغنيها فـي لحظـة المسـاء، ويقول الناس، أنه نازح من ناحية الصحراء الغربيـة، وأنـه يتحدث مع جماعته في بيته البسيط بلغـة لا يفهمهـا أحـد، والراعي يميزه عن الناس جملة أشياء، بلغته، فهي من النوع السوقي، وهي خفيفة ورخيصة الثمن، وبعض عادات منزلية خاصة به، والناس ينادونه بعرباوي، وهي صفة أكثر منهـا اسما، ولكن الناس، لكثرة مناداته بها نسوا اسـمه الأصـلي، كأنه لقب حديدي ثقيل ينوء به، في ملامحه انكسـار قـديم، وبين عينيه شيء ما يبحث عنه، ويتصور في كل الأوقـات، أن شيئًا ما ينقصه، وأن في حياته جـزءا ركـب بطريـق خاطئ، ويقول لجماعته في الليالي الشـتوية، عـن حياتـه، أحلامه، أهله هناك، عند الأفق البعيد، ويحـن بـأن يجتمـع

الشمل ذات يوم، ولكن الأوان لم يأن بعد، وفي ليالي الشتاء، يسهر عرباوي، بيده مغزله الصغير يغزل من أيامه الجديـدة من سأمه وحزنه، شيئًا ما غير محدد، يجسد به حلمه الباهت، أمله البسيط، لكن الحياة تمضي قربانًا للحلم الكبير، وتوغـل الأشياء في القدم، وتذوي أعز الذكريات.

وفي الأيام المعطرة، يقرأ عرباوي حبـات المطـر الباردة، يقرأ ما كتب عليها، في الصباح يقف عرباوي أمـام باب داره، وكان عرباوي يعيش في أول أيامه في الضهرية، في خيمة صغيرة منصوبة عند مدخل البلدة، ولكنه بعد ذلك، ولأسباب غير مفهومة، بني بيتًا صغيرا، وعـاش فيـه مـع أولاده، تتوه نظراته في ضباب الشتاء، يتلقى بكفيه، قطرات المطر الباردة، يدرك أن الغنمات لن تخرج هذا اليـوم إلـى الحقول، أحيانًا، تفاجئه وهو في الحقل، الأمطار، يقفز مـن رقدته، يلم أشياءه من على الأرض. المغزل الطاقية، مداسه، شلة الصوف، يجري ناحية الغنمات، يسوقها بعصاه، يدخلها في أقرب دوار.

وفي كل يوم، في لحظة المساء المسربلة بالضـباب، الموشاة بالأسرار الشتوية، يلم عرباوي غنماته، بيدها. يسير

فتاه الصغير أمام الغنم، يسير عرباوي خلفها، يظل أمله معلقًا في الفضاء الكابي، وهو يرمي السلام على الجالسـين علـى المصاطب، أن لكل شيء نهايته، وأن حلمه لا بد وأن يتحقق مع الربيع القادم.

أيام الماعز:

" وهي الأيام خيرة من الشتاء، وفيها تشرق الشـمس الطرية، وينتشر الدفء، وتبدأ الضهرية في الاستعداد لمجيء الربيع المقبل ".

في أيام الشتاء تُشرق الشمس، عشر ساعات فقط.

ـ بكرة الصبح، تشرق الشـمس، تأخـذ الغنمـات وتسرح بهم.

ـ إن شاء ا .

ـ بس يا ريت تطلع الشمس.

في الصباح، يجلسورداني أمام الدوار، تأتي مأمـأة الماعز من داخل الدوار مرعوشة باردة، يشـير بـأطراف أصابعه الباردة لحد الاحمرار، ناحية الشرق. أمامـه علـى الأرض، حفرة فيها نار، فوق النار بـراد شـاي، وحتتـين

بطاطس، يشويهما كي يفطر بهما، يرمـي نظراتـه ناحيـة الشرق، تبدو السماء عند نقطة التقائها بالأرض مـن بعيـد، نحاسية اللون، حمراء. ولكن الشمس حتى الآن لم تشـرق، يقوم ورداني، يدخل الزريبة، يعد الغنمات. يتأكد أن الليل قد مر بسلام. يحلب الغنمات التي تدر اللبن. يضع لبنهـا فـي شالية كبيرة تمهيدا لإرساله إلى المنزل حيـث يصـنع منـه الجبن الضاني. يعود إلى جلسته مرة أخرى، تبـدو الأرض من حوله، بعد أيام الشتاء، رصاصية اللون، تبدو له مبلطـة كأرض البندر، ولا توجد عليها ذرة مـن التـراب، أعـالي الحيطان باشت من مياه المطـر، عيـدان الحطـب، فـوق المنازل، تتساقط منها قطـرات المطـر، تبـدو الضـهرية، مغسولة بمياه المطر. يخرج من براد الشاي، بخار أبـيض، أليف محبب إلى نفسه، ينفخ النار بفمه، يحمر وجهه، تتساقط حبات عرق نادرة على النـار، يسـتخرج حبـة بطـاطس، يقشرها، يلفح وجهه بخار ساخن، يأكلها ببطء، يرشف الشاي الأسود، يدخن سيجارة رفيعة. يستدير ناحية الشرق. غير أن الشمس لم تُشرق بعد.

في الأيام الأخيرة من الشتاء، تُشرق الشمس كل يوم، حتى أن الدنيا تمطر أحيانًا والشمس مشـرقة، وإذا نظـرت باتجاه الشمس، بدت حبات المطر كبيرة الحجم. وبعد شروق الشمس، يأتي الراعي ومعه الفتى الصغير، يتسلم الغنمات من الخفير، كي يسرح بها طول النهار بـين الحقـول الواسـعة الواقعة في زمام الضهرية.

تبدو الحقول في أيام الشتاء خالية، فهي أيام كسـولة فقيرة، والفلاح لا يذهب إلى الحقل كل يـوم فـي الشـتاء، والنهار الشتوي كما يقول الناس، فركة كعب، ومضة عـين قصيرة الأمد، ولا يعود الفلاح إلى منزله لحظة القيلولة، ولا توجد ساعة قيلولة فالشمس لينة، والجلوس تحت أشعتها عادة محببة.

في أيام المعزة، يقل المطر، وتصبح هبات النسـيم، ذكرى قديمة، ذاوية في الصدور، وتكتسـب الأرض لونهـا الجيري بفعل الجفاف، وشيئًا فشيئًا يخلـع النـاس ملابسـهم الثقيلة، ويسري في الأعطاف دفء جديد، وذات يوم، ينسكب ضوء الشمس كأنه وشاح يلف الأشياء بداخله، فيدرك الناس أن الربيع على الأبواب، غير أن ورداني يدرك أن شتاء هذا

العام طويل وإنه لم يخزن في الأعماق منه ذكريات من دفء الصيف في الليل يدرك أنه مقرور، تقف النيران عاجزة أمام البرد الثلجي في الأعماق. يترحم على أيام زمان، أيام كـان الرجال يستحمون في مياه الترعة والدنيا ترخ، يدرك ورداني أن زمنه، زمن ضئيل الحجم، قزم، يهمس لنفسه، أن مصـر لم تر من قبل شتاء مثل هذا الشتاء.

وفي كل مساء، عندما تعود الغنمات مـع الراعـي، يقترب منها، واحدة واحدة. يتشمم صوفها الطري، قد يكـون هناك، في مكان ما من الضهرية، ومضة دفئ صغيرة، يكون باردا لحد الموت. يدرك ورداني في كل ليلة. أن شتاء هـذا العام هو نهاية كل شيء.

وحينما يهزه البرد في أعماق الليـل، يـدرك أنـه مريض، وأنه سيموت هنا بمفرد، يموت حتى قبل أن تـأتي لفحة برد أخرى. الشتاء في بر مصر هذا العام، له رائحـة، رائحة محددة، لم يشمها من قبل. في هذه اللحظـة، تستسـلم قريته، الضهرية لليل شتوي كالكـابوس، تغلـق الأبـواب، تتسرب منها رائحة دفء باهتة، يعاني ورداني من أشياء لا يدري كيف يعبر عنها بالكلمات، تبدو الضهرية وقد اختلطت

بالليل. يبدو كل شيء بلون ترابي. تعاني البلاد مـن انكسـار داخلي. يتساءل ورداني، وهو يرشف الشـاي ويحـن إلـى زوجته، ويترحم على أيام مضت، أما آن لهذا الشتاء نهاية؟.

وفي كل صباح، يشرئب ورداني، ينظـر فـي كـل ناحية، تشق الفضاء الأزرق المغسول أشجار جـرداء تبـدو لعين ورداني كتصاوير الرعب. تنسال في أعماقه قطـرات دمع دافئة. يحس ورداني بثوب الدفء في نفسه. يـدرك أن الربيع على الأبواب. تغرس نظرات ورداني فـي الأفـق البعيد. ترتمي عند نقطة التقاء الأرض بالسماء، تبحث عـن شيء محدد. طائر يعود من ناحية الجنـوب حـاملاً معـه الخلاص مقدما للناس فدية الشتاء الماضي، ولا تعود الطيور المهاجرة، أبدا ينداح السكون الشتوي في نفس ورداني.

وفي كل صباح تتحول ظلمة الليل إلى لون رمـادي كاب، تتميز المرئيات تحت قطرات الضوء الفضية، يتصور ورداني أنه قد تصل الطيور المهاجرة. نافشة ريشـها، مـن مكان ما، من بلاد الجنوب، جنوب وادي النيل، غير أن الأيام تؤكد له أن هذا الشتاء أبدي وأنه قد يمر على مصر سنوات وسنوات قبل أن يأتي الربيع.

يذهب ورداني إلى منزله، يحنط أحلامه، يحفظها في صندوق قديم وفي الليل، تعود إليه رعشة القلـب، ووضـمة الحياة وسط الليالي الباردة.

" ٢ "

كان شتاء العام الماضي غريـب الخلقـة لـم تـر الضهرية مثله من قبل، فقد اشتد البرد، حتى مات الـزرع، وتجمدت الأطراف، وماتت الأجنة فـي الأرحـام وأصـاب الناس فزع شديد، ولكن السماء لم تمطـر قطـرة واحـدة، فاجتمع الجفاف والبرد في وقت واحد معا، وقال النـاس إن هذه علامة على غضب ا ، فسقوط المطر يعنـي الخيـر، ورائحة اختمار الأرض بعد نزول المطـر، رائحـة دافئـة وخصبة، وقد تسرب هذا الشتاء ببطء شديد وانتظر النـاس، ولو سقوط قطرة واحدة. وقفوا في لحظة المسـاء، ووقـت انبلاج الفجر على صفحة المساء، وتمضي الأيـام، وتـأتي الليالي، وهم واقفون ينظرون ناحية السماء، يرفعون أكفهـم، تستدير عيونهم في أركان الكون الأربعة. وعندما كان يشاهد أحدهم، في الصباح الباكر، أثناء عودته من المسـجد، بعـد

صلاة الفجر، بركة مياه صغيرة، كان يتصور أنها مياه مطر متجمعة هنا أثناء الليل يقف في مكانه، يقعى، يغمس إصبعه في المياه، يقربها من فمه، يتشممها، يقترب أكثـر وأكثـر، يطالعه خيال وجهه في بركة المياه ينكسر، يضم إليه آخرون وبعضهم يتمتم بختمة الصلاة، يناقشون الأمر فيمنـا بيـنهم، يختلفون، يتأكدون في نهاية الأمر، أنهـا ميـاه دلقـت فـي الصباح، وعندما يصلون إلى هذه النتيجة يدركون أن بالمياه فقاعات صابون لم يشاهدوها من قبل وينصرفون كـل إلـى منزله والسماء صافية، نوع من الصـفاء العـذب الفـارغ والجفاف البارد لا ينبت في الأعماق سـوى العقـم، وفـي المنازل الدافئة يؤكد كلٍ لنفسه، في عبارات مفككة أن شـتاء هذا العام شتاء كاذب.

" حكاية لم تروها الجدة العجوز، لي أي ليلـة مـن ليالي الشتاء في هذا العام ".

قراءة الفاتحة في حقول البطيخ ليلاً

ـ يا عباد ا .

ـ يا أهالي البلد.

وينطلق المنادي، وقت الغروب في حواري البلد، والخبر، أن الأدهم، سيقوم بحراسة حقول البطيخ، خمسين فدانًا بالتمام والكمال، من الليلة ـ وهو يعلن لكافة عموم أهالي البلد والبلاد الأخرى ـ أن من يقترب من حقول البطيخ، في الليل أو في النهار، وتسول له نفسه أي شيء.

ـ والنفس أمارة بالسوء.

ستكون حياته هي الثمن الوحيد.

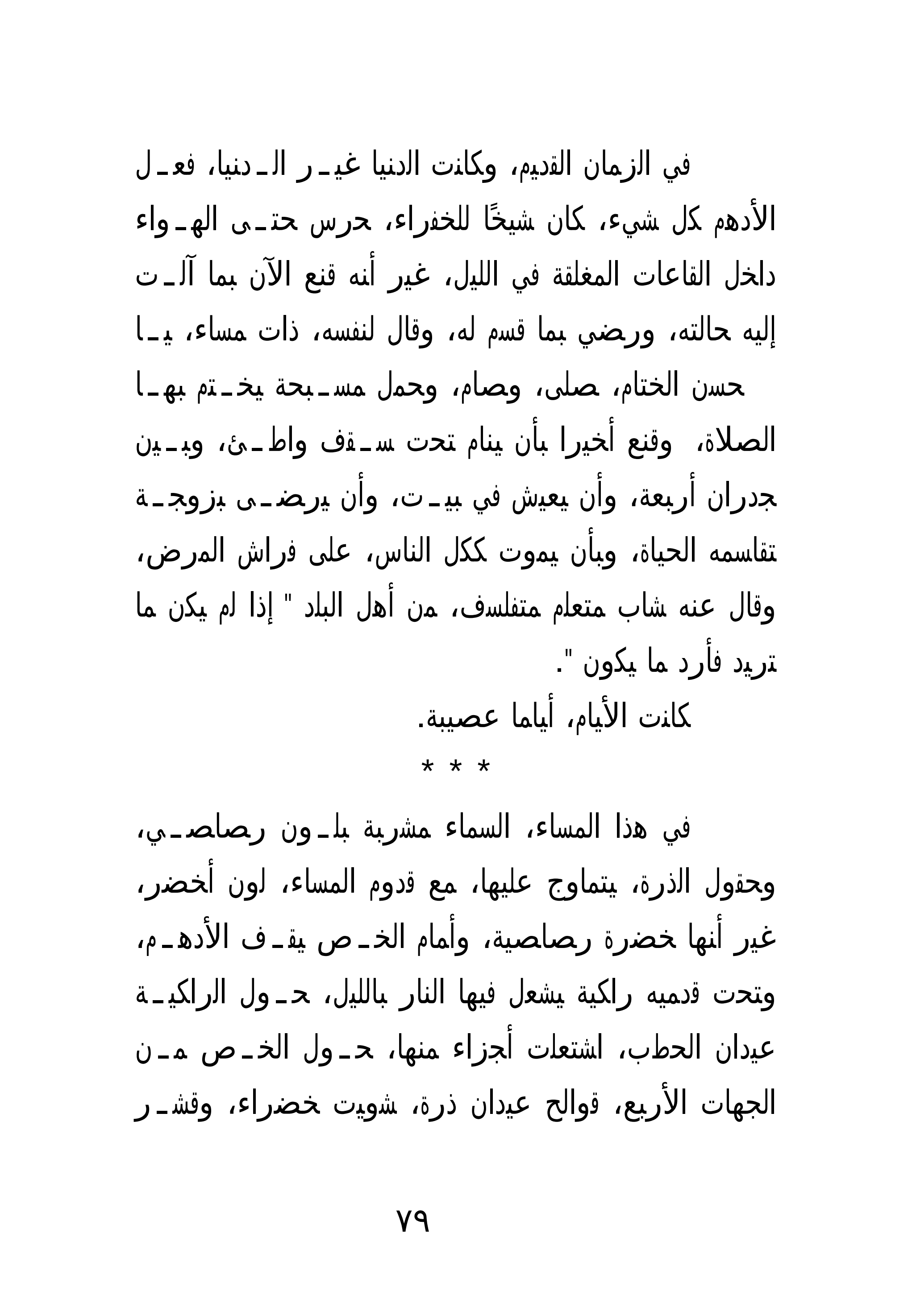
والحاضر يعلن الغائب.

* * *

يقسم الأدهم با العظيم، وبأيمان المسلمين، وبقبر سيد الشهداء، وبمقام سيد أحمد الذكيري، وبالطلاق ثلاث مرات من زوجته الشابة، أن ما حدث، يحدث له لأول مرة في حياته الطويلة. وأنه لا يدري حتى الآن سر حدوثه، وأنه ينكش الأرض ويسائل الليل ويرمي على نجوم السماء

الحكايا بحثًا عن السر، غير أنه لم يصل إلى شيء ما. احتار أدهم. ذهب إلى المشايخ، قرأ الودع، فتح الكتاب، حدق بعيون مغسولة بالدموع في قبور أولياء ا الصالحين، صلى. ضرع بعيون مشربة الدموع لأهل الطريق أن يعرف السر، ولكن كل محاولاته ذهبت هباء.

الليل يقترب، والأدهم يقف أمام الخص، يمتد أمامه حقل البطيخ طويلاً، قشرة لينة من الخضر الرصاصية، تظهر بينها مساحات سوداء من الأرض، والقنوات التي ابيضت بفعل الجفاف. في كتف الأدهم بندقيته الميزر، في يده الأخرى عصاه الخيرزان، والمساء معلق في الأفق البعيد، نسمات الليل الطرية تهب على الأدهم، تداعبه، تنعشه، تحمل له الأمل بعد يوم حار، على يمينه حقل ذرة، وعلى يساره حقل آخر، وعيدان الذرة طويلة، تبدو له في الظلام تحرس الليل، عينا الأدهم تمسحان الحقل، وهو بين الذرة حقل كشريط صغير. وعندما تظلم الدنيا، ولا تستطيع حتى أن ترى كفك، وتبرق النجوم في سماء ليلية سوداء، يعيش الأدهم أحلى ذكرياته، وتجري في خدوده دماء شبابية حمراء، وتنسال في أعماقه دموع دافئة.



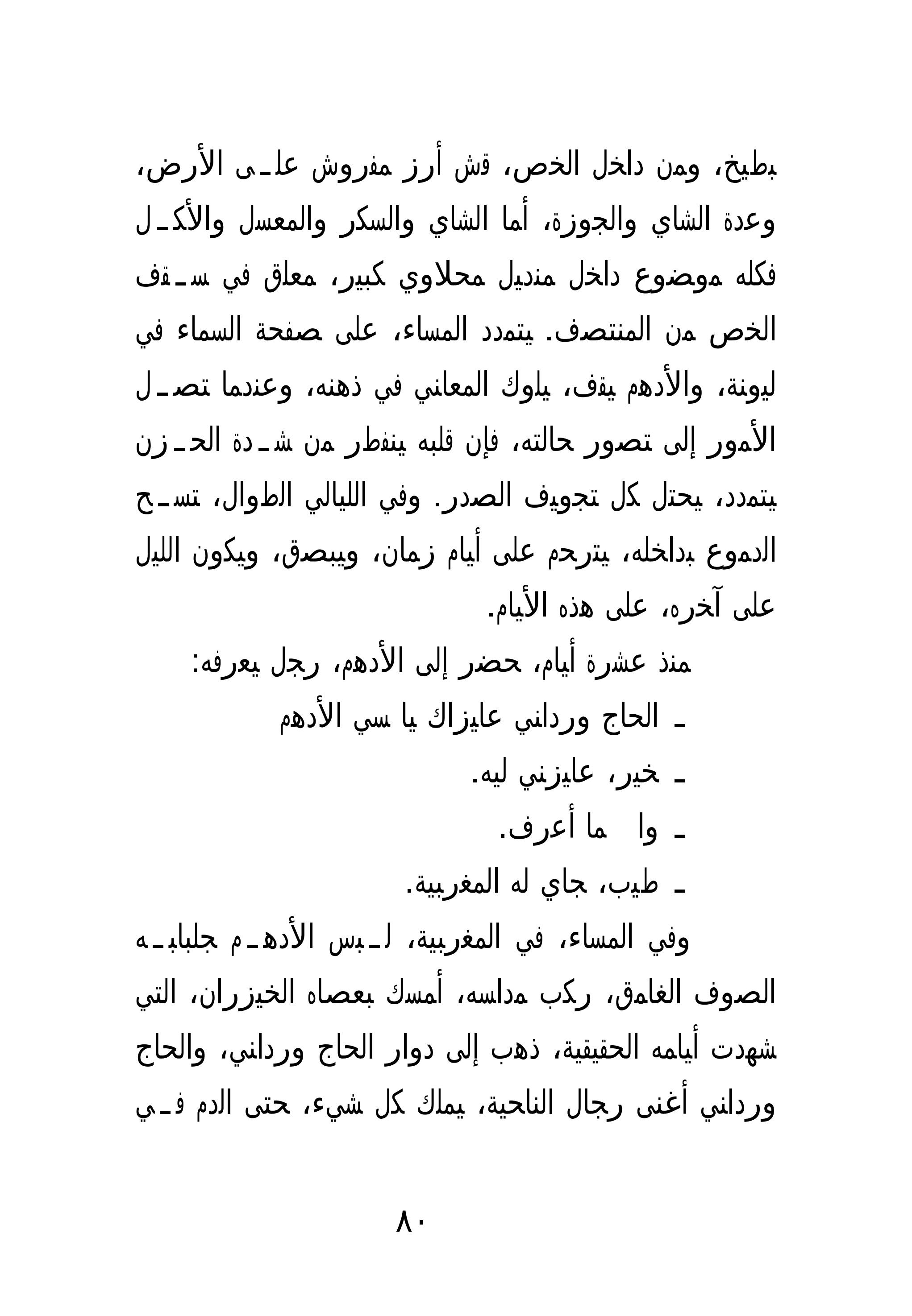
في الزمان القديم، وكانت الدنيا غيـر الـدنيا، فعـل الأدهم كل شيء، كان شيخًا للخفراء، حرس حتـى الهـواء داخل القاعات المغلقة في الليل، غير أنه قنع الآن بما آلـت إليه حالته، ورضي بما قسم له، وقال لنفسه، ذات مساء، يـا

حسن الختام، صلى، وصام، وحمل مسـبحة يخـتم بهـا الصلاة، وقنع أخيرا بأن ينام تحت سـقف واطـئ، وبـين جدران أربعة، وأن يعيش في بيـت، وأن يرضـى بزوجـة تقاسمه الحياة، وبأن يموت ككل الناس، على فراش المرض، وقال عنه شاب متعلم متفلسف، من أهل البلد " إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ".

كانت الأيام، أياما عصيبة.

* * *

في هذا المساء، السماء مشربة بلـون رصاصـي، وحقول الذرة، يتماوج عليها، مع قدوم المساء، لون أخضر، غير أنها خضرة رصاصية، وأمام الخـص يقـف الأدهـم، وتحت قدميه راكية يشعل فيها النار بالليل، حـول الراكيـة عيدان الحطب، اشتعلت أجزاء منها، حـول الخـص مـن الجهات الأربع، قوالح عيدان ذرة، شويت خضراء، وقشـر



بطيخ، ومن داخل الخص، قش أرز مفروش علـى الأرض، وعدة الشاي والجوزة، أما الشاي والسكر والمعسل والأكـل فكله موضوع داخل منديل محلاوي كبير، معلق في سـقف الخص من المنتصف. يتمدد المساء، على صفحة السماء في ليونة، والأدهم يقف، يلوك المعاني في ذهنه، وعندما تصـل الأمور إلى تصور حالته، فإن قلبه ينفطر من شـدة الحـزن يتمدد، يحتل كل تجويف الصدر. وفي الليالي الطوال، تسـح الدموع بداخله، يترحم على أيام زمان، ويبصق، ويكون الليل على آخره، على هذه الأيام.

منذ عشرة أيام، حضر إلى الأدهم، رجل يعرفه:

ـ الحاج ورداني عايزاك يا سي الأدهم

ـ خير، عايزني ليه.

ـ وا ما أعرف.

ـ طيب، جاي له المغربية.

وفي المساء، في المغربية، لـبس الأدهـم جلبابـه الصوف الغامق، ركب مداسه، أمسك بعصاه الخيزران، التي شهدت أيامه الحقيقية، ذهب إلى دوار الحاج ورداني، والحاج ورداني أغنى رجال الناحية، يملك كل شيء، حتى الدم فـي

عروق الرجال، النافرة على جلودهم الصدئة، وحتى الحـزن في أعماق قلوبهم، في الدوار سأل عليه، قالوا إنه ذهب إلـى حقول البطيخ، بحري البلد، للحظة، تصور الأدهم، أن فـي الموضوع إهانة له، غضب، استرجع في ذهنه أيام أن كـان اسمه يخيف حتى الأجنة في أرحام الأمهات، غير أن أحدهم أخبره، أن الحاج ورداني ينتظره في حقول البطيخ.

وفي الطريق إلى حقول البطيخ، كان الليل والظـلام والسماء والنجوم، وموال حزين تبعثره الرياح بـين جنبـات الحقول الواسعة، يحمل إلى الأدهم إحساسا أملسا، بأن هنـاك أياما لم يعشها بعد. الأدهم يسير في الطريـق مـتمهلاً فـي سيره، وفي وسط الحقول، والصمت الليلي، وجد نفسه يتغنى بجزء من قصة حب قديمة، عاشها أيام أن كان شابا صغيرا.

ـ السلام عليكم.

في الحقل، وجد الحاج ورداني، يجلس بمفرده، أمـام خص صغير.

ـ وعليكم السلام ورحمة ا وبركاته.

تبادلا السؤال عن الصحة والحال، وما تفعله الأيـام عادة بالناس، رانت عليهما فترة صمت ثقيلة، كانـت بيننـا

عداوة يا حاج ورداني في الزمان الأول، وقلت لي ذات مساء في الباحة الواسعة أمام المسجد، يا نا يا أنت يا أدهم، كنـت شيخًا للخفراء، وقلت لي: البلد ما تساعناش إحنـا الاثنـين، وتركتك يومها، لم يكن عندي الوقت لك، ولا لغيرك، وهـا أنت يا حاج، بعد ذلك الزمان، تحضرني هنا، أفصـح عمـا وراءك، ما حضرت إلا تحديا لك، ولكي أسمعك صوتي، أنا الأدهم.

استطالت فترة الصمت بينهما، وكان الأدهم يـدرك. أن الحاج ورداني لم يرسل في طلبه للسؤال عـن الصـحة والحال:

- خير يا حاج.

- إن شاء ا كله خير يا سبع الليل.

تحدق الكلمات في بطولة الأيام المفقودة، يظهر بريق عيني الأدهم في الليل، يمر بيده علـى صـدره العـريض، يستريح في جلسته، يمسك عصاه الخيزران، يـرى بعينيـه، رغم الظلام، نقاط الدم العالقة بهـا، وخدشـات رصـاص البنادق، وكلها ذكريات محفورة في حبة القلب.

تمتد بينهما، عبر الحـديث، موضـوعات قديمـة، ذكريات مشتركة، تقيم الذكريات حبلاً من الحب والكراهيـة، يلفان يدوران، غير أن الحاجورداني، في آخر الأمر، طرق الموضوع الرئيسي، والموضوع ببساطة هو أن حقول البطيخ في هذا العام، ومساحتها خمسون فدانًا، سرقت أكثر من مرة، رغم تغيير الخفراء كل ثلاث ليال ورغم أن الحاج ورداني، يبقى فيها أحيانًا بنفسه حتى منتصـف الليـل، قـال الحـاج ورداني إن رجال هذا الزمان ليسوا رجالاً، فهو زمن عقـيم بخيل، قال الحاج ورداني إنه لا يهمه البطيخ، ولا حتى الحقل نفسه، فالمهم سمعته هو، وأن يقلع قطنه، من يـدري، فقـد يسرق دواره، قال الحاج ورداني إنه يجد حرجا في إيضـاح طلبه من الأدهم، فهو من ناحية يخشى أن يطلب منه حراسة الحقول، خوفًا من أن يسيء الأدهم فهمـه، وهـو يعـرف ماضيه، ويحترمه ويحبه، وتطول مساحات الصمت، وتنتشر الكلمات في الصدور كأنين موجع، ويجد الحاج ورداني نفسه عاجزا عن إيضاح ما يريد إيضاحه، يحـرك يديـه دلالـة التسليم، ينبش الأرض تحته،

ـ يعني بختصار كذا، عايزني أحرس لك البطيخ.

قال الأدهم.

ـ لا مش قصدي.

يوضح الحاجورداني ما يدور في ذهنه، ما يقصـده هو أن يحرس الأدهم حقول البطيخ، وأن يأخذ الأدهم ربـع ثمن كل بطيخة تنجو من السرقة في الليالي المقبلة، يضـحك الأدهم، يدرك أنه قد هان لدرجة أن يعمل حارسـا لحقـول البطيخ، غير أنه تساءل، والظلام مساحات تحيط بـه، مـن يكون سارق البطيخ؟ إنه يعرف جميع أبناء الليل في الناحيـة كلها، استعرضهم بذهنه، حتى الـذين ينـامون الآن خلـف الجدران في السجون الضيقة.

ـ طيب أنا موافق..

كانت في الموضوع إثارة، ليال آتية راعشة بالنشوة والعمل، تذكر مصمصات الشفاه بعد مروره على الرجـال، قولهم إن النار لا تخاف بعدها سوى الرماد، وكلمات النـاس عنه، وكأنه قد انتهى.

ـ نقرأ الفاتحة يا سبع الليل.

ـ بسم ا   الرحمن الرحيم، الحمد   رب العالمين.

تمتمات شفاههما وهمـا يقـرآن الفاتحـة، يـداهما متشابكتان، الأدهم يعيش نشوة أيام البكارة الأولـى، وبعـد قراءة الفاتحة، قبل كل منهما يديه، وقام الحاج ورداني، دخل الخص، ومن سقفه فك منديلاً محلاويا كبيرا، أخـرج مـن داخله رغيف خبز وقليلاً من الملح.

ـ علشان يبقى عيش وملح.

أكلا معا، خبزا جافًا كالأيام من حولهما، وبعد الأكل شربا.

ـ طيب السلامو عليكو بقى يا حاج.

يسير الأدهم في الطريق إلى البلد، في الليلة المقبلـة سيبدأ حراسته، وكان الأدهم يتصور أن ما فعله الليلة هوانًـا ما بعده هوان، وأن في أعماقه إحساسا سائلاً بـالحزن، لـه طعم حبات الملح تحت الأضراس، ولكن ما ينتظره في الأيام المقبلة من ليالٍ موشاة برائحة الذكريات، حمل إليه العزاء.

وفي الليل، لم يتسرب إلى نفس الأدهم الشك، في أنه قادر على حراسة حقول البطيخ، ولم يكن يقلل من قيمة الأمر في نظره إلا من حقول البطيخ كانت صغيرة، لا تشرفه أمام أهل البلد.

وعندما اقترب من بلدته، وشاهدها تغوص في ليل أسود، والسماء تنسحب عليها بنجومها المتلألئة، أدرك أنه يقف الآن، في نفس موضعه الذي اعتاد أن يقف فيه منذ سنوات، وينظر إلى البلد في أعماق الليل، وكان يحاول أن يحدد موقع منزلهم، فهو في منتصف البلد، بين مئذنة الجامع ودكر النخل الكبير. وفي مرة، كان يخترق الظلام ويبحث، ويمد يده التي لا يراها، قائلاً لنفسه، إن منزلهم هنا، ويتصور بعين الخيال أمه وأباه، وحجرته الصغيرة في آخر منزلهم.

ما كان قاتلاً، وما تلوثت يداه بدم أحد، وما رفع بندقيته الميزر في وجه أحد الناس، بل كان بطلاً، سماه الناس، سبع الليل، كان شيخًا للخفراء، صال وجال، داس على الأرض بقدميه، ونطح السماء برأسه، سافر وعاد، أحبه كل الناس، وقنع من الدنيا بأقل من القليل.

فجأة، يختفي الأدهم وكان ذلك في صباه، لا تصل إلى البلد سوى حكايات عنه، قالوا غوته جنية ونزلت به سابع أرض، وأنه لم يخرج من عندها أبدا، وقال قائل إن الأدهم قال له إنه راحل إلى بلاد أخرى، بعيدة نائية. وأقاموا

له مأتما في القلوب، وأقسم واحد منهم، أنه سمع عنـه فـي الصعيد، وقال آخر، إنه شاهده في بلاد القتال.

ترحموا عليه. وقالوا: فينك يا أدهم.

وكان ذلك في قديم الزمان.

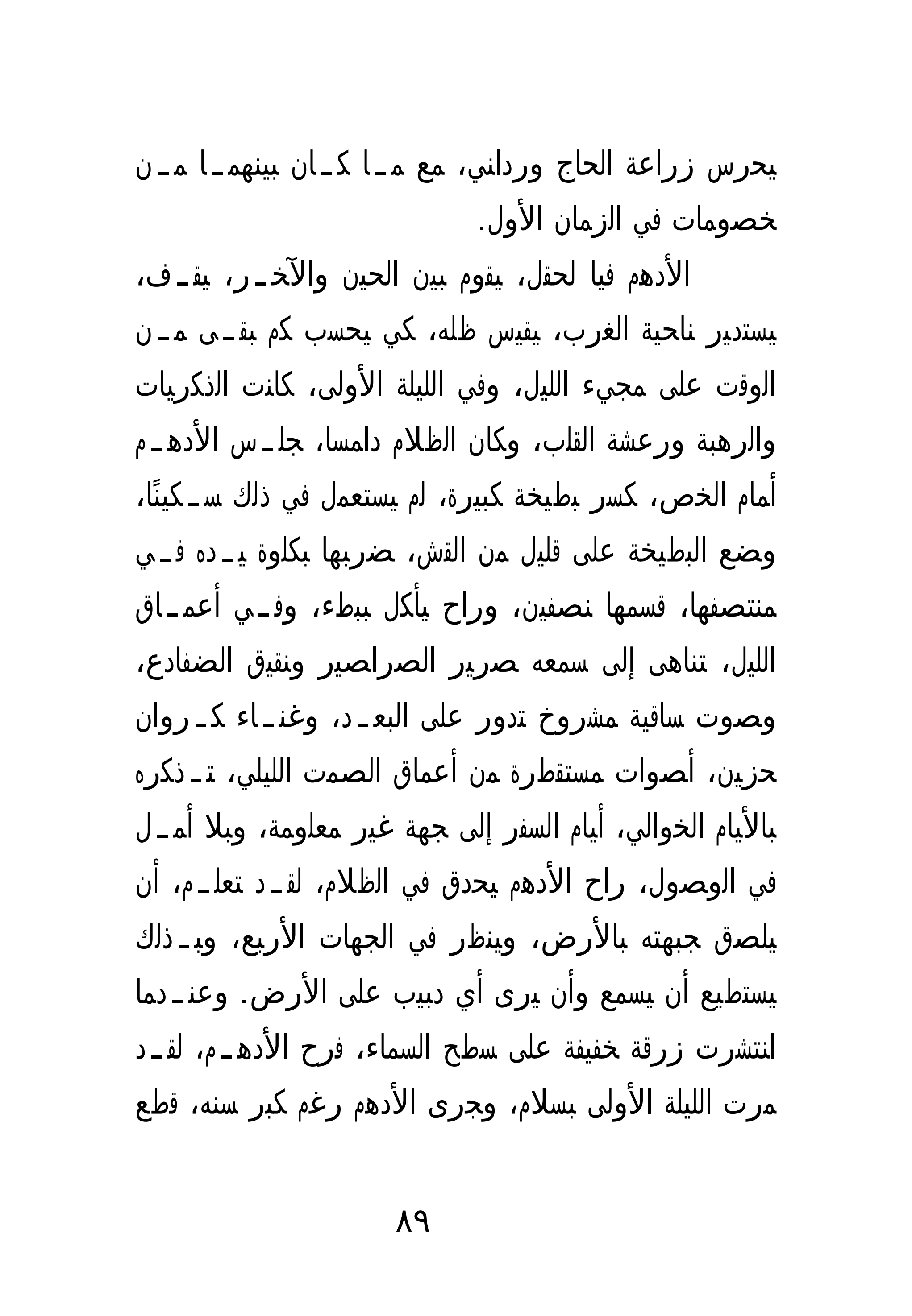
في الصباح، قام الأدهم من نومه مبكـرا، اسـتحم، وقف في وسط الطشت النحاسي، خلف الفرن فـي حجـرة نومه، ودلق المياه الباردة على جسمه العـاري مـن كـوز صغير في يده، دعك جسمه جيدا، أدرك أن شبابه يعود إليـه هذا الصباح، وكانت زوجته تجلس أمامه على الحصيرة، تنز منها قطرات المياه، وتطل من عينيها نظرة مفعمة بالجسارة، لبس ملابسه، خرج إلى الجامع صلى، عاد إلى منزله، أخـذ من زوجته مفتاح حجرة المعاش، وفي الحجرة، فـتش عـن أشيائه القديمة، وجد ثلاث بنادق، وفي المنتصـف البندقيـة الميزر الأصلية، لفها في خرقة قديمة، وضعها في مكانهـا، أخذ إحدى البندقيتين، وعصاه، وخرج، أخبر زوجتـه بمـا ينوي عليه، وطلب منها أشياء معينة ووصاها أن تغلق الباب على نفسها جيدا بالليل.

وفي الطريق إلى الحقل، راح الأدهم يضرب الأرض بقدميه بثقة، واستنشق هواء الصباح بملء رئتيه، وأحـس أن صدره يتسع، وأنه يحتوي الحقل والبلد بداخله، وأدرك أنـه يعود إلى العشرين من عمره.

في الحقول تسلم الخص والبطـيخ والأرض، خلـع جلبابه ولبدته وبلغته ووضعهم داخل الخـص، لـف حـول وسطه تكة من الصوف، وارتدى فوق رأسه طاقية قديمـة، ودار حول حقول البطيخ مرتين. وعاش كل شـيء بنفسـه، وعندما اطمأن إلى كل شيء، عاد إلى الخص، فأعاد تنظيمه وفرش قليلاً من قش الأرز على الأرض، وجلس عليه.

وأمام عينيه، كانت زرقة السماء الصـافية تخـتلط بخضرة النباتات، وكانت حرارة الشمس تولـد فـي الـنفس إحساسا رماديا بالحرارة، وأخذ الأدهم يمـر علـى حقـول البطيخ، خطًا خطًا.

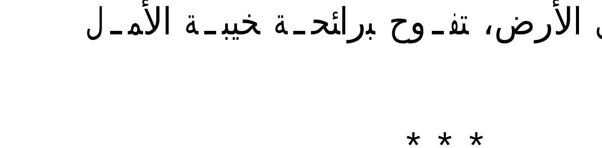
وفي هذا اليوم، عاد كل أهل البلد، وكـل مـنهم لا يتصور أن ما حدث ممكن الحدوث، كل منهم يحكي لنفسه ما شاهده، ويرتب الكلمات في ذهنه وبعدها على طرف لسـانه، كي يحكيها لأول فرد يقابله، يحكي كيف قبـل الأدهـم، أن



يحرس زراعة الحاج ورداني، مع مـا كـان بينهمـا مـن خصومات في الزمان الأول.

الأدهم فيا لحقل، يقوم بين الحين والآخـر، يقـف، يستدير ناحية الغرب، يقيس ظله، كي يحسب كم بقـى مـن الوقت على مجيء الليل، وفي الليلة الأولى، كانت الذكريات والرهبة ورعشة القلب، وكان الظلام دامسا، جلـس الأدهـم أمام الخص، كسر بطيخة كبيرة، لم يستعمل في ذلك سـكينًا، وضع البطيخة على قليل من القش، ضربها بكلوة يـده فـي منتصفها، قسمها نصفين، وراح يأكل ببطء، وفـي أعمـاق الليل، تناهى إلى سمعه صرير الصراصير ونقيق الضفادع، وصوت ساقية مشروخ تدور على البعـد، وغنـاء كـروان حزين، أصوات مستقطرة من أعماق الصمت الليلي، تـذكره بالأيام الخوالي، أيام السفر إلى جهة غير معلومة، وبلا أمـل في الوصول، راح الأدهم يحدق في الظلام، لقـد تعلـم، أن يلصق جبهته بالأرض، وينظر في الجهات الأربع، وبـذلك يستطيع أن يسمع وأن يرى أي دبيب على الأرض. وعنـدما انتشرت زرقة خفيفة على سطح السماء، فرح الأدهـم، لقـد مرت الليلة الأولى بسلام، وجرى الأدهم رغم كبر سنه، قطع

الحقول جيئة وذهابا، غير أنه وهو في طريق عودته إلى الخص، اكتشف أن هناك بطيخة كبيرة، كانت خلف الخص، قد قطعت، ما أدهشه لحد الفزع، البطيخة كانت قريبة منه، وأنه كان يجلس هنا طوال الليل، وتساءل الأدهم، هل وهنت أعصابه من كثرة الاطمئنان؟ هل فقد رجولته خلال أيام الدعة والهدوء الماضية؟ وأدرك، في هذا الصباح، أن حقول البطيخ هذه المساحة من الأرض الممتدة أمامه، أصبحت مجموعة من الجراح في قلبه، وأن قلبه ينزف دما وأنه لو جلس، وفحص الأرض تحت قدميه بعناية، لوجد نقاط الدم قطرة، قطرة على الأرض، تفوح برائحة خيبة الأمل والمرارة.



* * *

ويعود الأدهم، رجلاً مكتمل الرجولة، وتكون الحياة في البلد قد تغيرت، ولد أطفال صغار، أصبحوا صبية يلعبون في الحارات، أقعد المرضى رجالاً كانوا ملء الحياة، مات الأحباء، أصبحوا حطاما جافة تحت الأرض. وحتى الأدهم، كانت تطل من عينيه نظرة مستكنة، تشي بالرغبة في

الاستقرار، وعندما عمل خفيرا نظاميا وقف في الدرك، قـال الناس يومها: ليتولانا ا برحمته.

* * *

في الصباح ذهب الأدهم إلى زوجته، هشـت إليـه، سلمت عليه، قبلت يديه، فرشت له الحصيرة في وسط الدار، أسرعت إلى حجرة المعاش، أوقفها بإشارة من يده، نظـرت إليه بتساؤل، رفع إليها عينين مترعتين بخيبة الأمل، وتشيان بذبول الحياة فيهما، لم يتكلم، عادت إليه، جلسـت بجـواره، مسحت بيدها الناعمة على جبهته الدافئة، كرهها لحد الرغبة في موتها، عندما شم رائحة الدفء التي تنبعث منها، اقتربت منه، أحس أن قلبه يرقص رقصة الحياة الأخيرة، خيل إليـه، أنه يسمع صوت تنفسه، وأنه يحس بدقات القلب على جدران صدره الداخلي.

ـ أنت ما لك يا سي الأدهم؟

مساحة البياض في عينيه تتسع، حبات عرق بـاردة تنسال على جبهته، زوجته تحضر مخـدة، تضـعها تحـت رأسه.

ـ يا ندامة يا سي الأدهم، دا أنت عيان خَاِلص.

أمسك بها، جلست بجواره، تفرس في وجهها النظر، إيه يا متاهة الرغبة المجنونة؟ يا مرتـع الأسـى والحـزن والأشواق في ليالي القهر والهوان؟ أكرهك لحد الرغبة فـي قتالك، وأحبك كما الحياة. ود أن يقول لها أن حقـل البطـيخ سرق ليلة الأمس، رغم أنه سهر حتى الصباح، ولكنـه لـم يتكلم، نظرت إليه، ابتسمت، خيل إيه أن ابتسامتها رثاء لـه، وأنها تشفق عليه، فتمساك وجاس، وعندما همست بحـروف ممطوطة، لم يسمعها جيدا، تصور أنهـا تقـول، إن رجلـه والقبر، وأن ساعاته معدودة. وليلتها تجمع الخفراء، والعمدة، والمأمور، وحاولوا إخراج زهران من وسط حدائق الليمون، ولكنه رد عليهم بطلقات مجنونة، وتـأزم الموقـف، ونظـر العمدة، وتقدمت، صمت مهيب، أمسكت بمكبر الصوت، قلت من خلاله، سلم نفسك يا زهران، قلت له: أنـا الأدهـم يـا زهران، الأدهم شيخ الخفر، وبعدها ران صمت على الجميع، وبرز زهران من وسط أشجار الليمـون، رافعـا سـلاحه، مستسلما، نظر إلى المأمور، ربت على كتفي، لا بطل يا شيخ الخفر.

ـ كانت أيام.

* * *

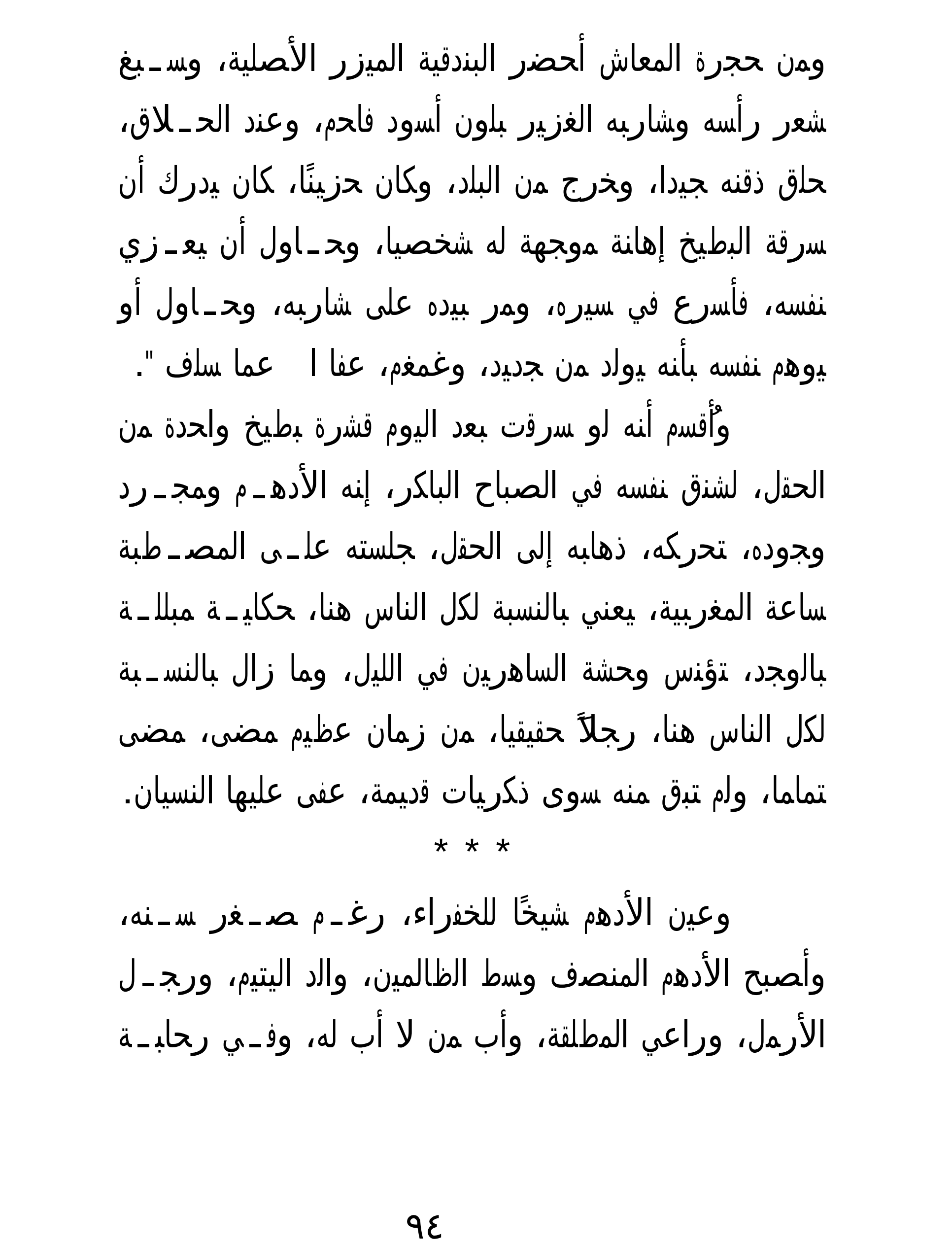
أحبها وكان مرتّبه جنيهين ونصف جنيـه، غيـر أن والدها زوجها لرجل آخر من بلاد بعيدة. وفي الليـل، كـان الأدهم يشعر برغبة في البكاء. كانت ترتعش الـرؤى فـي داخله، تهتز، يدب النمل في شرايين القلب. سـافرت، أمـا الأدهم، فقد كفن الحب، دفنه في حبة القلب، انتظارا لمجـيء ربيع تتحقق فيه الأحلام المدفونة في الأعماق.

* * *

مرت ليلتان بدون سرقة، لم يفـرح الأدهـم، ولـم يتصور أن الأمر مر بسلام، وصدق حدسـه، ففـي الليلـة الرابعة سرق البطيخ، عاين مكان السرقة، وجد آثار أقـدام، تابعها، ولكن آثـار الأقـدام اختفـت، عـاد إلـى الخـص مهموما،أحس أن الأرض والسماء وحقـول الـذرة سـجن بغيض، وأنه يختنق، وأنه قد يموت بعد قليل.

- مش ممكن.

هب الأدهم من جلسته، قرر أن يواجه الأمر مهمـا كان، عاد إلى منزله، في حجرته استحم جيدا، حـك نفسـه، وبعد الاستحمام لبس جلبابه الصوفي الغامق، ولبس بدلتـه،



ومن حجرة المعاش أحضر البندقية الميزر الأصلية، وصـبغ شعر رأسه وشاربه الغزير بلون أسود فاحم، وعند الحـلاق، حلق ذقنه جيدا، وخرج من البلد، وكان حزينًا، كان يدرك أن سرقة البطيخ إهانة موجهة له شخصيا، وحـاول أن يعـزي نفسه، فأسرع في سيره، ومر بيده على شاربه، وحـاول أو يوهم نفسه بأنه يولد من جديد، وغمغم، عفا ا عما سلف ".

وأُقسم أنه لو سرقت بعد اليوم قشرة بطيخ واحدة من الحقل، لشنق نفسه في الصباح الباكر، إنه الأدهـم ومجـرد وجوده، تحركه، ذهابه إلى الحقل، جلسته علـى المصـطبة ساعة المغربية، يعني بالنسبة لكل الناس هنا، حكايـة مبلـة بالوجد، تؤنس وحشة الساهرين في الليل، وما زال بالنسـبة لكل الناس هنا، رجلاً حقيقيا، من زمان عظيم مضى، مضى تماما، ولم تبق منه سوى ذكريات قديمة، عفى عليها النسيان.

* * *

وعين الأدهم شيخًا للخفراء، رغـم صـغر سـنه، وأصبح الأدهم المنصف وسط الظالمين، والد اليتيم، ورجـل الأرمل، وراعي المطلقة، وأب من لا أب له، وفـي رحابـة

الليل، ووسط صمت الحقول، وخلف ستر الظـلام، كانـت حكايات الناس عنه، هي الأمل والبلسم والخلاص.

يبدو الليل مفعما بالأسى، مترعا بالحزن والجنـون، في تلك الليلة كان نور القمر الفضي ينسكب علـى الحقـول كأنه وشاح. وبدت حقول البطيخ واسعة، تتسدل عليها سـماء في لون الفضة، والأدهم يقف كما هو في كل ليلة، من هناك؟ فجأة، يقبلون، ينتشرون كالجراد في أيام الوباء، يقشعر البدن، يقف شعر الرأس، يجف الحلق، تسري في الجسـد بـرودة كبرودة الموت، يبعث الخوف الليلي قشـعريرة ثلجيـة فـي أعماقه، يرفع قدميه، يشوح بيديه، يحاول أن يخلع البندقيـة من كتفيه، أن يمسك بها، أن يصوبها، أن يفعل أي شيء أن يصيح، أن يقول في صمت الليل، " أنـا الأدهـم يـا أولاد الكلب.. " يفتح فمه عن آخره، لا تخرج الكلمـات، صـمت أخر، والأدهم عاجز تماما، يأخذون البطيخ، عدد كبير مـن الخلق، لا يعرف فردا واحدا منهم، يضحكون، يكركـرون، يكسرون البطيخ، والأدهم واقف كأنه مقيد.

وبعد ذهابهم، جرى الأدهم، بكى، اهتز جسمه مـن شدة الحزن، عض نفسه، كاد يكسر البندقية، كز بأسنانه على

لسانه حتى أدماه، شد شعره، ولكن ما كان كان، سرقَ حقـل البطيخ أمام عينيه.

أحس الأدهم، في هذا الليل، أن كرامته قد أهينـت، أحس أن الذين سرقوا البطيخ، ضاجعوا زوجته، في مكـان عام، عروا جسدها، وكان في لون الحليب، ثم بصقوا عليها. أدرك أنه يجب عليه أن يذهب إلى البلد من فـوره، يحلـق شاربه، يقلب جلبابه، ينكس بندقيته، يضع في أعلاها منـديلاً أبيض، ثم يذهب بنفسه إلى أحد المقابر، كي يدفن نفسه فيه.

وفي آخر الليل، وكان الفجر قد بـدأ ينتشـر علـى صفحة الليل، كان الأدهم يقـول حكايتـه لـلأرواح الليليـة المسافرة نحو السماء، يقولها كلمة كلمة. غير أنهـا لا تـرد عليه.

وفي الصباح، يغسل الأدهم وجهه بالنـدى، مـزيلاً أحزان الليلة السابقة. وعندما حضر الحاج وردانـي، كانـت جفون الأدهم حمراء، وكانت عينـاه منتفختـين، وحولهمـا هالات من السواد، وما كان يعذبه، أنه لم يجـرؤ علـى أن يخبر الحاجورداني بما حدث.

ـ صباح الخير يا سبع الليل.

- صباح النور يا حاج.

- والنبي يا سبع الليل، ريح نفسك، دانت مجرد وجودك هنا، يخوف الناس كلهم.

ويمضي الحاج ورداني، يعود الأدهم إلى نفسه، ينداح سكون موحش في داخله، لا يدري ماذا سيفعل، وفي النهار، يقسم ويقسم، ويستعد لليل المقبل، يعمر البندقية، يحضر العصا، يدور، ياف، يشتم رجلاً اقترب من الحقل، فيولي هاربا، ولكنه في الليل، كان يعتوره فتور غريب، ينظر فلا يرى، ينصت فلا يسمع، يفتح فمه فلا يسمع سوى فحيح الصمت، يرفع يده فيجدها في ثقل الرصاص. يجلس، فوق قلبه راقات من الصدأ تتسال في قلبه الهزيمة قطرة قطرة، هو وحده الذي يدرك حقيقة مأساته. وبعد أن يتركه الحاج ورداني كل يوم، يعض على شفتيه بقسوة، ويغرز عصاه الخيزران في الأرض، ويستحلب تحت الضرس إحساسا لزجا بالهوان، ويشم رائحة احتراق شيء ما بداخله، وكان يشاهد بنفسه الدخان الأزرق خارجا من فمه وأنفه، ويدرك أن الشيء الذي يحترق بداخله الآن هو رجولته، وانتهت مدة خدمته، قنع، وقنع بأقل من القليل، عاش على

الكفاف واقترب " من الناس، وابيض شعر رأسه. وتزوج فتاة صغيرة في عمر أولاده. وفي الليل. كـان يحمـل بندقيتـه ويرحل، يسافر الزمان، حتى يجد نفسه أخيـرا يعـود إلـى أحضان الحبيبة الغالية، كما الأبطال، مستريحا إلـى وسـادة صوتها الحنون، مانحا لها كل ما يملكه رجل في مثل عمره.

قالت زوجته إنها حامل، وإن جارتها قالت لها إنـه ولد، ما دام كثير التقلب في بطنها، بدت له كلمـات زوجتـه الشابة، أشرعة سفينة، يسافر عليها إلى بلاد مجهولة، أحـس بذنوب الحب في أعماقه، عد على أصابعه أشهر إقامتها معه، فوجدها أكثر من تسعة أشهر فحمد ا .

ـ لازم نسميه الأدهم الصغير.

قالت زوجته، وكانت تبدو فرحة، تتحسـس بطنهـا بفرح حقيقي، جلست بجواره، التصقت به، كأنهـا تحتمـي بوجوده من أشياء محددة، رفعـت إليـه عينـين متـرعتين بالنضارة والصبا..

ـ مالك اليومين دول يا سي الأدهم؟

ما بي لا أقدر على حكايته، لا أستطيع أن أقوله لك، أنت طفلة صغيرة، لا أستطيع أن أحكي لك حكايـة الحـزن

والجنون في آخر الليـل، لا بـد وأن أكفـن حكـايتي، يـا صغيرتي، في أكفان بيضاء. وأدفنها في حبة القلـب، حتـى تنجلي الغمة، ويذهب الكرب، وهو في الطريق إلى الحقـل، مر على الطفقشي، اشترى ذخيرة جديدة، يعتقد ولو للحظـة، أن الذخيرة التي معه، والتي لم يطلق منهـا طلقـة واحـدة، ذخيرة فشنك. وهو في الطريق، أفزعه لحد الموت، أنه فـي منتصف الطريق تماما، توقف على الجسـر، نظـر خلفـه، أمامه، حواليه غير أنه لم يجد له ظلاً علـى الأرض، رفـع عينيه المنكسرتي الأهداب نحو السماء، كانت صافية، صفاء صيفيا عذبا. وجد أن الشمس تصب أشعتها على الكون، نظر إلى الأشجار والمزروعـات، وجـد أن ظلالهـا واضـحة، استدار، جاس على الأرض، نبش بقدميه بحثًا عن ظله، لـم يجده، وكان ساعتها طفل صغير يمر بجواره. وقف الطفـل. راح ينظر إليه بدهشة ممزوجة بالخوف، غير أن الأدهم سأل الطفل إن كان له ظل على الأرض أم لا. وقف الأدهم، شب على أطراف أصابعه، جرى الطفل، أمسك ذيل جلبابه بـين أسنانه، وقال لأول من قابله في الطريق، إن الأدهم قد حدث

له مس. بسمل الآخر وحوقل، وضرب كفًا بكف، وقال وهو يصعد بعينيه ناحية السماء " لا حول ولا قوة إلا با ".

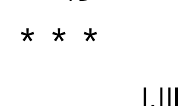


فتاة ناضجة، يبدو بياض جسدها حتى من تحت ملابسها شديد الوضوح، كان زواجه منها بداية تنازلات ومساومات، وبحث عن أشياء بسيطة، لقمة تأكلها، وهدمة تلبسها، وكحل للعين، وصابونة للبشرة الناعمة، ودهان للشعر الأسود الفاحم كانت صدرا تسري فيه قشعريرة الحياة، وجسدا دافئًا يطلب الإشباع بالليل. وكان كل ما يقدم عمها الأدهم، حتى النوم في حضنها الدافئ ليلاً، لا بد وأن يكون محاولة منه لإعادة النظر والتراجع.

* * *

ذهب الأدهم في ساعة العصاري إلى البلد، تسكّع في حواريها، وقف طويلاً عند دكان الباقلة، راجع حسابه في دفتر الشكك يوما بيوم، ذهب إلى منزله، أدهشه انتفاخ بطن زوجته الشابة ـ علقت بعنقه كالطفلة الصغيرة، دار في أرجاء الدار، ما كان في سالف الأيام من ساكني الدور، ولكن للضرورة أحكام ". خرج، ذهب إلى الجامع، جلس مع شيخ

المسجد، صافح بلدته بعينيه، وهو في الطريـق إلـى حقـل البطيخ، وكانت ساعة المغربية، الموشـاة بـذكريات اليـوم الماضي، استدار إلى البلدة، استقرت البيوت الطينية الواطئة وشجرة الجميز ودكر النخل ومئذنة الجامع في أعماقه، خيل إليه أنه يشاهد هذه الأشياء للمرة الأخيرة، أحـس بارتجافـة الحزن، يذوب الأسى في داخله، تصور أنـه يسـمع وقـع قطرات دمع دافئة تسح في أعماقه. وفي الطريـق، وكانـت ذرات الظلام الرمادية بدأت تلف الحقول بداخلها، وصـوت رجل في حقل بعيد، يقول، إنه لولا الخيانة، لما مات الأدهم، بطل الأبطال، مقتولاً ذات يوم.



ـ منتصف الليل.

الأدهم يقف مكانه، يقسم لنفسه وللحقل أن أحدا لـن يسرق أي شيء، تصور بعد قليل من الوقت أن هناك حركة في الركن الغربي من الحقل، أسرع إليه، فوجئ بأن البطيخة الكبيرة قد قطعت من فرعها، وزحزحت مـن مكانهـا، لـو سرقت هذه البطيخة لانكشف أمره وكانت فضـيحة، خـاف عليها، الأدهم يحضر سكينًا حادا، يفتحها، يفرغها من قلبها،

يضع البندقية بجواره يدخل في بطن البطيخة. يقسم الأدهـم ألف مرة، أنه لا يعرف سببا واحدا دفعه لذلك، كان يتصـور أنه ينتقم، بدت له محاولته الأخيرة هذه، كدواء عفن يعالج به الأحزان. وفي داخل البطيخة، بدأ ينسكب في أعضائه ضعف شديد، وأدرك لحظة دخوله في جوف البطيخة الكبيرة، أنـه يهبط الآن، كما تهبط طيور الليل، تمثلت له فجيعته، وحياته العريضة، جاب بر مصر بالطول وبالعرض. الاستيقاظ فـي الصباح، ويكون متعبا لحد الموت، الألم القاتل في العظـام، الضعف في البصر، تناول الإفطار، لف سيجارة رفيعة جدا، الخروج، التسكع في حواري البلد، الجلوس على المصاطب، وعلى أبواب الحارات، النوم وقت القيلولة في جـامع البلـد، الاستحمام بعد الظهر في ميضة الجامع، الاستماع إلى الدرس الديني، العيش على حكايا الآخرين، الجر من الدكان " شكك" حتى أول الشهر، لعب السيجة ساعة العصاري فـي الباحـة الواسعة، خلف الجامع، التراهن على أشـياء بسـيطة، دور شاي، سيجارة غليظة، وفي البيت يتناول العشـاء، طعامـا مغموسا بدموع العين، يشرب الشاي، الكلام منفرد من طرف واحد، حكاية الزوجة الشابة، جسـدها الـذي يضـج بنـداء

الرغبة، وفي الليل، النوم بمفرده مرتديا قميصا قصيرا علـى اللحم، والشابة الصغيرة في الحجرة الأخرى، بيضاء، دافئـة وفي منتصف الليل، قبل الفجر بقليل " الصلاة خير من النوم، السفر على أجنحة الأحلام إلى بلاد بعيدة، صلاة الفجر فـي الجامع، العودة إلى الدار، الحمد ، الحمـد ، الحمـد ، الجلوس فوق السطوح وسط قطرات الندى البـاردة، تثقـب أشرطة النور الرمادية رداء الليل، تنضح معـالم الأشـياء، ويشرق على الناس يوم جديد.

كان يريد أن يتحرر من إسار الماضي، وقال الأدهم، سلّم نفسك يا زهران، أنا الأدهم، أن يتحرر من احترام الناس له، حكاياتهم عنه، كلماتهم المبللة بالشوق، الموشاة بـالحزن والحنين، إنه يود أن يجلس على الأرض، يقف في الخـارج بقميصه الداخلي، يذهب إلى العشة، يشرب الجـوزة بـدون مياه، حتى يذهب العقل تماما، وترتخـي العظـام وتـزوغ النظرات وتنفك عقدة اللسان، يدرك الأدهم، أنه يفعل هذا كله وهو يدخل البطيخة، بل يدرك أنه لا يدخل البطيخة بمفـرده، يدخل معه الألم المتراكم، والحزن الطـري، حـزن ليـالي العراء، والسفر في الليل، والجري بغير حدود.

وفي قلب البطيخة، أحـس أن فـي قلبـه آهـات، وزفرات، نقاط دمع متجمدة، ليست من لغة الناس ولا الحياة. بل هي شيء خاص به. إنه يشعر الآن بأنه يريد أن يخـرج رأسه من داخل البطيخة، كيس يستنشق هواء الليل الطـري الدسم يملأ رئتيه. يريد أن يقول حكايته لطيور الليل المهاجرة نحو الجنوب، يقولها بصوت عال علها تسمعه، ثـم يرحـل معها، فوق البلاد والأنهار، نحو معابر مجهولـة، ودونمـا وجهة معينة، فقد يجد هناك، في أقصى الوادي، مـا فقـده، ويعود، وتكون البطولة خبز كل يوم، والأدهم حكايـة كـل الساعات، غير أنه لم يقل شيئًا، ببساطة، لم يستطع حتـى أن يخرج رأسه من داخل البطيخة.

عن البطل كنت أقول..

أحكي قصتي،

عن الرجل المفعم بالجسارة، عن الأسطورة، عنـه، المنطق دائما، في خبء الليالي، وقشعريرة الصمت، المسافر في الزمان أبدا، أحكي عن الأدهم، عن سبع الليل.

لكم يا أهل بلدتي.

العودة من الحقل

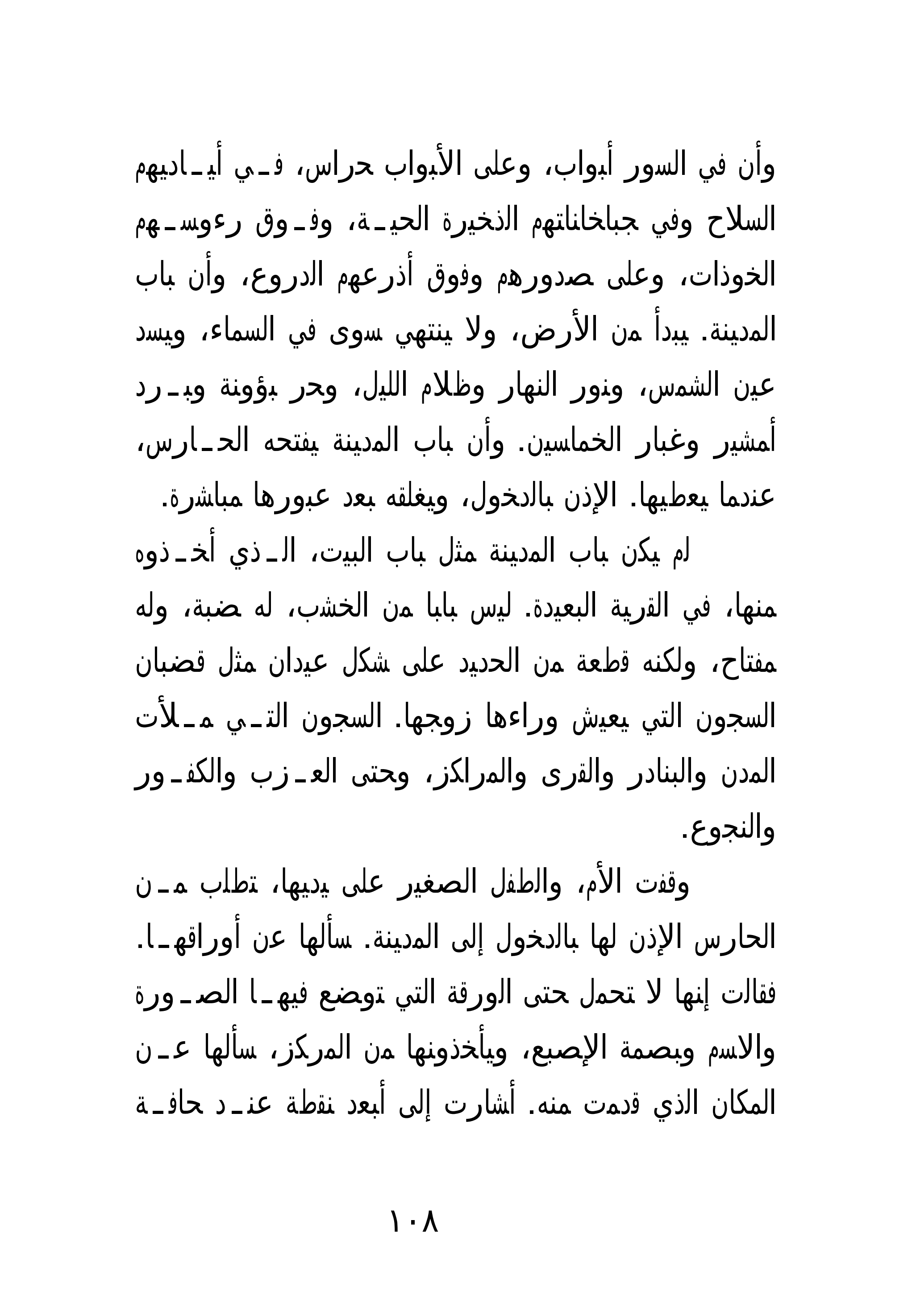
لحظة الغروب الليل على مشارف القرية ككـابوس مخيف. وضع عبد الحفيظ البردعة علـى ظهـر الحمـار. ربطها. نظر إلى ظله فوجد أنه اسـتطال وبهتـت معالمـه، غبشه المساء، أحس بجفاف الأرض تحت قدميـه، الترعـة مشققة من الجفاف. بقايا لعبة السيجة في أحد أركـان القنـاة التي ابيض لونها بفعل الجفاف رفع الحمار رأسـه.. نهـق بصوت عال. حلّ عبد الحفيظ رباط الجاموسة في بطء. كـل شيء حوله هزيل. ظلال الأشجار وقد تساقطت الأوراق من فوق الغصون، فكر عبد الحفيظ لو تمطر السماء ولو قطـرة واحدة. إنه يدرك أن فصل الشتاء لم يحن بعـد. وأن فصـل الخريف لم ينقض منه سوى أيام ولكنه الجفاف من حوله أكد له استحالة هذا. بدت أعواد البرسيم الخضراء والقناة الحبلى بالخصب والماء وقطرات الماء فـي الحـر القـائظ سـاعة الظهيرة على ظهر الجاموسة التي تستحم في ميـاه الترعـة كأشياء لا وجود لها. فك رباط البقرة الشقوق الكبيـرة فـي الأرض كأنها أبواب الجحيم أمسك بمقودهما معا نظر إلـى

الشقوق الكبيرة في الأرض حرك أصابعه في فتور. فكـر: متى تنتهي أيام التحاريق. حلقات الغبار المنعقـدة فـي كـل الطرقات ولو كانت هناك مياه لرشت الأرض. ولبدا الهـواء رقيقًا بدت فروع الأشجار العارية مـن الأوراق كشـيء لا يبعث إلا على اليأس وشم رائحة الجفاف. بـدت الجاموسـة ضئيلة لحد البؤس. وفكر في أيام التحاريق من العام الماضي ذبحت جاموسته. بيعت لجزار القرية بأبخس الأثمان، ركـب حماره والدموع الدافئة تسح في أعماقه. وتساءل: ماذا تحمل تحاريق هذا العام؟ حا. حا. ك. ك. لا يوجد في المنزل بـق لبن واحد. علَفَ الجاموسة هو التين فقط. حي. حي. هبـت عليه نسمة هواء راكدة فأكدت في خياشيمه رائحة الجفـاف. عه. عه. نظر إلى السماء لونها رمادي لا يثير سوى الكآبـة في النفس. ذرات الغبار تتساقط في هدوء.. هـبط المسـاء. تاهت معالم الأشياء. حاول أن يكلم نفسه. لم تخرج الكلمـات من فمه. فتحه وأغلقه. دون أن يخرج أي صـوت. عنـدما وصل إلى منزله. نزل من فوق الحمار. نادى على زوجته. أخذت منه مقود البقرة والجاموسـة. أدخـل الحمـار إلـى الزريبة. عند مروره على الكانون والفرن لم يشـم رائحـة

الدخان فأدرك كل شيء على الفور. جلس يقيد الحمار. ويضع أمامه التبن وقليلاً من الفول. نهض في بطء. سوى الطاقية على رأسه. تحسس شاربه الكث. وقف في وسط الدار. الظلام يتسلل إلى كل شيء الجو خانق خرج إلى باب داره. الأسى يترقرق في الأركان المظلمة والزوايا الرمادية. تنهد: لو يذهب في الصباح ليجد القناة مثقلة بالماء، طلب من زوجته أن تعد له نومته على سطح المقعد العالي فقد تمطر السماء في آخر الليل. نام على ظهره. فرد رجليه على آخرهما تحسس الحصير الجديد بباطن يده. أدار عينيه المكحولتين باليأس والقنوط في أركان السماء الأربعة. وعندما وجدها مزروعة بالنجوم الشاحبة. وعندما تبين له أنها سماء الخريف المغسولة بالحزن والغبار، عندئذ أدرك أنه حزين.

باب المدينة

وقفت الأم، تحمل على يديها الطفل الصغير، على باب المدينة، فلاحة قادمة من القرية البعيدة. تطرق باب المدينة، ومعها طفلها، لم تكن تعرف أن المدينة لها سور،


وأن في السور أبواب، وعلى الأبواب حراس، فـي أيـاديهم السلاح وفي جباخاناتهم الذخيرة الحيـة، وفـوق رءوسـهم الخوذات، وعلى صدورهم وفوق أذرعهم الدروع، وأن باب المدينة. يبدأ من الأرض، ولا ينتهي سوى في السماء، ويسد عين الشمس، ونور النهار وظلام الليل، وحر بؤونة وبـرد أمشير وغبار الخماسين. وأن باب المدينة يفتحه الحـارس، عندما يعطيها. الإذن بالدخول، ويغلقه بعد عبورها مباشرة.

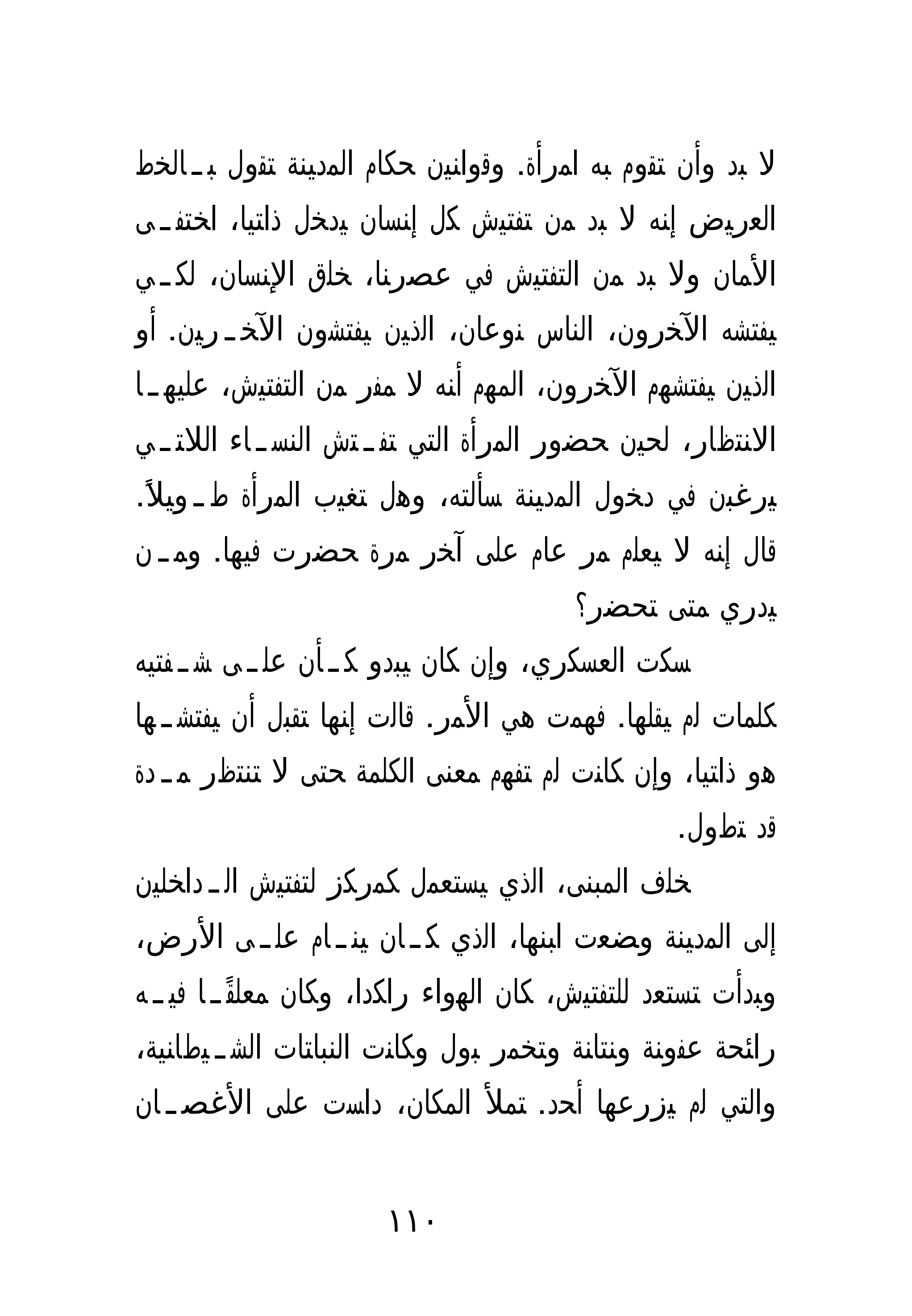
لم يكن باب المدينة مثل باب البيت، الـذي أخـذوه منها، في القرية البعيدة. ليس بابا من الخشب، له ضبة، وله مفتاح، ولكنه قطعة من الحديد على شكل عيدان مثل قضبان السجون التي يعيش وراءها زوجها. السجون التـي مـلأت المدن والبنادر والقرى والمراكز، وحتى العـزب والكفـور والنجوع.

وقفت الأم، والطفل الصغير على يديها، تطلب مـن الحارس الإذن لها بالدخول إلى المدينة. سألها عن أوراقهـا. فقالت إنها لا تحمل حتى الورقة التي توضع فيهـا الصـورة والاسم وبصمة الإصبع، ويأخذونها من المركز، سألها عـن المكان الذي قدمت منه. أشارت إلى أبعد نقطة عنـد حافـة

الأفق. وقالت، هناك في البعيد في حضن السماء تنام قريتها، سألها، لماذا لم تجدي سوى الجبل لكي تنام في حضنه؟ قالت إن الهم الدائم فوق حبة القلب. لو تحرك فمن يوقفه. الهموم مثل موج البحر البعيد، الجايات أكثر من الرائحات. سألها عن المكان الذي تقصد الذهاب إليه. فقالت، لقمة العيش، والدار التي تؤويها، والقلب الحنون الذي تشرب من نبعه، والجدار الذي تستند إليه، قالت إن عجوز قريتها، الرجل الذي كان في حلقة الذكر مع عرابي، الذي كسره الواس، قال لها، عليك بالمدن فهي أماكن السعادة في هذا العالم. بهجة المحزون. وأمان الخائف وراحة المركوب. ولقمة العيش الساخنة للجائع. وأمل كل من هدهم التعب.

عجب العسكري لقولها، وهف لها قلبه، ولأنه أصلاً من القرى البعيدة. ولا يحب في وقفته هذه أن يتذكر حكاية الهجرة، جبال الهموم. فوق الصدر، معلقة في رموش العين، وهو نفسه لا يعرف، كيف يحمل كل هذه الجبال، وكيف ينام ويقوم دون أن تنهد جبال الهموم. التي فوقه والتي بداخله.

قال لها، إنه سيدخلها المدينة، بشرط أن يفتشها، قوانين المدينة تنص على أنه في حالة التفتيش الذاتي لامرأة،



لا بد وأن تقوم به امرأة. وقوانين حكام المدينة تقول بـالخط العريض إنه لا بد من تفتيش كل إنسان يدخل ذاتيا، اختفـى الأمان ولا بد من التفتيش في عصرنا، خلق الإنسان، لكـي يفتشه الآخرون، الناس نوعان، الذين يفتشون الآخـرين. أو الذين يفتشهم الآخرون، المهم أنه لا مفر من التفتيش، عليهـا الانتظار، لحين حضور المرأة التي تفـتش النسـاء اللاتـي يرغبن في دخول المدينة سألته، وهل تغيب المرأة طـويلاً. قال إنه لا يعلم مر عام على آخر مرة حضرت فيها. ومـن يدري متى تحضر؟

سكت العسكري، وإن كان يبدو كـأن علـى شـفتيه كلمات لم يقلها. فهمت هي الأمر. قالت إنها تقبل أن يفتشـها هو ذاتيا، وإن كانت لم تفهم معنى الكلمة حتى لا تنتظر مـدة قد تطول.

خلف المبنى، الذي يستعمل كمركز لتفتيش الـداخلين إلى المدينة وضعت ابنها، الذي كـان ينـام علـى الأرض، وبدأت تستعد للتفتيش، كان الهواء راكدا، وكان معلقًـا فيـه رائحة عفونة ونتانة وتخمر بول وكانت النباتات الشـيطانية، والتي لم يزرعها أحد. تملأ المكان، داست على الأغصـان

اليابسة. تذكرت الأغصان الطرية في قريتهـا، فقالـت فـي نفسها، لم يكن هناك مفر من الرحيل.

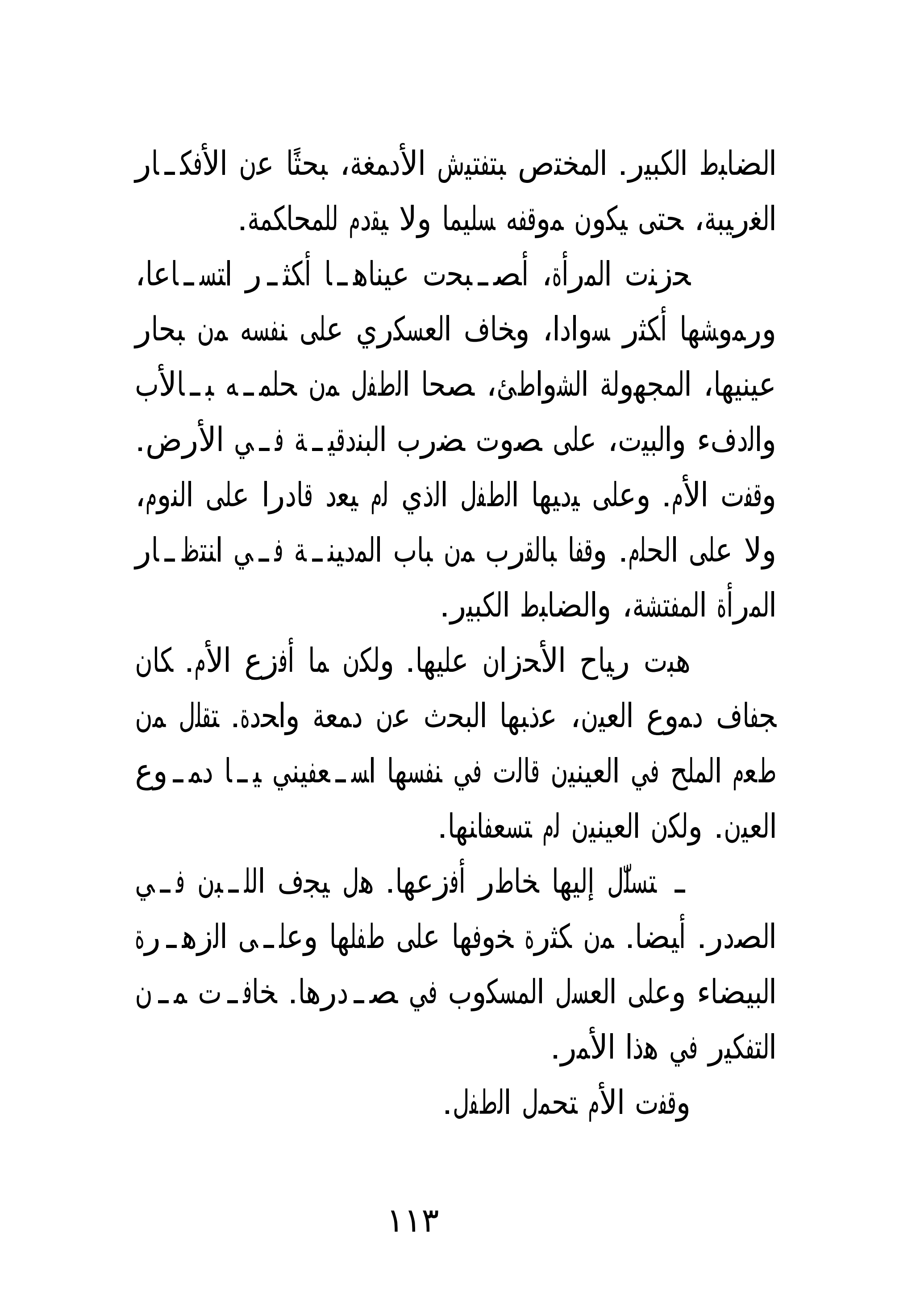
وقف العسكري ينتظر. حاول أن يبعد الطنين المتولد في أذنيه.

وعندما فشل في إبعاد الطنين، حاول أن يقبض عليه بيديه وبدا له ذلك مستحيلاً، كان الطفل قد نـام. كـان فمـه مفتوحا، وكان مستغرقًا في النوم، رغم أن نصـف بيـاض عينيه كان يبدو من تحت الرموش الطويلة. وكان قـد بـدأ يحلم، تحركت شفتاه، وقال كلمات مهشمة عن البيت والعمل والأب، قال الدفء والأمان والأيام القادمة. تنبه العسـكري على صوت الطفل، واكتشف أنه لن يستطيع تفتـيش دمـاغ الطفل ولا دماغ أمه. وتلك هي المهمة الصعبة، من يـدري؟ قد تتسلل إلى المدينة أمور خطيرة؟ نظر إلى المـرأة، التـي تعرف كيف تستعد للتفتيش الذاتي، كانت قد اكتشفت وجـود زهرة بيضاء. نبتت في الأرض وراء مركز التفتيش، كانـت تجلس على الأرض تنظر إليها، وتبحث بعينيها عـن مـاء تروي به الزهرة. كانت تتحسس صدرها. الذي يبدو مـثقلاً بلبن نظيف بكر. قال العسكري في نفسه إن المرأة القرويـة

تفكر في ري الزهرة البيضاء، بلبن صدرها الأبـيض. كـل الأمور الخطيرة، مثل سحب الشتاء تأتي مع بعضها.

تذكر العسكري، أنه دهـس بقدميـه آلاف الزهـور البيضاء والخضراء والزرقاء ومن كافة الألوان، كلما أتـى إلى هنا، للتبول، أو لتفتيش أحد بصورة ذاتية. بدا له الموقف سخيفًا، كان الطفل يحلم والمرأة تبحث عن مياه تروي بهـا الزهرة البيضاء، كانت المرة الأولى في حياة العسكري التي يواجه فيها موقف مثل هذا.

وقبل أن يفكر طويلاً في الأمر. وبدلاً من أن تأخـذه بحور الفكر إلى آخر العالم وتذهب به إلى حضن السما الذي تنام فيه القرية البعيدة البعيدة، وتعود به إلى حضن الجبـل، الذي تنام فيه المدينة القريبة. وقبل أن يـربط بـين المـرأة القروية الفلاحة، التي يمتلئ صدرها باللبن الأبيض البكـر، غير المغشوش. وبين كل الأشياء الجميلة في حياته. انتصب العسكري في وقفته. وأمسك بسلاحه وأصدر أوامره للمـرأة أن تحمل طفلها، الذي يحلم بالمستقبل. أن تقف خارج بـاب المدينة، حتى تحضر امرأة لكي تفتشها ذاتيا. وحتى يحضـر



الضابط الكبير. المختص بتفتيش الأدمغة، بحثًا عن الأفكـار الغريبة، حتى يكون موقفه سليما ولا يقدم للمحاكمة.

حزنت المرأة، أصـبحت عيناهـا أكثـر اتسـاعا، ورموشها أكثر سوادا، وخاف العسكري على نفسه من بحار عينيها، المجهولة الشواطئ، صحا الطفل من حلمـه بـالأب والدفء والبيت، على صوت ضرب البندقيـة فـي الأرض. وقفت الأم. وعلى يديها الطفل الذي لم يعد قادرا على النوم، ولا على الحلم. وقفا بالقرب من باب المدينـة فـي انتظـار المرأة المفتشة، والضابط الكبير.

هبت رياح الأحزان عليها. ولكن ما أفزع الأم. كان جفاف دموع العين، عذبها البحث عن دمعة واحدة. تقلل من طعم الملح في العينين قالت في نفسها اسـعفيني يـا دمـوع العين. ولكن العينين لم تسعفانها.

ـ تسلّل إليها خاطر أفزعها. هل يجف اللـبن فـي الصدر. أيضا. من كثرة خوفها على طفلها وعلـى الزهـرة البيضاء وعلى العسل المسكوب في صـدرها. خافـت مـن التفكير في هذا الأمر.

وقفت الأم تحمل الطفل.

كانا ينتظران.

١٩٨٢

البعاد

الأسطى جابر ليس ترزي القريـة فقـط، ولكنـه " العرضحالجي "، الوحيد فيها. يحول ما يريد الناس قوله إلى كلمات. يكتبها لمن يستحمون على البعد في مياه الغربة. هذا ما يفعله في ضوء النهارات. ولكنه في ظلام الليالي. يكتـب في غرفته الداخلية. وعلى ضوء لمبة جاز نمـرة عشـرة. شكاوى الناس، كان يقول من قبل إنه يكتب شكاوى المظاليم. ولكن لأن الكل يشكو والكل يحضر إليه في الليـل. أصـبح يقول شكاوى الناس. يكتبها سرا وبيـده الشـمال. حتـى لا يعرف أحد صاحب الخط بعد وصول هـذه الشـكاوى إلـى الجهات المسئولة. حضرت له البنت شمعة، وحيدة ومقطوعة من شجرة، أخوها الوحيد، سافر إلى ديار العـرب، بعـد أن ضاقت به الحال، في يدها ربع جنيه، مطوي أكثر من مـرة وفي واليد الأخرى، ورقة بيضاء مسطرة مقطوعة من كراس الخط العربي لتلميذ في الابتدائي، ومشرشرة في الجانب الذي

قطعت منه. وفي اليد الأخرى، بقايا قلم كوبيا، مبـري مـن الناحيتين، وضعت ما معها أمامه. ولأنه يعرف. وكل أهـل البلد يعرفون أيضا. أن شمعة لا تنطق. قال لنفسه:

- مفهوم.

يعرف المطلوب منه مقدما، أن يكتب لهـا رسـالة لأخيها عبد الونيس. دارت الكلمات في ذهنه. ولدنا الغـالي عبد الونيس - لا - لن يكتب ولدنا، فالأم ماتت. والأب مات بعدها. والأخ سافر إلى ديار العرب. ولم يبق سوى شـمعة بمفردها. سيقول: أخي الغالي، لا تكفي كلمة أخي فقط، هـل يقول: يا كل من لي في هذا العالم؟ قال لنفسه. إن مسـتوى الكلمات أكبر من فهم وإدراك هذه البكماء، سيقول: يا أبـي ويا أخي الغالي عبد الونيس. سعد الأسطى جابر بعثوره في ذهنه على مقدمة الخطاب، أخذ منها الربع جنيه الذي وجـد صعوبة في فرده من جديد. وأعاد لها وهو يبتسـم الورقـة المشرشرة. المقطوعة من كراس الخط العربي لتلميـذ فـي مدرسة ابتدائية. وأعاد لها ربع القلم الكوبيـا المبـري مـن الناحيتين، استفهمت ملامح وجهها فأشار إلى داخل الـدكان، ومن المكان الذي أشار له. أحضر قلم الحبر ودواية الحبـر.

ودوسيه الورق الأبيض المسطر. والمصمم خصيصا من أجل كتابة الخطابات، ولم يحضر هذه المرة دليل كتابة الرسـائل للأهل والأحباب، لأن الموضوع سهل وجاهز في ذهنه، قال لنفسه، وهو يبسمل. إما أن شمعة تريد أن تطلب منه النقـود أو أنها تسلم عليه وتطمئن على أحواله. فقد تسللت الوحشـة إلى قلبها. أو أنها تستفسر عن عدم إرسال أي رسالة لها. منذ سفره. تذكر الأسطى جابر في هذه اللحظـة أن شـمعة لـم تحضر له برسالة قادمة لها من عبد الونيس الذي يعمل فـي بلاد العرب. يقرأها لها. وهو عادة يقوم بهذا العمـل بـدون أجر. فهو يحصل على أجره مقابل كتابة الرسائل فقط. أمـا قراءة الردود عليها. فهو عمل مجاني. مضى عام على سفر ونيس ـ هكذا ينادونه في البلد من الاختصار ـ ولم ترد منه كلمة واحدة. لا تحمل الخير ولا الشر. الأسطى جـابر هـو الذي جهز له الأوراق المطلوبة واستخرج له البسبورت مـن ديوان المديرية رأسا. وله عند ونيس بـاقي أتعابـه لحـين حضوره من الغربة. ومن يومها لم تحضر له شمعة ومعهـا رسالة كي يقرأها لها. قال لنفسه. ربما حضرت لها بعـض الرسائل وقرأها لها تلاميذ المدارس، الذين امتلأت لهم القرية

على آخر الزمان. صرف الأسطى كل هذه الأمور من ذهنه. وقرر أن يسأل شمعة قبل أن يخط حرفًا في رسـالتها إلـى أخيها عما تريد منه. سأصبح بهلوانًا على الصـبح. ابتسـم لنفسه وهذا الخاطر يمر بذهنه. ويملأ خاطره.

وضع الورقة التي كان قد أخرجها من الدوسيه على منضدة التفصيل ووضع الدواية والقلم بجوار الورقة واستدار لشمعة. حاول أن يستفهم منها عما تريده. حرك يده اليمنـى على الورقة في الهواء ونظر إليها. بدا أنها لم تفهم ما يقوله. تساءل: يقولون إن البكم إنما يحدث بسبب شدة الذكاء.. فأين ذكاءها إذن؟ قرر أن يسألها عن كل سبب لكتابة الرسالة إلى أخيها على حدة. أدار يده اليسرى حتى أصبحت في مواجهة يده اليمنى. وصافح يده اليسرى بيده اليمنى. هزهما بشـدة. وهز رأسه لها مستفهما أن كان هذا المطلـوب، فلـم تـرد. أخرج نقودا من جيبه. وراح يعدها. يرمي القرش الذي تاهت معالمه من كثرة الاستعمال، من يد إلى يد ينزل القرش على راحة يده اليسرى فلا يسمع له رنينًا. مثل الرنين الذي كـان يسمعه في الأيام الماضية. بعد أن تجمعت القروش القليلة في كفه الأيسر. ضم الكفين معا. شكل بهما دائرة. ووضع النقود

كلها في جيبه. واستفهم منها إن كان ما نطلبه من ونيس هي هذه النقود المصنوعة من الصفيح. فلم ترد. نظر إليها. أشار لعينيه. متجهما. تصنع الدهشة والفرح اللذان يشعر بهما من يقابل الحبيب بعد فترة طويلة من البعاد. فتح يديه. ارتمى في أحضان حبيب غائب وهمي.. قبلة في الهواء. ونظر إليهـا. ولكنها لم ترد. أحضر ظرف جواب. أغلقـه علـى ورقـة بيضاء. ثم قام بفتحه من جديد. وأخرج الورقة البيضاء مـن داخله. وبدأ في قراءة الورقة وتوقف عند منتصف الورقـة كان يحرك شفتيه في الهواء دون أن يقول شيئًا. استفهم منها. فلم ترد. وإن كان التأثر قد بدا واضحا على ملامح وجههـا. قال لنفسه: ربما كان هذا هو طلبها. وضع الورقة والظرف، ونظر لها مرة أخرى. وأشار من جديد إلى الأشياء فسكتت. وذاب التأثر في ملامح الوجه.

كان الأسطى جابر قد تعب من الجهد الذي قام بـه. وكانت حبات العرق، قد نبتت فوق جبهته، وانزلقت من تحت الطاقية الصوف التي كان يغطي بها رأسه. كان من السـهل عليه كتابة عشر رسائل بدلاً من التمثيل الذي قام به. قال في نفسه: إن البنت مقطوعة من شجرة. لا فرع ولا جذر لهـا.

وما فعله معها. سيكون ثوابه عند ا . سبحانه وتعالى. حرك يديه في المسافة التي تفصل بينهما. ماذا تريد بالضبط؟ أشار لرأسه، حاول أنه يفهمها أنه متعـب، مـد إصـبعه وبللهـا بالعرق. ثم قرب الإصبع المبلل بالعرق من أحد عينيها. حتى كاد الإصبع أن يلامس بقايا رموش العـين التـي تسـاقطت معظم رموشها وكان يود أن يؤكد لها أنه متعب. ولكنها لـم تتكلم. نفخ بفمه بصوت عال. وبان الضيق على وجهه، أشار لماكينة الخياطة والقماش الموضوع على منضـدة التفصـيل على شكل أثواب خام، والمقص القائم لم تحركـه يـد منـذ الصباح فلم تتحرك، وفي لحظة غضب. أشار لهـا ناحيـة الباب. باب الدكان الرئيسي. الذي كان مفتوحا وقال بصوت عال:

- الباب يسع مائة جمل تخرج منه.

لم يكن قد أكمل الجملة، حتى كانت مقدمات البكـاء واضحة على ملامح وجهها، من قال إن منابت الـدمع فـي عينيها قد جفت؟ شهقت، شهقة خيل للأسطى جابر أنها هزت الدكان، انتفض صدرها، حتى تصور أنه سينفجر من كثـرة الهواء فيه. ثم هبط ببطء، وبدأت تبكي. نزلت الدموع مـن

عينيها والمخاط من منخاريها. ولأنها حـولاء فـإن خطـي الدموع كانا يسيران في اتجـاهين مختلفـين. ولأن الوقـت صباحا، والدكان دخله نور الصباح الواضـح. فقـد شـاهد الأسطى جابر بوضوح خطي الدموع علـى خـديها. ولأن الصمت الصباحي كان يفرض نفسه. على القرية كلها. سمع نهنهة بكاء. كانت المرة الأولى التي يصله فيها صوت مـن شمعة. رفع يده، بأن التأثر على وجهه وهـو يطلـب منهـا السكوت، وأمسك بالقلم وخط الكلمات لونيس. أبـي وأخـي الغالي. أحتار بعد الديباجة الأولى ماذا يقول؟ نظـر إليهـا. قاطعه وجه عكرته خطوط الدموع. والحمار في العينين أخذ شكلاً غريبا. لأن كل عين كانت تنظر في ناحيـة. فكتـب: احتارت بلدتنا يا بني في فهم دموع شمعة. هل تنقذها وتكتب لها؟ طال البعاد. والبنت وحيدة. وكتب كلاما آخر عن سـوء الحال والفم الذي لا يطلب الطعام. والجسم الذي يبحث عـن الهدمة التي تستره والروح التي لا وليف لها سواه، وكتـب أيضا عن اتساع البيت القديم المهجور على شمعة وخوفهـا من الصمت الليلي وهو بعيد في ديار العرب لا يعرف أحـد أين أراضيه بالضبط.

طوى الورقة. ووضعها في الظرف. وسلمه لها. لـم يكن يعرف العنوان. وكان متعبا كان مرهقًا من الانفعال. رد لها الربع جنيه كما هو. والورقة المشرشرة وربع قلم الكوبيا، وكانت قد وضعت هذه الأشياء على المنضدة، وأشـار إلـى الطريق المؤدي إلى مكتب البريد. وهي تصورت أن الحكاية انتهت بسلام، ما عليها الآن سوى الذهاب إلى مكتب البريـد ومن هناك ترسل الخطاب. وفي كل الأيام القادمة ما عليهـا سوى الذهاب إلى مكتب البريد لتسأل عن وصول الرد مـن أخيها. سارت. الدموع لم تنقطع، والنهنهة كما هي والصـدر يرتفع وينخفض بهدوء وبطء. كانت تفكر في ربـع الجنيـه الذي احتفظت به معها. وفي الرسالة المكتوبة لأخيها وفـي حلاوة الانتظار. والذهاب كل يـوم. إلـى مكتـب البريـد والجلوس على المصطبة التي بجانبه. حتى تحضر البوسـتة من المركز. وبدأت خطوط الدموع تجف مخلفـة وراءهـا، بريقًا محببا إلى من ينظر إليها، أما الأسطى جابر، فقد جلس في مكانه على الكرسي المقابل لماكينة الخياطة، كانت قطـع القماش كثيرة ومكومة. وكان النهار في أوله. والزبائن فـي انتظار أن تتحول أثواب القماش الخام إلى جلابيب يلفون بها

في حواري البلدة. التي تبدو مثل الخنادق. ولكن يديـه لـم تكونا تأكلانه وتدفعانه إلى العمل، شعر هو بكسل وفتور. قال في نفسه إن المثل القديم في قريتنـا يقـول: أخـذوا رجـل الخرساء فنطقت، ومع هذا فإن شمعة لا تعرف سوى البكاء. ربما، فشمعة لا تعرف غير أن أخاها مسافر فقط. وأنه لـم يؤخذ منها بعد. ومع هذا فقد استمع اليوم إلى نهنهة البكـاء واضحة، ربما نطقت شمعة من وجع البعاد. من يدري؟ تمنى الأسطى جابر في جلسته، أن يكفيه دخله من الخياطة حتى لا يحشر نفسه في هموم الناس التي تزداد يوما بعد يوم. وكأنها تتوالد من بعضها البعض. لم يكن يعرف عنوان ونيس. ولا شمعة تعرف عنوان ونيس. سافر إلى ديار العرب. لم يكـن يعرف أين يستقر به المقام بعد الوصول، قال إنـه سيرسـل عنوانه من هناك. بعد أن يجد العمل. وبعد أن يجد السـكن. سيكتب لهم الرسائل. يصف فيها العمل، ويصف فيها السكن. ويقول للأسطى جابر بشكل خـاص الكثيـر عـن مسـائل الأموال. ما يحصل عليه. وما ينفقه وما يدخره. ليبدأ به من جديد. هنا في البلد. قال هذا وسافر. ومن يوم سفره. لا حس له ولا خبر. استدار العام الأول. واكتمل. وونيس لم يرسـل

عنوانه حتى الآن. والأسطى جابر لم يكن يستطيع إفهامهـا حكاية العنوان، وهي أيضا لا تدري أي شيء عن العنـوان، تشارك الأسطى في جلسته الحزينة ترى لو كانت حدثتها عن العنوان وفهمت الأمر. هل تنطق شمعة في هذه الحالة؟

وظل سؤال الأسطى معلقًا في هواء الصباح الطري والطازج. وعلى باب مكتب البريد.

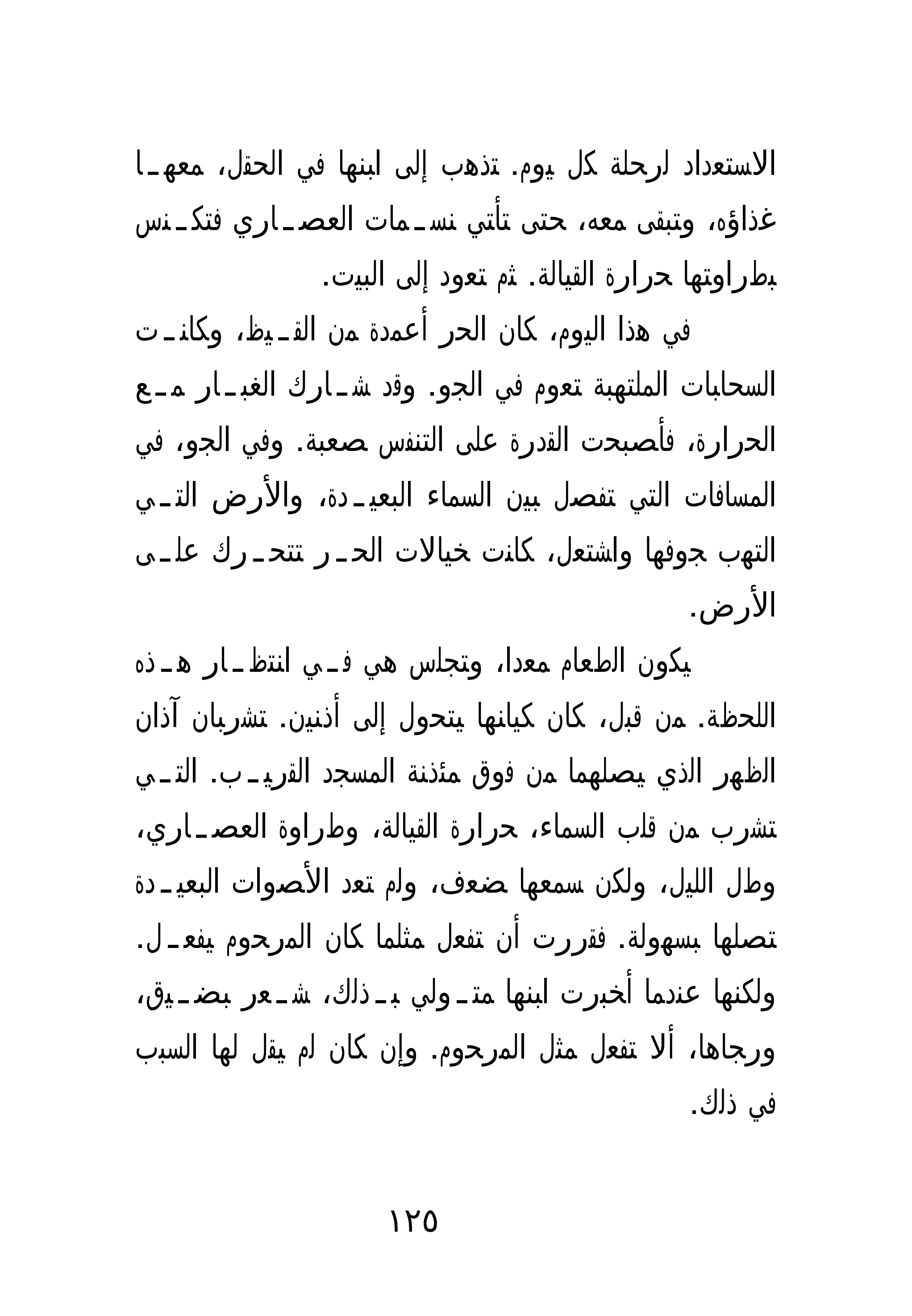
كانت شمعة.

١٩٨٠

صهد الشراقي

ما إن تأتي لحظة القيالة، حتى تفعل مثلما كانت ترى المرحوم زوجها يفعل. تقف في حوش الـدار التـي بـدون سقف. يستقيم جسدها في وقفته، تنظر إلى السماء. ثم تعـاود النظر في الجهات الأربع، وتستقر العينان على الأرض فـي النهاية، إن لم يكن لها ظل، تكون ساعة القيالـة. فـي هـذا الوقت تستعد للخروج من البيت. هكذا كان يفعـل المرحـوم زوجها. ورغم طول السنوات وبعده عنها. وخراب الجسور بينهما. إلا أن هذه اللحظة تذكرها به. ما إن تأتي، حتى تشم رائحة عرقه، وترى علامات التعب والإجهاد على ملامـح وجهه، وتشعر بنفرات الدم في عروقه، وتسمع دقـات قلبـه على عظام صدره. التي تبدو تحت الجلد مثل جريد القفـص الفارغ.

في وقفتها، تهفّ عليها روائحه، وتهفو نفسها له رغم وجع البعاد، وضنى الأيام الطويلة، التي تفصلها عنه. الفارق الوحيد. أن وقفة الغالي كانت تتم في الحقل. ووقفتها تأتي في البيت الصامت المهجور. وعندما تتأكد أنها لحظة القيالة، تبدأ



الاستعداد لرحلة كل يوم. تذهب إلى ابنها في الحقل، معها غذاؤه، وتبقى معه، حتى تأتي نسمات العصاري فتكنس بطراوتها حرارة القيالة. ثم تعود إلى البيت.

في هذا اليوم، كان الحر أعمدة من القيظ، وكانت السحابات الملتهبة تعوم في الجو. وقد شارك الغبار مع الحرارة، فأصبحت القدرة على التنفس صعبة. وفي الجو، في المسافات التي تفصل بين السماء البعيدة، والأرض التي التهب جوفها واشتعل، كانت خيالات الحر تتحرك على الأرض.

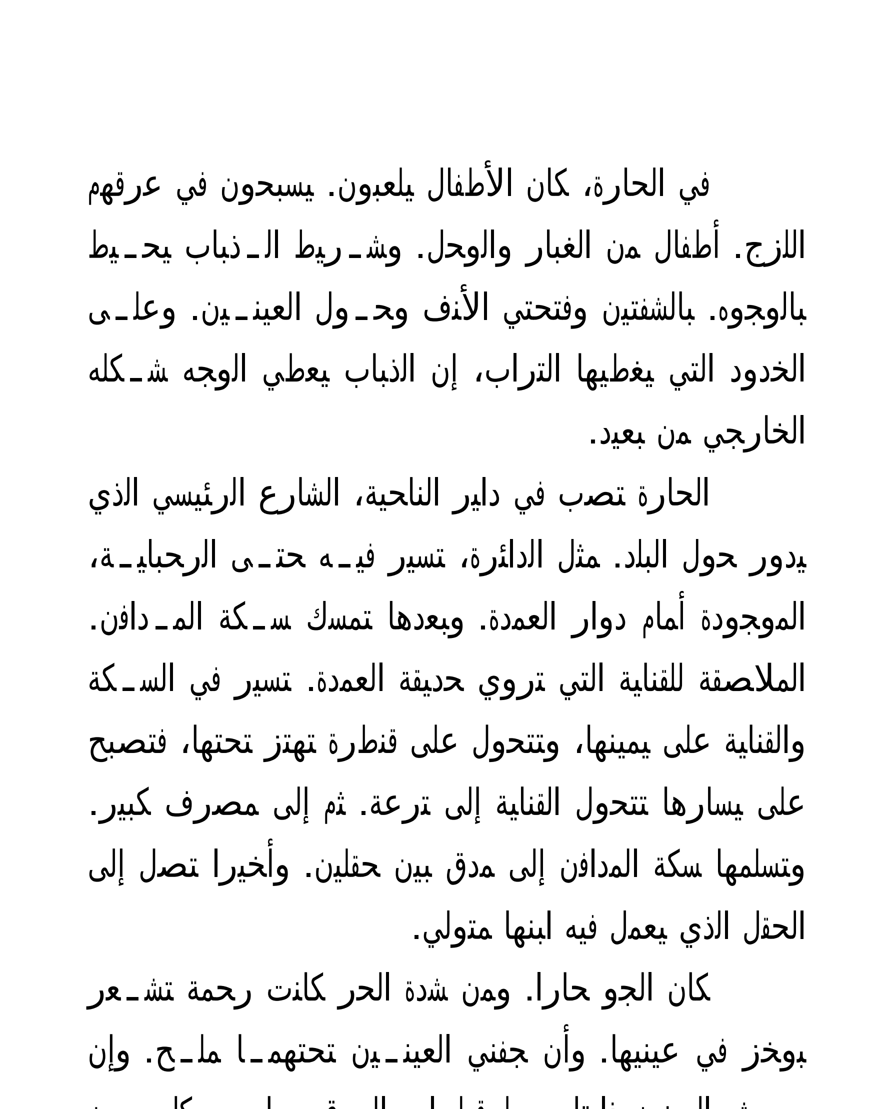
يكون الطعام معدا، وتجلس هي في انتظار هذه اللحظة. من قبل، كان كيانها يتحول إلى أذنين. تشربان آذان الظهر الذي يصلهما من فوق مئذنة المسجد القريب. التي تشرب من قلب السماء، حرارة القيالة، وطراوة العصاري، وطل الليل، ولكن سمعها ضعف، ولم تعد الأصوات البعيدة تصلها بسهولة. فقررت أن تفعل مثلما كان المرحوم يفعل. ولكنها عندما أخبرت ابنها متولي بذلك، شعر بضيق، ورجاها، ألا تفعل مثل المرحوم. وإن كان لم يقل لها السبب في ذلك.

تتحرك رحمة من مكانها، تحضر ملابس الخـروج، الجلباب الأسود والطرحة من نفس لون الجلباب. وإن كانـت الطرحة بها الكثير من الثقوب. وسوادهما لا يبدو مؤكدا، لأن اللون بهت من الشمس. ترتدي ملابسها، تبدو وكأن الليل قد أتى بها إلى هذا البيت في الليلة الماضية. ثم رحل ونسـاها. وفر هاربا أمام ضوء النهار. وأنها لا تزال في انتظار الليلة القادمة حتى يستردها من ضوء النهار. تدوس على الأرض بهدوء، ولكن دوسة القدم الحافية على الأرض. تجعل الذباب يطير، يتحرك في الجو، يصبح على شكل سحابة، توفر دائرة صغيرة من الظلال الممزقة. تتحرك علـى الأرض بحركـة الذباب في وسط الأرض العارية. ويبدو ظلها مثل المنخـل، تحمل السبت الصغير، الذي تضع فيه الطعام، وفوقه فوطـة قديمة، فوق رأسها. بدون حواية، فهو صغير ولا يقـع مـن الحركة. والقلة المبللة من رشح المياه الباردة. تحملها علـى يدها اليسرى، تكون غير مغطاة. فهي تغطى فمهـا بعيـدان زرع خضراء من أول زراعة تقابلها في الطريق. فتسـدها وتظللها في وقت واحد. القلة تنز منها المياه. ومع هذا تجف

بسرعة. وكان ملمس المياه على يدها رطبـا. ولأن المـاء يتبخر بسرعة. فيزداد الإحساس بالرطوبة.

تخرج من وسط الدار، تشد الباب الكبيـر وراءهـا. بيدها اليمنى الخالية، تسمع له صوتًا قـديما عـلاه الصـدأ. وعندما يستريح الباب في إطاره، تمسك بالعصفورة، تديرها. حتى تصبح خلف الباب، يتساوى الباب الذي نخـر خشـبه السوس، والجدار الذي تساقط منه الطين. وأصبحت الريـاح تأكل قوالب الطوب التي ظهرت واضحة. يمكنها أن تراهـا. قالبا قالبا. وفي كل يوم. تقرر أن تضع طينًا مكـان الـذي تساقط. بين القوالب وبعضها. ولكنها تؤجل ذلك الأمر إلـى اليوم التالي. وعندما يأتي هذا اليوم تشعر أنهـا متعبـة وأن حيلها مهدود. وأنها لا تستطيع أن تصلب طولها أبدا.

تخرج المفتاح من جيبها. وتقفل الباب. ثم تدفع الباب بيدها بكل قوتها. حتى تتأكد من إغلاقه. قبل أن تسير مبتعدة عن البيت. تقول لنفسها وهي تسـير إن أولاد الحـرام. لـم يتركوا لأولاد الحلال شيئًا. البيت في حارة مثـل الخنـدق. والأبواب مثل الشقوق على الجانبين، تفتح الأبواب، فتتسـع الشقوق. ولكن بعد إغلاقها يبقى الشق كما هو.



في الحارة، كان الأطفال يلعبون. يسبحون في عرقهم اللزج. أطفال من الغبار والوحل. وشريط الذباب يحيط بالوجوه. بالشفتين وفتحتي الأنف وحول العينين. وعلى الخدود التي يغطيها التراب، إن الذباب يعطي الوجه شكله الخارجي من بعيد.

الحارة تصب في داير الناحية، الشارع الرئيسي الذي يدور حول البلد. مثل الدائرة، تسير فيه حتى الرحباية، الموجودة أمام دوار العمدة. وبعدها تمسك سكة المدافن. الملاصقة للقناية التي تروي حديقة العمدة. تسير في السكة والقناية على يمينها، وتتحول على قنطرة تهتز تحتها، فتصبح على يسارها تتحول القناية إلى ترعة. ثم إلى مصرف كبير. وتسلمها سكة المدافن إلى مدق بين حقلين. وأخيرا تصل إلى الحقل الذي يعمل فيه ابنها متولي.

كان الجو حارا. ومن شدة الحر كانت رحمة تشعر بوخز في عينيها. وأن جفني العينين تحتهما ملح. وإن رموش العينين ذابتا وسط قطرات العرق. سارت، كل من رآها. قال إن رحمة جففها الحرمان، وامتص الحياة منها.

عودها اليابس كشجرة نبتت وكبرت في أرض بور شراقي، لم يطفئ ظمأها الماء أبدا.

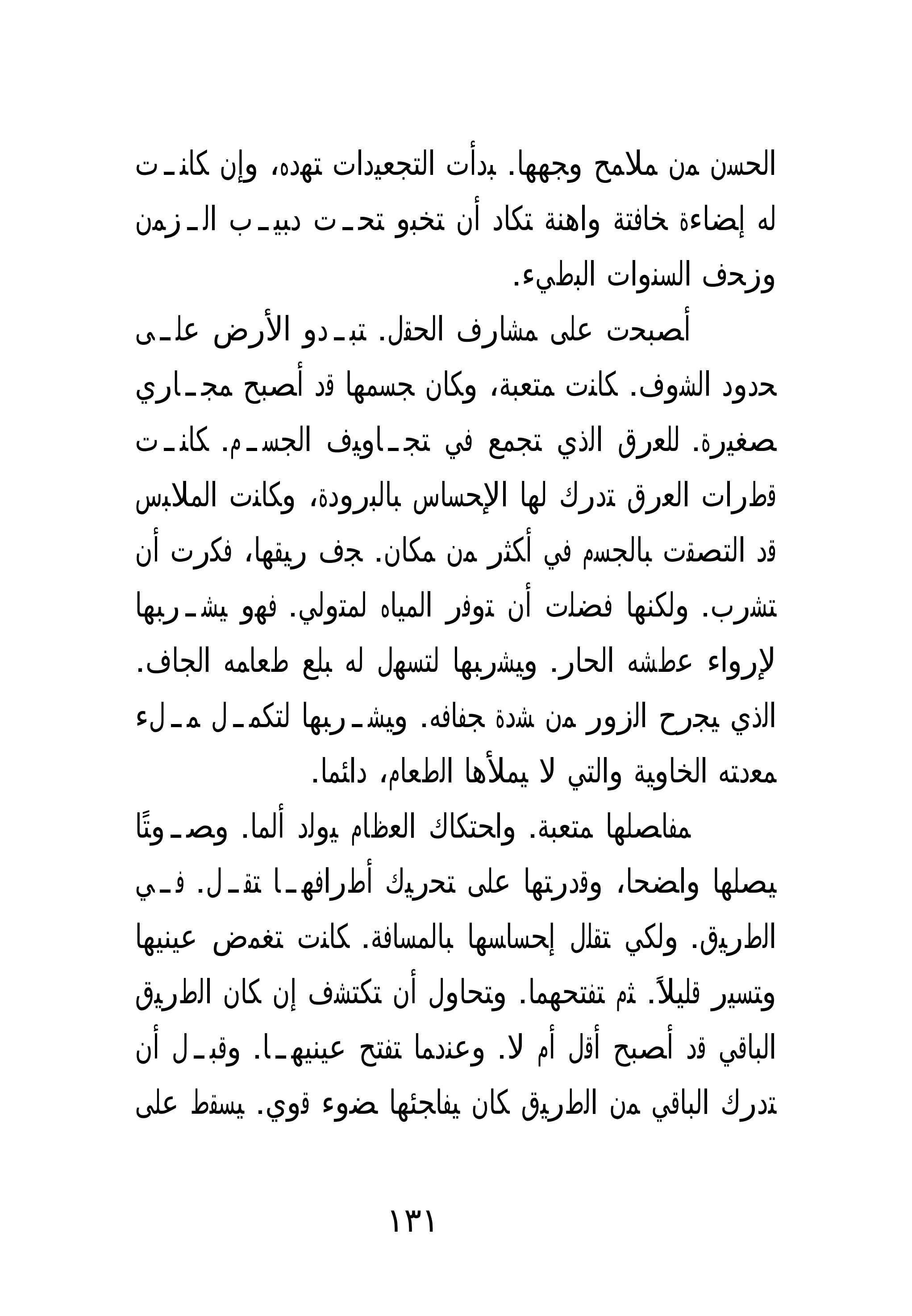
شعرت بسخونة الأرض، نظرت في الطريق أمامها، كان خاليا من الأشجار والشمس نصب نارها علـى الأرض مباشرة. كل الأشجار قطعت في الشهر الماضـي. وبيعـت لتأجر أخشاب. وعندما ترحم الناس على مساحات الظل قال من باعوها. إنهم سيزرعون مكانها أشجارا سرعان ما تفرش مساحات جديدة من الظل. أكثر من المساحات الأولى. ظـل بكر، بدلاً من الظل الهرم العجوز، الذي كان موجودا من قبل ترحمت على أبيها، وأيامه الجميلة. التي لم تعد أبـدا، كـان يقول، إن زراعة الظل في الغيطان، أهم من زراعة القمـح والقطن والبرسيم.

الطريق طويل، وخلوه من الأشجار، يجعـل ضـوء الشمس يتراقص. والحرارة تبعد الأشياء وتقربهـا. وحبـات الحصى تبدو وكأنها قليت على صفيحة ساخنة. وتتقافز مـن شدة الحرارة. لا توجد مساحة تكفي لشبر من الظـل. ومـع ذلك هذا لا بد وأن تسير رحمة. ولا بد من الوصـول إلـى متولي.

كم يبدو ذلك الزمان الجميل بعيدا، تحسرت على أيام زمان. أيام الظل. كان الطريق يبدو أمامها. وكأنه مسقوفًا. مغطى بالخضرة والظلال كله. ورائحة الماء تبلل الحرارة. وكأن باطن الأرض يشع الدفء في الشتاء، كانت حافية، والأرض تطش النار في بطني قدميها. وتشعر رحمة بطشيش النار وكأنه يصل إلى دمها.

أدركت رحمة جفاف أيامها، لا يوجد معها سوى لُقَيمات لا تسند القلب المتعب، طعام جاف، من الصعب بلعه، خبز جاف، قطعة من الجبن القريش، وقطعة من الجبن القديم. حولها المش من كل جانب. وفي كل يوم، تقول: إنها ستحضر شيئًا أخضر من الحقول. يبل قلب ابنها. ولكن وجود الشيء الأخضر في الحقول لم يكن سهلاً.

قررت أن تكلم متولي. أن تقول له إنها غدا ستعطيه معه، في الصباح لقمة بسيطة، يأكلها وقت القيالة. لأنها لن تحضر إليه. ستكون مشغولة طوال النهار، تجهز المحمر والمشمر. الطعام الذي يعوم في نهر من الزبد، الأكل الذي يسند القلب فعلاً. كان الحرمان قد وصل إلى جدار القلب. وكانت رحمة المرأة التي كانت جميلة في شبابها. يطل



الحسن من ملامح وجهها. بدأت التجعيدات تهده، وإن كانت له إضاءة خافتة واهنة تكاد أن تخبو تحت دبيب الزمن وزحف السنوات البطيء.

أصبحت على مشارف الحقل. تبدو الأرض على حدود الشوف. كانت متعبة، وكان جسمها قد أصبح مجاري صغيرة. للعرق الذي تجمع في تجاويف الجسم. كانت قطرات العرق تدرك لها الإحساس بالبرودة، وكانت الملابس قد التصقت بالجسم في أكثر من مكان. جف ريقها، فكرت أن تشرب. ولكنها فضلت أن توفر المياه لمتولي. فهو يشربها لإرواء عطشه الحار. ويشربها لتسهل له بلع طعامه الجاف. الذي يجرح الزور من شدة جفافه. ويشربها لتكمل ملء معدته الخاوية والتي لا يملأها الطعام، دائما.

مفاصلها متعبة. واحتكاك العظام يولد ألما. وصوتًا يصلها واضحا، وقدرتها على تحريك أطرافها تقل. في الطريق. ولكي تقلل إحساسها بالمسافة. كانت تغمض عينيها وتسير قليلاً. ثم تفتحهما. وتحاول أن تكتشف إن كان الطريق الباقي قد أصبح أقل أم لا. وعندما تفتح عينيها. وقبل أن تدرك الباقي من الطريق كان يفاجئها ضوء قوي. يسقط على

عينيها من سماء الصيف الصافية، يسقط في خط مستقيم ويتراقص الحر في ثنايا الخطوط.

ها هو الحقل. وكلمة الحقل تقال تجاوزا، فكل ما لهما قطعة من الأرض مساحتها ستة قراريط. وقطعة أخرى مثلها. كل قطعة في حوض بعيدة عن الآخر. وعلى رأس حقل الجيران يربط الحمار والنعجة وهما كل ما يمتلكانه من البهائم.

شاهدت متولي. بدا مثل العود النحيل المغروز في الأرض. جذوره لا تأكل سوى الطين. في يده الفأس. وكان يعزق الأرض. يبدو أن الفأس هي التي تحرك جسمه الذي كان يتمايل في الجو الحار. وكانت هناك نسمة هواء واحدة. حارة وساكنة. وعندما تحركت ببطء. دفعت جسمه إلى الأمام. كان يرفع الفأس فترسم في الجو الساكن نصف دائرة. وهي تهبط نحو الأرض. كانت تندفع بقوة. ولكنها عندما ينغرس حديدها في الأرض الشراقي، كان يمضي وقت قبل أن يتمكن متولي من رفعها. كان يرفعها على مراحل. يمد يده. يمسح بها حبات العرق. يمر بإصبعه على جبهته، تاركًا حبات العرق تنزل على الأرض. فتتوه في جفاف الحصى.

اقتربت رحمة من متولي. جلبابه الممـزق ملتصـق بجسمه، خيل لها أنه خارج لتوه من الترعة القريبة. ولكنهـا تذكرت أن الأيام هي أيام التحـاريق. وأن الترعـة جافـة. والقنوات والمصارف والمساقي لا توجد فيها سوى الحيوانات الميتة، والنباتات التي ذبلت من الجفاف، فأدركت أنه العرق.

نظرت إلى ابنها. سرعان ما يكبر الأبناء مـن وراء الظهر. بدا متولي ضئيلاً والملابس ملتصقة بجسـمه. تـاه شكله. ذاب الولد. أكله الشقاء المبكر والجـري وراء لقمـة العيش، الذي كان عليه أن يقوم به قبل الأوان.

جلست على رأس حقل الجيران. لأن حقلهم الصغير لا رأس له. ونادت عليه. ثم تكلم أصحاب الحقول المجاورة. منذ سنوات وهي تعيش في عزلة لذيذة. محببة إلى نفسـها. حضر إليها، ترك الفأس، حديدها مغروس في الأرض ويدها الخشبية تشير إلى السماء فكأنها تطلب منها الرحمة.

المساحة التي عزقها متولي. تبدو صغيرة. وسوادها غامق. والمساحة الكبيرة التي لم يعزقها بعد. تبـدو بيضـاء اللون. جافة وصلبة ومتماسكة. مثل الأرض المبلطـة التـي تزين بيت العمدة من الداخل. مع فارق واحد. إن البلاط فـي

بيت العمدة يشع بالطراوة والرطوبة. والأرض فـي الحقـل جوفها مثل الفرن. إنها تطلب الماء منذ فترة. طال شوقها إليه ولم يبق في جوفها سوى اللهب.

حضر إليها، لم يتكلم، تسلل إليه جفاف مبكر. جعلـه قليل الكلمات. شحيح النطق. يعبر عن نفسه بالصمت، أكثـر مما يتكلم. وفي صمت قامت، أحضرت الجوال الفارغ الذي يوضع على ظهر الحمار بدلاً من البردعـة. فرشـته علـى الأرض. ووضعت فوقه الطعام الذي أحضرته. فردت الطعام بعناية وببطء فقد كانت مشغولة بالتفكير فيما سـتقوله الآن، لديها رغبة في الكلام. وإن كانت تشعر أنه ربما كـان مـن الأفضل لها أن تصمت عن الكلام. لأن ما لديها لكـي يقـال أكثير من قدرتها على القول. تزدحم الكلمات على الشـفتين. تحتار بأي الكلمات تبدأ. ولا تجد مفرا مـن الصـمت فـي النهاية. هذا ما كان يحدث من قبل. أما اليوم. فلا بـد مـن الكلام. إلى متى يظل هذا الابن غريبا عنها. إن الصمت يبدو مثل المتاهة. يبعدهما عن بعضهما. سـتكلمه عـن الأرض والزراعة. والمبلغ الذي ادخرته من أجل زواجه. وانتظارها لحين انتهائه من الجهادية. ستكلمه عن طعـام الغـد. الـذي

سيأكله وقت العصاري. سيعود مبكرا.. ويتنـاولان الطعـام الدسم معا. في الوقت الذي يقع بين الغذاء والعشاء.

مد يده. نحى الطعام جانبا، شرب قلة الميـاه كلهـا. سمعت صوت كركرة المياه. وشاهدت تفاحة آدم تعلو وتهبط في زوره. فذكرها بوالده فهبت سحابة ساخنة من الحزن على صدرها. وضع القلة الفارغة على الأرض. سندها بقطعة من الطوب الأحمر. مسح فمه بظاهر يده. لأن قطـرات المـاء كانت قد تجمعت حول شفتيه. لم يتكرع بصوت عال. بطنـه خال من الطعام. ولم يقل الحمد . لأنه لم يأكل بعد. قالـت في نفسها مياه على لحم بطنه. إن هذا يجلب المرض الذي لا شفاء منه.

ستتكلم هي الآن. ولكنها قبل أن تجمع أحرف الكلمة الأولى. على طرف لسانها. تنحنح الولد الصغير الذي أصبح رجلاً، قائلاً:

ـ خلاص.

عكّرت وجهها علامة استفهام تائهة:

ـ مسافر.

لم تفهم ما يقوله. بدا لها الصوت وكأنه يـأتي مـن بعيد. ليتها تعلمت الكثير من أمور الحياة حتى تفهم ما يفكـر فيه هذا الابن. ولكنها تريد أن تتعلم في وقـت لا يسـتطيع الإنسان أن يتعلم شيئًا فيه.

- تسافر؟!

قال وكأنه يكمل حديثه السابق:

- مصر.

أشارت للقراريط الستة، الحمار، النعجة. حاولت أن تقول له. وكل هذا من يرعاه؟ ويبدو أن السؤال وصله بدون كلمات.

قال لها:

- أجري الأرض، وبيعي الحمار والنعجة.

تساءلت من جديد:

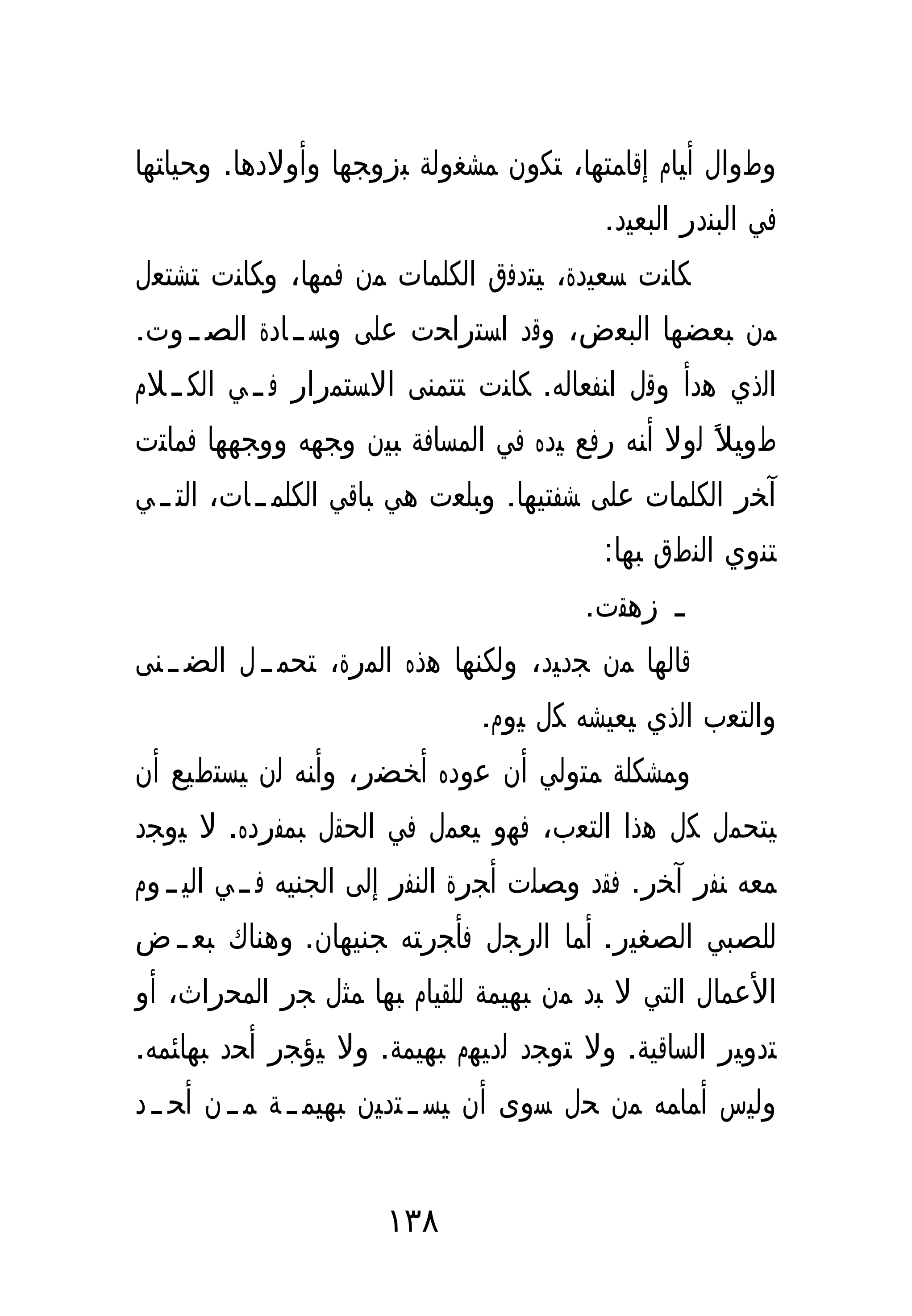
- أبيع؟

قال لنفسه.

- زهقت.

نطق الكلمة بمرارة، بدا لها أن حياته تحولـت إلـى لحظة من الألم. الذي لا يمكن احتماله أو وصفه.

فتحت فمها، ظل مفتوحا، ولكن الصوت لم يخرج منه. كانت تريد أن تقول ما لديها دفعة واحدة. أخوه الأكبر تزوج وانفصل مع زوجته وكونا أسرة تعيش بعيدا عنهم، أخوه الذي يليه. استشهد في الحرب الأخيرة. والولد الذي فوق رأس متولي مباشرة، في الجهادية الآن، وباقي أمامه عامان. والأخت الوحيدة، تزوجت ابن خالها. ولأن الحياة ضاقت عليهما هنا. أخذها وسافرا إلى البندر البعيد. وعاشا هناك. الأب مات مبكرا.. أتت بهم إلى الدنيا مثل الأرنبة. كل طفل في عام، جاءوا إلى الدنيا مثل الأرنبة، كل طفل في عام، جاءوا إلى الدنيا كل واحد فوق رأس الآخر. ولهذا فالود مفقود بينهم. لا يحبون بعضهم. مات الأب وهي في عز الشباب. فقررت أن يعيشوا كأسرة واحدة مدى الحياة، ولكن الأولاد ما إن كبروا حتى تسربوا من بين أيديها كالمياه في رمال الصحاري. الابن البكر. كانت تشعر أنه أخوها وليس ابنها، رفيق عمرها. تزوج ولم يطق الحياة معها. والثاني خطفه الجيش. والثالث بعيد عنها الآن. والابنة الوحيدة، ما إن تزوجت وأصبح لها بيت ورجل حتى أصبحت بعيدة. تحضر أحيانًا في الأعياد المتباعدة. ولكنها تبدو مثل الضيفة،



وطوال أيام إقامتها، تكون مشغولة بزوجها وأولادها. وحياتها في البندر البعيد.

كانت سعيدة، يتدفق الكلمات من فمها، وكانت تشتعل من بعضها البعض، وقد استراحت على وسـادة الصـوت. الذي هدأ وقل انفعاله. كانت تتمنى الاستمرار فـي الكـلام طويلاً لولا أنه رفع يده في المسافة بين وجهه ووجهها فماتت آخر الكلمات على شفتيها. وبلعت هي باقي الكلمـات، التـي تنوي النطق بها:

- زهقت.

قالها من جديد، ولكنها هذه المرة، تحمـل الضـنى والتعب الذي يعيشه كل يوم.

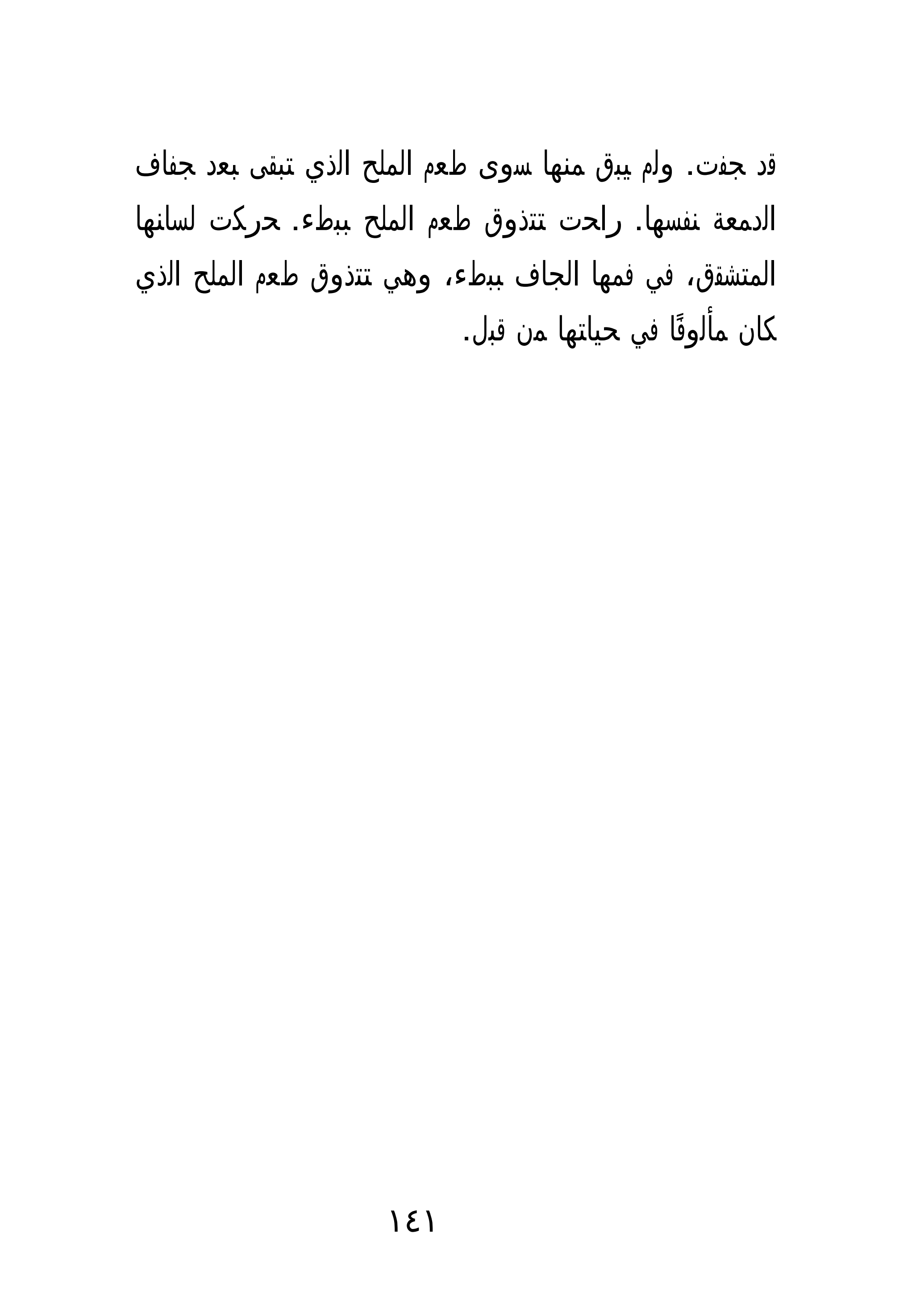
ومشكلة متولي أن عوده أخضر، وأنه لن يستطيع أن يتحمل كل هذا التعب، فهو يعمل في الحقل بمفرده. لا يوجد معه نفر آخر. فقد وصلت أجرة النفر إلى الجنيه فـي اليـوم للصبي الصغير. أما الرجل فأجرته جنيهان. وهناك بعـض الأعمال التي لا بد من بهيمة للقيام بها مثل جر المحراث، أو تدوير الساقية. ولا توجد لديهم بهيمة. ولا يؤجر أحد بهائمه. وليس أمامه من حل سوى أن يسـتدين بهيمـة مـن أحـد

الفلاحين. نظير أن يعمل هو عنده بعد ذلك. ويـوم البهيمـة بيومين من عمله. وهكذا لا تكفي إياه العمر كلـه، الأعمـال المطلوبة منه. إنه ينام في البيت وهو يعد ويحسب الأعمـال المطلوبة منه في الحقلين، والأيام التي مـن المفـروض أن يعملها عند الآخرين. وفوق كل هذا. فإن ما يعود إليهما مـن تعب العام كله لا يكفي أحدهما. إنهما يعيشان على الكفاف.

سيسافر إلى مصر. ليس من أجله وحده. ولكن مـن أجلها. وافقت على تأجير الأرض أو رهنها. وباعت الحمار والنعجة. وسافرت معه سيكون سعيدا، ورزقه ورزقها علـى ا . وإن فضلت البقاء هنا سيكون مسئولاً عنها، وسيحضـر لها مرتين في الشهر الواحد، قاطعته: قالت إن الولـد كبـر ويريد أن يخرج عن طوع أمه. أكد لها أنه لم يخـرج عـن طوعها. وأنها إما أن توافق على كلامه الآن. أو أن يخـرج من حياتها كلها. سيرمي نفسه في البحر القريب، أو يشـرب التوكسافين، وضعت يدها على فمـه، أسـكتته، شـعرت أن جزءا يموت فيها. جزءا آخر غير الجزء الذي مـات يـوم استشهد ابنها في الحرب الأخيرة. تحسست بأصـابع يـدها وجهه. زغب خفيف انتشر على جلد وجهه. نظـرت إليـه.

طالعتها حالة من التصميم تطل من عينيه. وقبل أن يستسلما للصمت قالت له. والكلمات تتناوب مع الدموع. إنها تطلـب منه ألا يسافر. كررت طلبها ثلاث مرات. رد عليها والدمعة التي تتجول في مآقيه ترفض النزول إنه سيسافر إلى مصر. إما أن يفعل هذا. أو يخسر عمره كله. وكـرر هـذا ثـلاث مرات. شعرا بالتعب من الكلمات. وأعطى كل منهما للآخـر ظهره، كانت فوقهما شجرة جرداء. عاريـة مـن الأوراق. فبدت أفرعها مع خلفية صفحة السماء الباهتة البيضاء، مثـل تصاوير الرعب.

وضعت رأسه بين يديه. كان متعبا، يريد أن يسـند رأسه لأي شيء، أما هي فقد ملست بيـدها علـى وجههـا. اكتشفت أن الوجه غاية من التجاعيد، وجاشت نفسها بالرغبة في البكاء من جديد. ولكن العين جف ما فيها. وبعـد قليـل جادت العين بدمعة واحدة مالحة الطعم فتاهت بـين خطـوط ووديان التجاعيد، كانت الدمعة في انحدارها ترطـب جلـد الوجه، وكانت تسير حسب الخطوط المتعرجـة. تمنـت ألا تجف الدمعة بسرعة. وأن تبقى فترة أطول، ترطب الوجـه المتعب. ولكن عندما وصلت الدمعة إلى شفتها العليا، كانـت



قد جفت. ولم يبق منها سوى طعم الملح الذي تبقى بعد جفاف الدمعة نفسها. راحت تتذوق طعم الملح ببطء. حركت لسانها المتشقق، في فمها الجاف ببطء، وهي تتذوق طعم الملح الذي كان مألوفًا في حياتها من قبل.

المؤتمر الصحفي الأخير للفاتنة مباركة

للغريب في القرية رائحة خاصة، شيء ما في مشيته وحركته ونظراته وملابسه يقول لك إنه غريب. فما بالك إن كان الغريب جماعة كبيرة من خلق ا ، ومن أصحاب الشعر الأصفر والعيون الزرقاء والجلد الذي يكاد أن يبك منه الدم. ينزلون من أتوبيس أزرق له رائحة حلوة. وزجـاج نوافـذه رمادي اللون. نزل الغرباء البلد يوم الخميس، وهـو اليـوم الذي يقام فيه السوق الأسبوعي للبلد. ويقال إن هناك أسـبابا جنسية تقف وراء اختيار الخميس يوما للسوق في هذا اليوم، يبيعون ويشترون ويأكلون ويشبعون، يمشون فوق أظـافرهم من كثرة الامتلاء، والعلاقة بين الشـبع والتخمـة والرغبـة الجنسية أمر ثابت لدى الفقراء، كان السـوق أول مـا رآه الغرباء انتبه الناس لهم.

ـ أجانب؟!

قالها واحد من أهالي البلد، الذين يتسكعون في السوق بلا هدف سوى الفرجة على البضائع والنساء. ولكن طالبا لم يكمل تعليمه، قال له:

ـ سواح.

اندس بينهما شخص ثالث، صحح الكلمة للطالب:

ـ سائحون.

كادت أن تقوم معركة عند مناقشة أي كلمتين هي الأصح. سواح أو سياح أو سائحون. وصول الغرباء إلى مكان السوق أسكت الكل. وتركت الأيادي البضائع. وتوقفت حالات الفصال والقسم بأغلاظ الأيمان وطلبات تأجيل الدفع أو تقسيط الأثمان وشكوى ضيق ذات اليد ونظافة الجيوب حتى من الملاليم القديمة الصدئة، وانتظار الفرج. والتأكيد على أن الشكك ممنوع والزعل مرفوع والرزق على ا مضمون.

أصبح الغرباء داخل السوق، وسطهم رجل أسمر اللون، بيده عصا قصيرة، مد يده التي بها العصا. أزاح بها الناس ليفسح مكانًا لمرور الغرباء، استغرب الناس من حال الأفندي الأسمر. يتحرك جسمه كأنه قد أصابته رعشة. يتكلم مع الناس العربية. ومع الغرباء يرطن باللسان الأجنبي.

أشار له الطالب الذي لم يكمل تعليمه:

ـ مصر مثلنا؟

أكمل الآخر بعد أن تبينوا أنه لن يرد عليهم أبدا:

- وإن كان بداخل فمه أكثر من لسان.

أشار الأفندي الأسمر للسوق والناس واستدار للغرباء، كلمهم بلغة لم يفهمها أحد. قال الطالب للناس:

- دليل سياحي.

عاد الرجل المتسكع إلى الظهور:

- بل ترجمان.

ارتفعت أيادي الغرباء وفيها آلات تصوير من أحجام مختلفة، ولأن التصوير له قدسية عند سكان البلد، كتموا أنفاسهم في صدورهم، ولم يعد يسمع سوى تكتكات آلات التصوير، لمعت أضواء التصوير فأصابت الناس رجفة.

قال سمسار السوق:

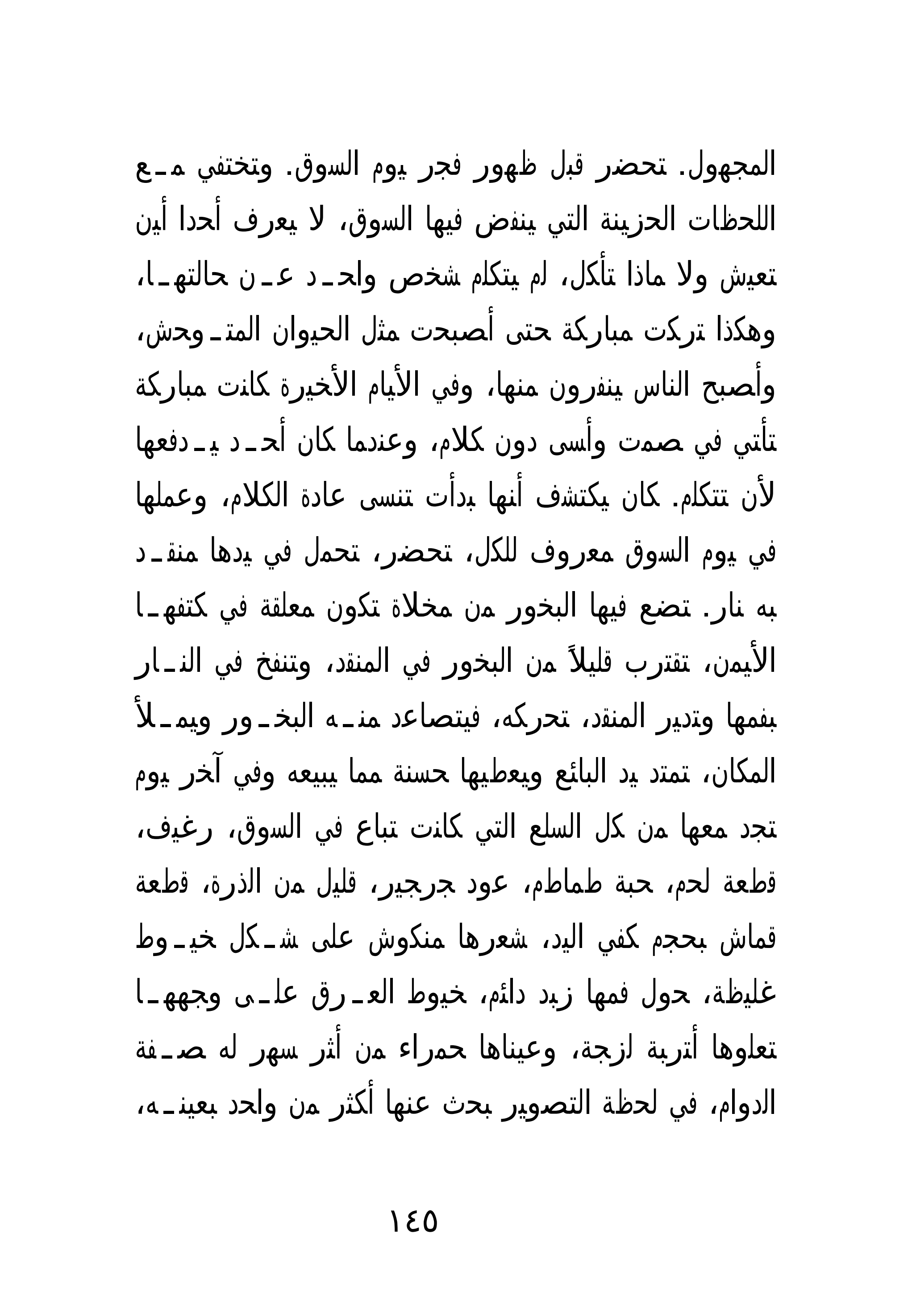
- أين مباركة؟

بحثوا بأعينهم عنها ولكنهم لم يجدوها.

أكمل السمسار:

- صورتها تصبح صورة تذكارية.

لكل قرية في ريف مصر مباركتها الخاصة بها، مخلوقة لا يعرف أحد أهلاً لها، ولا من أين أتت ولا متى، ذات يوم لا يذكره أحد نبتت من الغيب، وخرجت من رحم



المجهول. تحضر قبل ظهور فجر يوم السوق. وتختفي مـع اللحظات الحزينة التي ينفض فيها السوق، لا يعرف أحدا أين تعيش ولا ماذا تأكل، لم يتكلم شخص واحـد عـن حالتهـا، وهكذا تركت مباركة حتى أصبحت مثل الحيوان المتـوحش، وأصبح الناس ينفرون منها، وفي الأيام الأخيرة كانت مباركة تأتي في صمت وأسى دون كلام، وعندما كان أحـد يـدفعها لأن تتكلم. كان يكتشف أنها بدأت تنسى عادة الكلام، وعملها في يوم السوق معروف للكل، تحضر، تحمل في يدها منقـد به نار. تضع فيها البخور من مخلاة تكون معلقة في كتفهـا الأيمن، تقترب قليلاً من البخور في المنقد، وتنفخ في النـار بفمها وتدير المنقد، تحركه، فيتصاعد منـه البخـور ويمـلأ المكان، تمتد يد البائع ويعطيها حسنة مما يبيعه وفي آخر يوم تجد معها من كل السلع التي كانت تباع في السوق، رغيف، قطعة لحم، حبة طماطم، عود جرجير، قليل من الذرة، قطعة قماش بحجم كفي اليد، شعرها منكوش على شـكل خيـوط غليظة، حول فمها زبد دائم، خيوط العـرق علـى وجههـا تعلوها أتربة لزجة، وعيناها حمراء من أثر سهر له صـفة الدوام، في لحظة التصوير بحث عنها أكثر من واحد بعينـه،

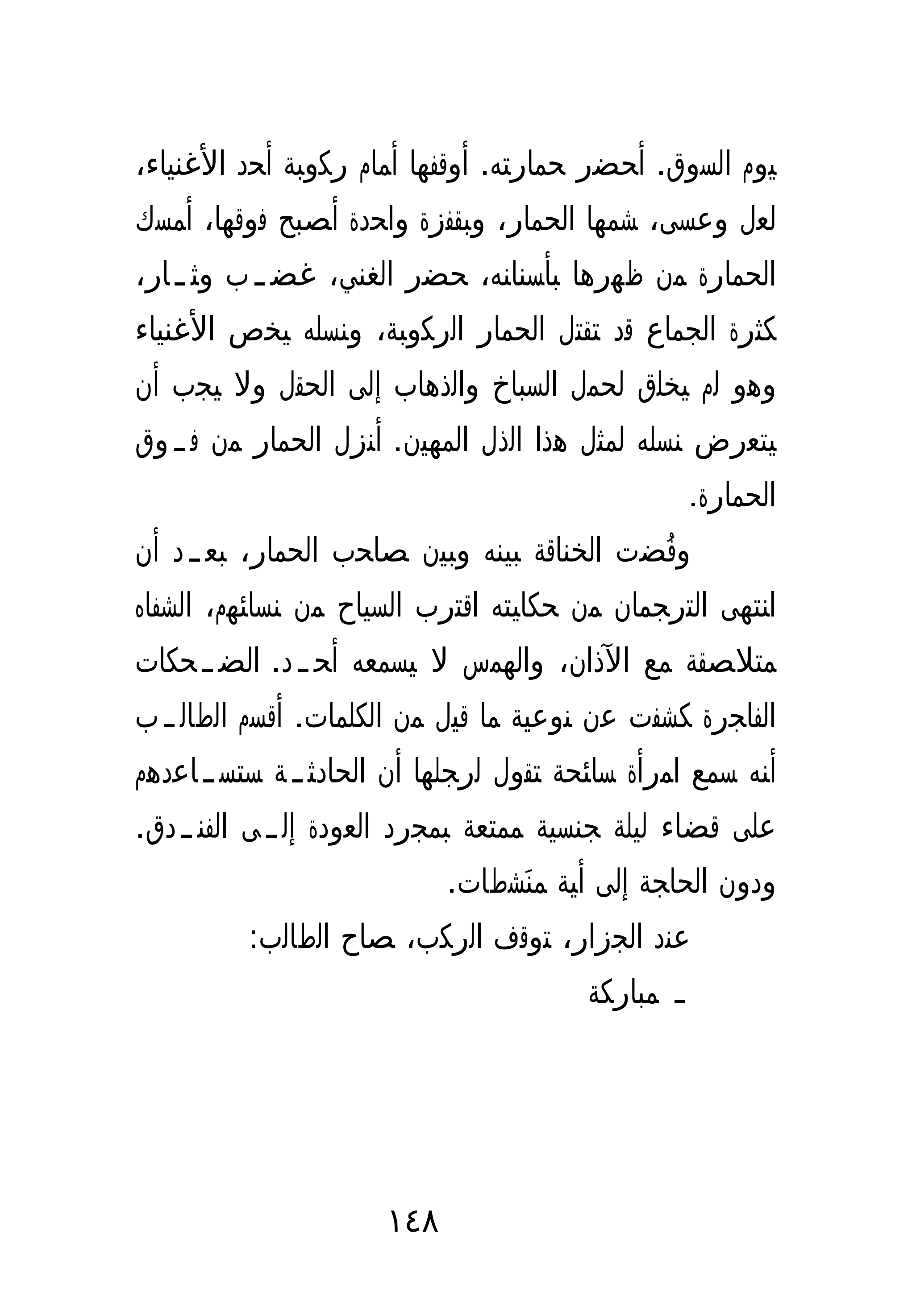
ولكن أحدا لم يجدها، بعد التصوير تبودلت كلمات بين الدليل والغرباء، هم يسألون وهو يجيب، الأسئلة مصحوبة بالدهشة وعدم التصديق المسبق وتقال بسرعة، الإجابـات ممطوطـة وطويلة. فسر الناس ذلك بأن الترجمـان يحاسـب السـياح بالكلمة، الكلمة الواحدة بسبعة قروش، ولهذا من صـالحه أن يمط حبل الكلمات، رد الطالب على الواقفين، قال إن الـدليل أو الترجمان لم يتعلم لغة السياح في المـدارس، ولا يحمـل شهادة، ولكنه عرفها أبا عن جد، والده يعمـل فـي منطقـة الأهرامات جمالاً أو حمارا، ولهذا فهو لا يعرف لغة السياح على أسس علمية سليمة، وهذا هو السبب في مطه الكلمات.

دخل الغرباء السوق. داست أقدامهم التي تبدو عارية للعيون وتظهر الأظافر الملونة واضحة من خـلال الأحذيـة المثقوبة التي يلبسونها. داست على أرض متسخة، اندست في روث البهائم، وأطارت كتل الذباب، نظروا بدهشة إلى أكوام البصل الأخضر، وأواني المش وتلال الغلال، وباعة الكحـل وزجاجات زيت الشعر الملونة. عند توقفهم أمـام أي بـائع كانوا يتساءلون وتشير أصابع أيديهم ذات الأظافر الطويلـة

والمغطاة بالشعر الأصفر والنمش الأحمر، ادعى الطالب أنه فهم ما يقولونه للترجمان:

ـ ما هذا؟

وأن الترجمان يشرح لهم الحال في السوق، هذا تاجر الأقمشة وهذه بائعة الجبن القريش، وهو نـوع مـن الجـبن يصنع محليا وبطريقة بدائية للغاية. أخرج بعـض السـياح الدفاتر والأقلام. أخذوا يسجلون ما يقوله الترجمان وهكذا مر المركب على السوق، في أوله يقف بائع الطعمية الطازجـة الساخنة، نظروا في الطاسة، أطلوا على الزيت الذي اسـود لونه من كثرة الاستعمال وشاهدوا من يشترون منه الأرغفـة الطرية البيضاء من العيش السوقي أو عـيش البنـادر، ولا يجدون ثمن الطعمية، يلفون عيش السوق الطري والأبـيض، بداخل عيشهم الجاف والأسمر ويأكلون، في جانب من السوق شاهدوا خناقة، بين رجل فقير رفيع الجسم دقيـق الملامـح، ورجل غني ضخم الجثة شرس الملامح. أنزل الرجل حماره من فوق حمارة الفقير، قص لهم الترجمان قصـة الخناقـة. الفقير لديه حمارة طلبت الذكر وأعلنت عن تلك الرغبة بأكثر من وسيلة، ولأن الفقير يتطلع دائما إلى ما بيد الغني، انتظر



يوم السوق. أحضر حمارته. أوقفها أمام ركوبة أحد الأغنياء، لعل وعسى، شمها الحمار، وبقفزة واحدة أصبح فوقها، أمسك الحمارة من ظهرها بأسنانه، حضر الغني، غضب وثار، كثرة الجماع قد تقتل الحمار الركوبة، ونسله يخص الأغنياء وهو لم يخلق لحمل السباخ والذهاب إلى الحقل ولا يجب أن يتعرض نسله لمثل هذا الذل المهين. أنزل الحمار من فوق الحمارة.

وفُضت الخناقة بينه وبين صاحب الحمار، بعد أن انتهى الترجمان من حكايته اقترب السياح من نسائهم، الشفاه متلاصقة مع الآذان، والهمس لا يسمعه أحد. الضحكات الفاجرة كشفت عن نوعية ما قيل من الكلمات. أقسم الطالب أنه سمع امرأة سائحة تقول لرجلها أن الحادثة ستساعدهم على قضاء ليلة جنسية ممتعة بمجرد العودة إلى الفندق. ودون الحاجة إلى أية منَشطات.

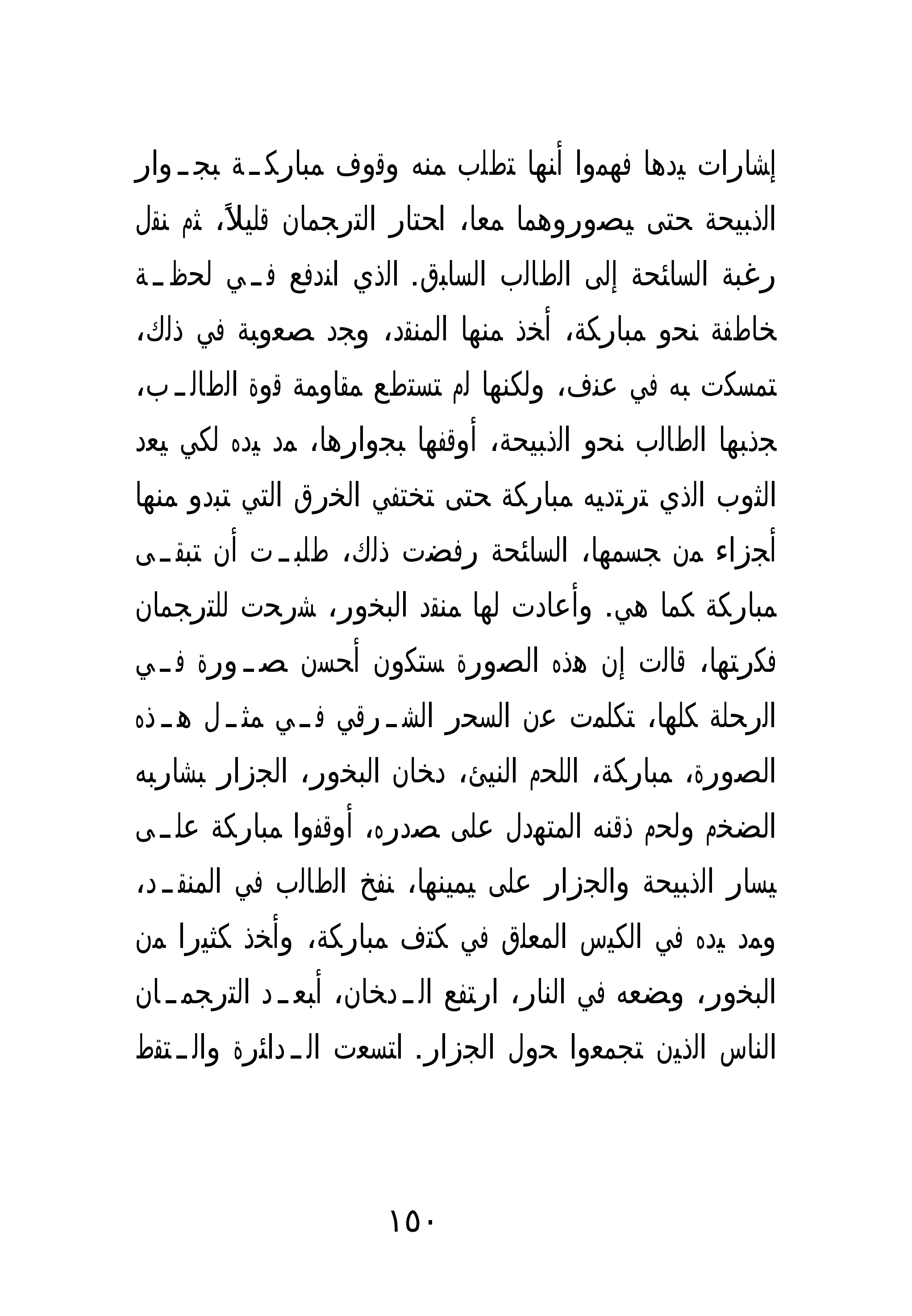
عند الجزار، توقف الركب، صاح الطالب:

ـ مباركة

أشار ناحيتها، كانت تجلس بجوار فضلات الذبيحـة. من البراز والدم والجلد والعظام، أشارت الأيدي لها فقامـت من جلستها، اقتربت من الغرباء:

- أهلا يا أسيادي.

منذ فترة طويلة. هذه أول مرة تنطق بها. كثيرا مـا حاولوا استنطاقها ولكنهم فشلوا، هذه المرة تكلمت من نفسها، ودارت بينهم. همس رجل لامرأة بكلمات لم يسـمعها أحـد. فانطلقت المرأة في ضحك خليع، لمعت في الجـو أضـواء آلات التصوير. التقطوا لمباركة عدة صور، أوقفها السمسار، يطلب منها النظر ناحية الغرباء، رسمت على وجهها ابتسامة بلهاء، نظرت كل عين من عينيها في اتجاه معاكس لاتجـاه العين الأخرى، فاكتشف في هذه اللحظة فقط أنهـا حـولاء، ومن حرارة الأنفاس وزحام الأجساد حولها واهتمام الكل بها، مدت يدها، تصوت أن أحدا وضع شيئًا في يـدها، قبضـت أصابعها، اكتشفت أن لا شيء في يدها سوى الفراغ، اتسعت الابتسامة البلهاء وهي تسمع أصوات غريبة لم تألفهـا مـن قبل، حاولت أن تفهم ما يقال. ولكنها فشلت في ذلك، تقدمت سائحة من الترجمان وكلمته، لم يفهم أحد بالطبع ما قالته، من



إشارات يدها فهموا أنها تطلب منه وقوف مباركة بجوار الذبيحة حتى يصوروهما معا، احتار الترجمان قليلاً، ثم نقل رغبة السائحة إلى الطالب السابق. الذي اندفع في لحظة خاطفة نحو مباركة، أخذ منها المنقد، وجد صعوبة في ذلك، تمسكت به في عنف، ولكنها لم تستطع مقاومة قوة الطالب، جذبها الطالب نحو الذبيحة، أوقفها بجوارها، مد يده لكي يعدل الثوب الذي ترتديه مباركة حتى تختفي الخرق التي تبدو منها أجزاء من جسمها، السائحة رفضت ذلك، طلبت أن تبقى مباركة كما هي. وأعادت لها منقد البخور، شرحت للترجمان فكرتها، قالت إن هذه الصورة ستكون أحسن صورة في الرحلة كلها، تكلمت عن السحر الشرقي في مثل هذه الصورة، مباركة، اللحم النيئ، دخان البخور، الجزار بشاربه الضخم ولحم ذقنه المتهدل على صدره، أوقفوا مباركة على يسار الذبيحة والجزار على يمينها، نفخ الطالب في المنقد، ومد يده في الكيس المعلق في كتف مباركة، وأخذ كثيرا من البخور، وضعه في النار، ارتفع الدخان، أبعد الترجمان الناس الذين تجمعوا حول الجزار. اتسعت الدائرة والتقط

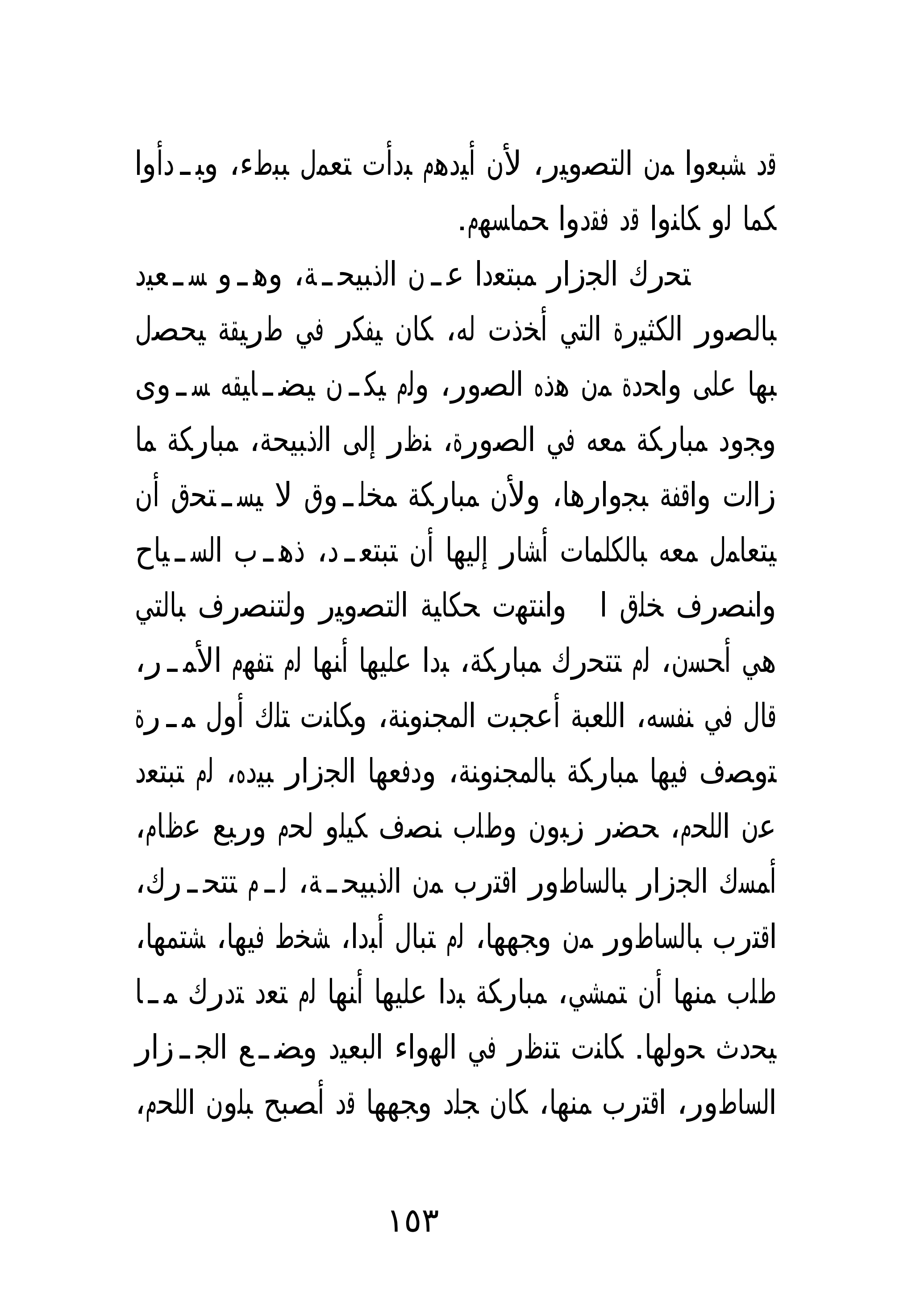
السياح الصور التذكاريـة للمشـهد الفريـد، قالـت إحـدى السائحات كلمة تصف بها مباركة.

أكد الطالب أنها قالت:

ـ الفاتنة المصرية مباركة.

طلبوا من مباركة أن تلتصق أكثر بـاللحم، ومـدوا أيديهم يقربونها من الذبيحة التي لم يكن قد بيع منهـا شـيء حتى هذه اللحظات، التصقت تجاعيد خد مباركة باللحم تماما، وصلتها رطوبة وأحست بملمس قطـرة دم تنسـاب خـلال تجاعيد الوجه، وعبق أنفها برائحة اللحم النيئ الذي لم تشمه أو تمسه يدها منذ سنوات، جرى ريقها، بلعته أكثر من مرة، تحركت مصارينها في بطنها، أحست بضـعف، ارتعشـت، اقتربت أكثر من اللحم وسمعت كلمات استحسان تطلب منـه الالتصاق باللحم أكثر، وغاص نصف وجهها في فخذ الذبيحة ورأت بالجزء المتبقي من العين اليمنى مسـاحات حمـراء وأخرى بيضاء من الذبيحة، حاولت أن تدرك الفـارق بـين المساحات البيضاء والحمراء، خيـل إليهـا أن المسـاحات الحمراء بها بقايا دم الذبيحة، ولكنها أدركت سخف تفكيرها، عندما تذكرت ما يقوله النـاس للجـزاء، أنهـم لا يحبـون

المساحات البيضاء لأنها سمينة، إذن فالبياض هو الـدهون. أنها نادرا ما تشم اللحم، أما أن تأكله فتلك مسألة أخرى، مـا تأخذه من جزاري البلد صدقة يوم السوق تبيعه لبعض الذين لا يقدرون على الذهاب إلى الجزار، وهم لا يشترون اللحـم منها بالأموال التي لا يعرفون شـكلها، وإنمـا بالمقايضـة، يعطونها ما يزيد عن حاجتهم مقابل قطع اللحم. وأثناء لمعان الأضواء في جو السوق، كانت مباركة تفكر، ربما أول مرة منذ سنوات تحاول استخدام ذهنها فيها، وكان تفكيرها يـدور حول أمر واحد، ما هي آخر مرة أكلت فيها اللحم، إنها تأخذه من بيوت المقتدرين مطبوخًا جاهزا، ولا تعرف كيـف يـتم طهوه وتحويله إلى هذه الصورة، لف السياح في الدائرة التي تحيط بمباركة والذبيحة والجزار، صوروا المشهد الصـامت من الجوانب الأربعة، ومن أسفل ومن أعلـى، تفننـوا فـي البحث عن الزوايا المثيرة، وصلت سعادتهم إلى ذروتها وهم يجدون زوايا عظيمة لالتقاط هذا العدد الضخم من الصـور، اقتربت واحدة منهم من مباركة لدرجة أن آلة التصوير كادت أن تدخل في عيني مباركة وهي تصورها، ويبدو أن السياح



قد شبعوا من التصوير، لأن أيدهم بدأت تعمل ببطء، وبـدأوا كما لو كانوا قد فقدوا حماسهم.

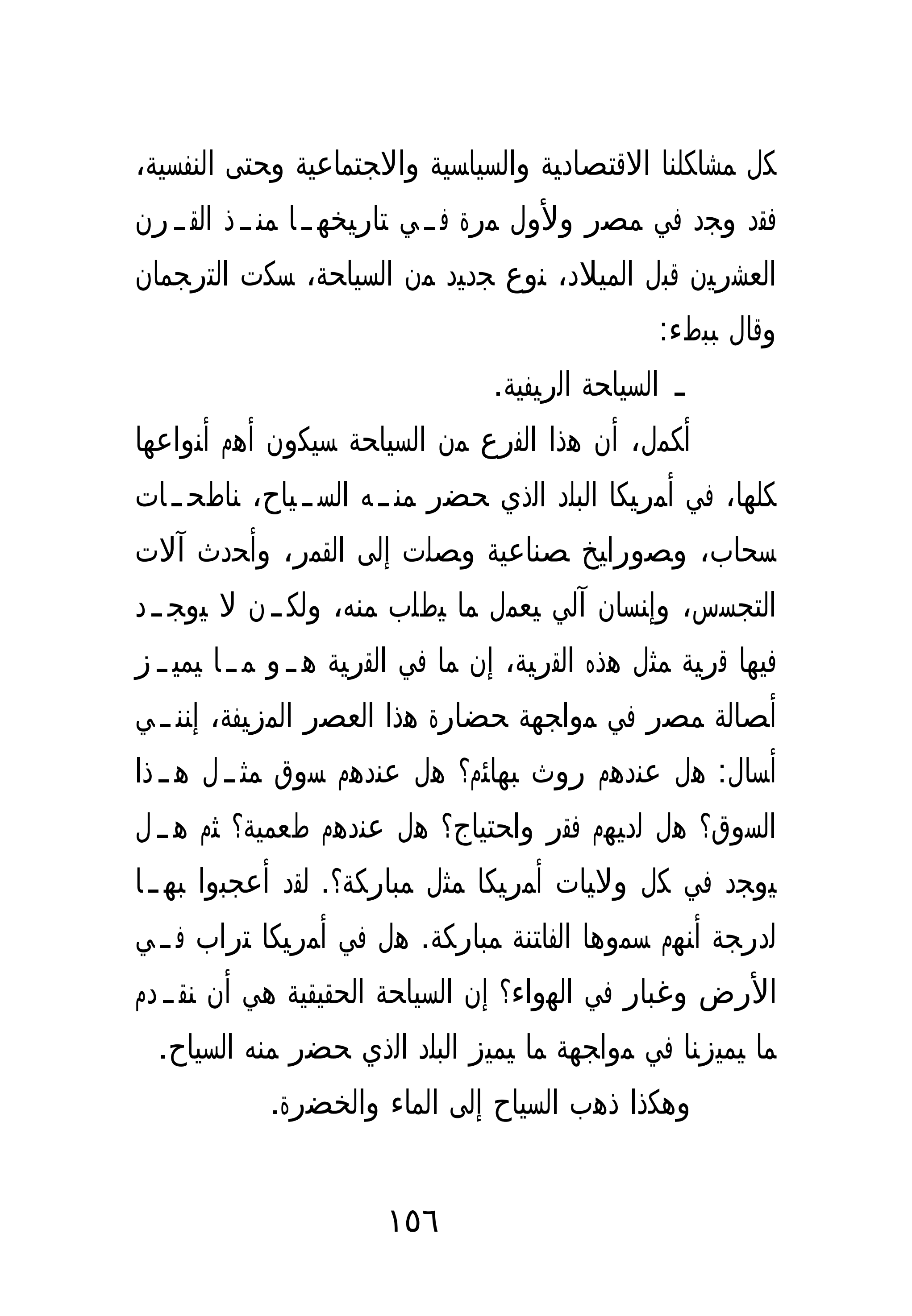
تحرك الجزار مبتعدا عـن الذبيحـة، وهـو سـعيد بالصور الكثيرة التي أخذت له، كان يفكر في طريقة يحصل بها على واحدة من هذه الصور، ولم يكـن يضـايقه سـوى وجود مباركة معه في الصورة، نظر إلى الذبيحة، مباركة ما زالت واقفة بجوارها، ولأن مباركة مخلـوق لا يسـتحق أن يتعامل معه بالكلمات أشار إليها أن تبتعـد، ذهـب السـياح وانصرف خلق ا وانتهت حكاية التصوير ولتنصرف بالتي هي أحسن، لم تتحرك مباركة، بدا عليها أنها لم تفهم الأمـر، قال في نفسه، اللعبة أعجبت المجنونة، وكانت تلك أول مـرة توصف فيها مباركة بالمجنونة، ودفعها الجزار بيده، لم تبتعد عن اللحم، حضر زبون وطلب نصف كيلو لحم وربع عظام، أمسك الجزار بالساطور اقترب من الذبيحـة، لـم تتحـرك، اقترب بالساطور من وجهها، لم تبال أبدا، شخط فيها، شتمها، طلب منها أن تمشي، مباركة بدا عليها أنها لم تعد تدرك مـا يحدث حولها. كانت تنظر في الهواء البعيد وضـع الجـزار الساطور، اقترب منها، كان جلد وجهها قد أصبح بلون اللحم،

وبدا كأنه جزء منه، أفهمها أن ذلك خطأ، وأنها تقطع رزقـه بهذه الوقفة، وأن زبائن هذه الأيام قلـة ويطلبـون كميـات بسيطة، مما يضطره آخر اليوم إلى البيع بأسـعار رخيصـة وأحيانًا شكك، وأنه لم يبخل عليها من قبل، وهو يحبها كابنته تماما، ويعطف عليها، مباركة بدلاً مـن أن تسـمع كلامـه، أدخلت وجهها في اللحم أكثر، وصل اللحـم إلـى أسـنانها، غرزتها فيه، تذوقت طعم اللحم النيئ الممزوج بالدم، يبدو أن الطعم أعجبها، فقد أخذت تأكل من اللحم، الأمر الـذي دفـع الزبون إلى المشي، ورفض أن يأخذ اللحم بعد أن شاهد مـا فعلته مباركة، تركه الزبون وانصرف، حكى ما شاهده لكـل من قابله، تجمع الخلق من جديد، هاج الجزار، هجم عليهـا، حاول أن يبعدها عن الذبيحة بالقوة، فشل في ذلك، يقول من شاهد الحكاية أن مباركة بدت وكأنها أصبحت جـزءا مـن الذبيحة، تدخل الآخرون، لم يفلح أحد في فصلها عن الذبيحة، وعندما رفع الجزار يده بالساطور محاولاً أن يفصـل بـين مباركة وبين الذبيحة بالقوة نبهه الناس إلى خطورة ما يفعلـه قد تصاب مباركة أو تموت، وهي وإن كانت مقطوعة مـن شجرة، إلا أنها إنسان وهذا يسبب له مشاكل أكبر منه، ربما

يصل الأمر إلى البوليس، تراجع الجزار وبانت الحيرة على وجهه، كلمة من أحد الواقفين أنقذت الموقف.

ـ بلّغ العمدة.

شاهد السياح الحمار والحمارة حتى شبعوا من المشاهدة، اقترح عليهم الترجمان أن يذهبوا إلى أحد الحقول لمشاهدة الماء والخضرة، وحيث أصحاب وجوه حسنة، تكون قد اكتملت سعادة الدنيا كلها، اتجهوا إلى أقرب الحقول، ذهب معهم السمسار، قال الناس لا بد وأن وراءهم فائدة ما، في الطريق، اقترب السمسار من الترجمان، قال له: أنت تحب التعارف. من الذين معك؟ ولماذا حضروا إلى قريتنا؟ وما هو الهدف من زيارتهم؟ قال له الترجمان، إنه مندوب شركة كنوز مصر وهي شركة سياحية أمريكية مصرية مشتركة هدفها الكشف عن كنوز مصر المخبأة والتي لا نعرفها نحن أبناء مصر، والشركة تقدم هذه الخدمة لمصر لوجه ا تعالى وبدون مقابل، وبغير هدف في الربح، وهي إحدى شركات الانفتاح الاقتصادي، ومعه مجموعة من السياح الأمريكان حضروا كتعبير عن المحبة والتعاون بين الشعبين وحيث إن مصر بلد مفتوح ويجب تشجيع الحركة السياحية، التي ستحل



كل مشاكلنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وحتى النفسية، فقد وجد في مصر ولأول مرة فـي تاريخهـا منـذ القـرن العشرين قبل الميلاد، نوع جديد من السياحة، سكت الترجمان وقال ببطء:

ـ السياحة الريفية.

أكمل، أن هذا الفرع من السياحة سيكون أهم أنواعها كلها، في أمريكا البلد الذي حضر منـه السـياح، ناطحـات سحاب، وصواريخ صناعية وصلت إلى القمر، وأحدث آلات التجسس، وإنسان آلي يعمل ما يطلب منه، ولكـن لا يوجـد فيها قرية مثل هذه القرية، إن ما في القرية هـو مـا يميـز أصالة مصر في مواجهة حضارة هذا العصر المزيفة، إننـي أسال: هل عندهم روث بهائم؟ هل عندهم سوق مثـل هـذا السوق؟ هل لديهم فقر واحتياج؟ هل عندهم طعمية؟ ثم هـل يوجد في كل ولايات أمريكا مثل مباركة؟. لقد أعجبوا بهـا لدرجة أنهم سموها الفاتنة مباركة. هل في أمريكا تراب فـي الأرض وغبار في الهواء؟ إن السياحة الحقيقية هي أن نقـدم ما يميزنا في مواجهة ما يميز البلد الذي حضر منه السياح.

وهكذا ذهب السياح إلى الماء والخضرة.

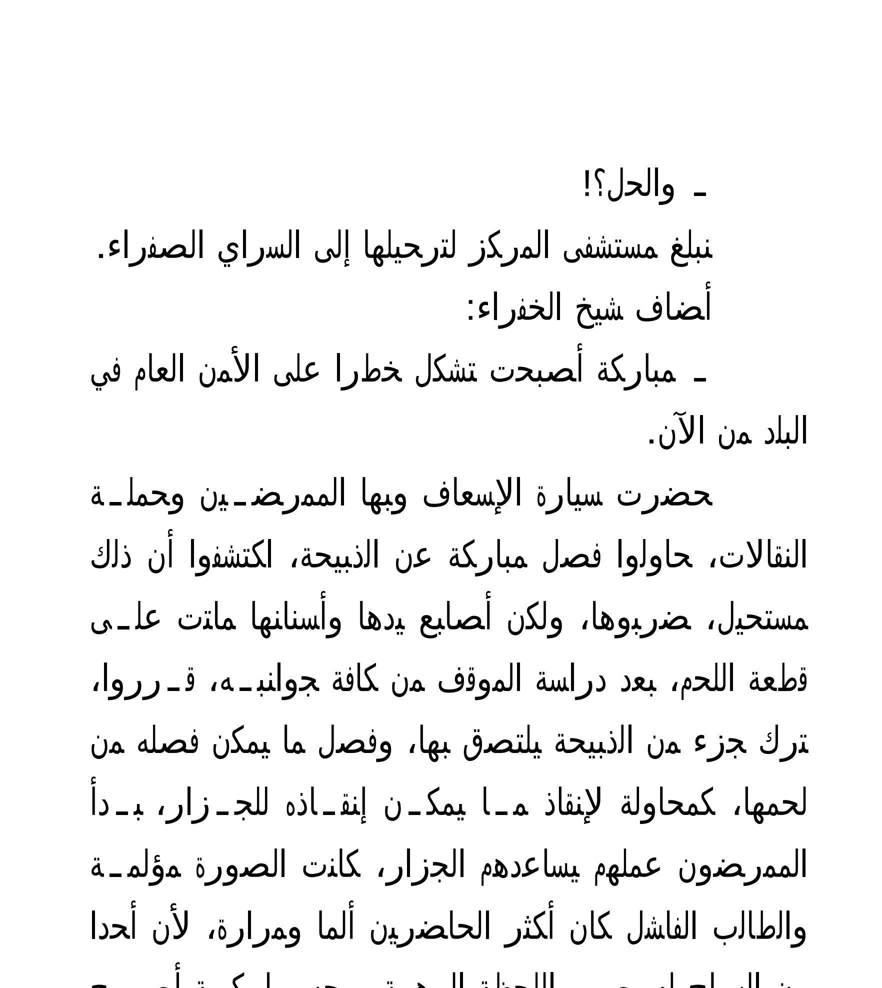
وفي البلد توجه الجزار إلى العمدة، الذي وجد نفسـه في مواجهة مشكلة من نوع جديد، ولم تحدث من قبل، أرسل أحد الخفراء ليحاول فصل مباركة عن الذبيحة، بعد محاولات ومداولات ومباحثات ومشاورات رجع الخفير إليـه يخبـره بفشله، نفس الشيء حدث عندما أرسل العمدة شيخ الخفـراء وشيخ البلد ونائبه، انتهى وقـت السـوق وبـارتْ الذبيحـة والخسارة أصبحت مؤكدة بالنسبة للجزار، لم يجد العمدة بـدا من الانتقال بنفسه إلى مكان الذبيحة، وهناك حـاول الكـلام مرة والتهديد مرة أخرى بالضرب، والتلويح بالسكين والعصا والنار والطرد من القرية. أشار ناحية السماء، مؤكدا لها أن عقاب ا لن يتركها أبدا، عرق العمـدة وانتفخـت عـروق رقبته، الهواء ساخن ملتهب، تلك أول مشكلة يفشل في حلها، وعلى مرأى ومسمع من أهل البلد كلهم، والغريب أن المشكلة تبدو لا حل لها أبدا.

فجأة قال الطالب الفاشل:

ـ مباركة، أصابها مس.

أكمل تومرجي المجموعة الصحية

ـ تبدو على وجهها علامات الجنون كلها.



ـ والحل؟!

نبلغ مستشفى المركز لترحيلها إلى السراي الصفراء.

أضاف شيخ الخفراء:

ـ مباركة أصبحت تشكل خطرا على الأمن العام في البلد من الآن.

حضرت سيارة الإسعاف وبها الممرضين وحملة النقالات، حاولوا فصل مباركة عن الذبيحة، اكتشفوا أن ذلك مستحيل، ضربوها، ولكن أصابع يدها وأسنانها ماتت على قطعة اللحم، بعد دراسة الموقف من كافة جوانبه، قرروا، ترك جزء من الذبيحة يلتصق بها، وفصل ما يمكن فصله من لحمها، كمحاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه للجزار، بدأ الممرضون عملهم يساعدهم الجزار، كانت الصورة مؤلمة والطالب الفاشل كان أكثر الحاضرين ألما ومرارة، لأن أحدا من السياح لم يصور اللحظة الرهيبة، وجه مباركة أصبح جزءا من بقايا الذبيحة، تجري عليه خيوط الدم التي اختلطت بدموعها ومخاطها، كان من الصعب التفرقة بين الوجه ولحم الذبيحة، أحضروا الكتاف، قالوا لها: إنهم أحضروا جلبابا من أجلها، تَم تفصيله على قد جسمها، ورغم عدم التصديق الذي

بان على وجهها، إلا أنها فرحت، اقتربت من الكتاف، وهـو القميص الذي يلبسه المجاذيب وعندما لبسته، هاجت، وثارت. الأيدي حاصرتها من كل ناحية، قبل أن يتحركوا بها، ثـار الجزار، من يعوضه عن اللحم الذي أخذته معها؟ احتار الكل، لا أحد لها حتى يدفع، والعمدة لا دخل له، ومستشفى المركز الذي ستذهب إليه الآن مجرد موصل إلى مستشفى المجاذيب الرئيسي في مصر، فكر العمدة وقال:

ـ خذ من السياح الأمريكان، هم السبب.

استطرد أحد الواقفين:

ـ سيدفعون لك بالمال الصعب، عملة أيامنا.

تناقشوا كثيرا حول عملة الأمريكان، اختلفوا، وانتهى النقاش بعودة السياح من مساحات الماء والخضرة، بـالقرب من السوق، كانت الفاتنة مباركة تجلس على دكة من الخشب مربوطة بالحبال الغليظة ويبدو القميص ينز منه الدم، علـى شكل قطرات حمراء، يقف على يمينها خفير يعلـق بندقيـة على كتفه، وعلى يسارها خفير يعلق بندقيـة علـى كتفـه، أمامها، وعلى بعد ثلاثة أمتار، يجلـس الأطفـال والصـبية والشيوخ، وحولهم طابور من الخفراء يمنعونهم من الاقتراب

من مباركة. أكثر من اللازم، بين الحين والآخر كانوا يعاكسون مباركة، يقولون لها: مع السلامة، نراك بخير، صبرت ونلت، البعض منهم حسدها على السيارة التي ستركبها، سيارة خاصة تنقلها إلى مستشفى المركز. وسيارة خاصة أخرى من مستشفى المركز إلى السراي الصفراء في مصر، أحيانًا كان يقذفها الأطفال الذين يجلسون في الخلف بقطع من الطوب، وبمجرد أن تصطدم بها الطوبة كانت تنتفض، تصحو من غفوتها، تفيق، يختلج الوجه ويخرج حول الفم زبد جديد، وبعد الزبد الأبيض تخرج من بئر الفم أصوات غير مفهومة، اقترب السياح من المشهد، لم يعرفوا الجالسة التي ينز منها الدم، أشاروا لها وسألوا الترجمان:

ـ القديسة مباركة.

سألوا عن الخفراء والسلاح:

ـ حرس الشرف.

والحاضرون من الناس:

ـ أصحاب الحاجات والمرضى.

وطبيعة الجلسة:

ـ تأملات آخر الزمان، فيما جرى للبلاد.

تكلم أكبر أعضاء وفد السياح، وترجم الدليل كلامه:

ـ القديسة مباركة تعقد مؤتمرا صحفيا تتكلم فيه عن أحوال البلاد.

غطت وجوه السياح طبقة من الاهتمـام والدهشـة. خرجت آلات التصوير والدفاتر والأقلام. وبصوت عال أعلن الترجمان للحاضرين أن القديسة مباركة رفع عنها الحجاب. وأنها ترى الغيب وتعرف ما قد يحدث بعـد آلاف السـنين، وهي الآن في حالة تأمل. تعيش تأملات آخر الزمان. ومـن حق الحاضرين أن يوجهوا إليها ما شاءوا من الأسـئلة وأن يلقوا بين يديها بهمومهم وآلامهم ومتاعبهم. وسترد القديسـة مباركة على كل سؤال يوجه إليها.

س: ـ هل نعيش حقًا في آخر الزمان؟

ج: ـ..................

س: ـ أعطاني الإصلاح الزراعي أرضـا. وبعـد عشرين سنة أخذها مني نفس الإصلاح الزراعـي ليعطيهـا للإقطاعي، صاحبها القديم وتركني بدون أرض وبدون حياة.. ماذا أفعل؟

ج: ـ..................

س: ـ ذهب ابني للحـرب التـي سـموها حـرب التحرير، ورغم احتفالات النصر، لا أعرف حتى مكانه. إلى الآن وكلما سألت عنه فكانوا يجيبونني بثلاث كلمات:

ـ جاري البحث عنه ـ

س: ـ وإلى متى يستمر البحث عنه؟

ج: ـ..................

س: ـ كل أهالي البلد مقـدمون للمحاكمـة بتهمـة مخالفة الدورة الزراعية والغريب أنهم بدلاً من مناقشة الأمر معنا أسرعوا بعمل إجراءات للمحاكمة.

ج: ـ..................

س: ـ مات زوجي وهو يقـوم بتجريـف الأرض الزراعية ليصنع منها الطوب. وبدلاً مـن تقـديم المسـاعدة إلي.. وجدت قضية مرفوعـة ضـدي. التجريـف جريمـة عقوبتها الحبس ولأنني وريثته رفُعت القضية.

ج: ـ..................

س: ـ نسمع كثيرا عن قرى دخلهـا النـور وبهـا حنفيات المياه للشرب. وجمعيات تعاونية لبيع السلع التموينية. وبعض القرى يقولون إن بها مدارس وأطباء وأنه يربطهـا

بالدنيا طرق مرصوفة. ولكن قريتنا لا شـيء فيهـا سـوى المدرسة ومستشفى لم يحضر لها طبيب منـذ زمـان بعيـد ومضى.

ج: ـ ....

س: ـ أحلم بالليل أني أباع في المزاد العلني.. وأن المزاد لم يرس على أحد..

ج: ـ ....

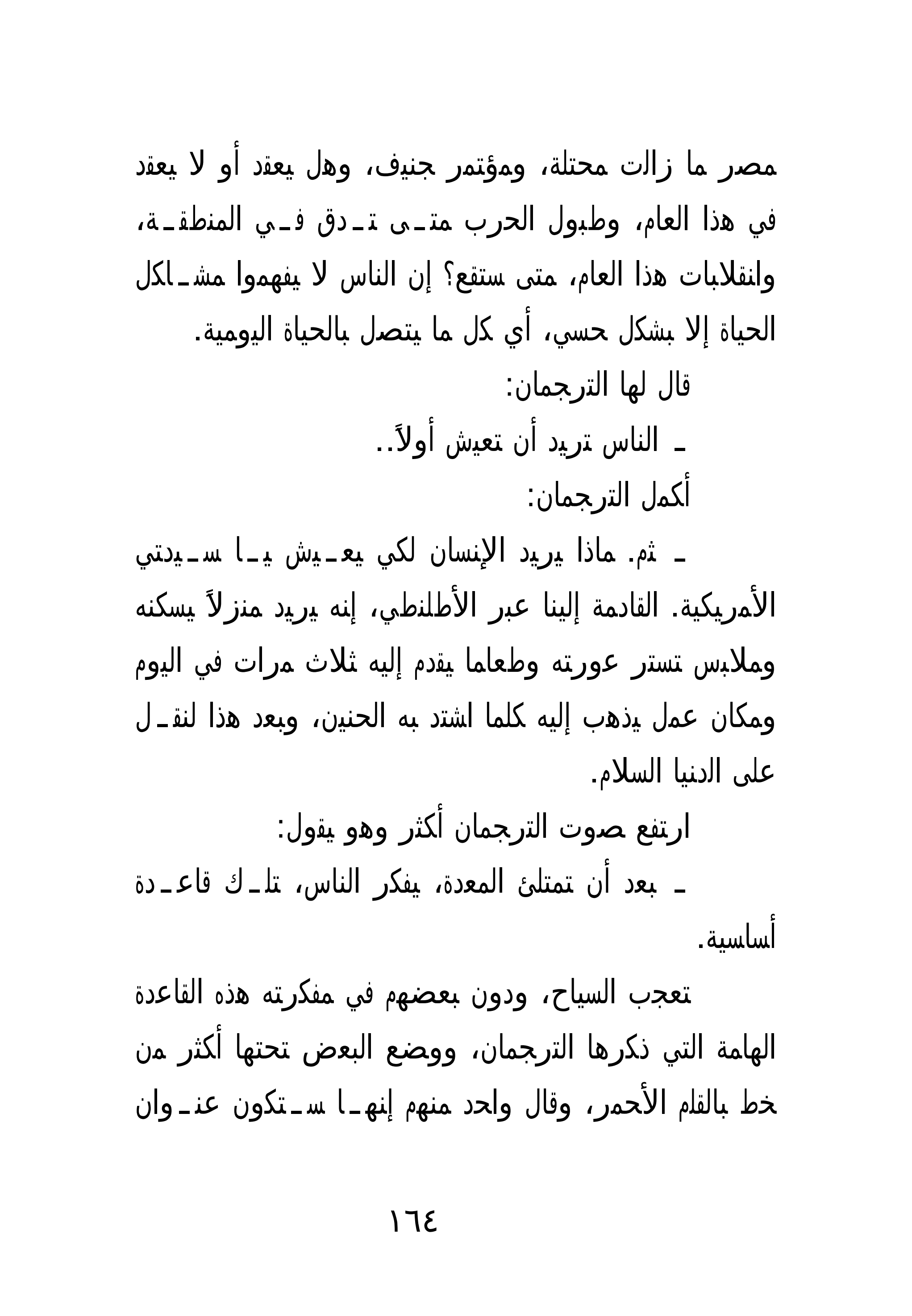
س: ـ شاهدت أمي في الحلم وهي تضاجع رجـلاً غريبا، كانت سعيدة به تلهث تحته، وعنـدما اقتربـت منـه محاولة منعه، ضربني..

ج: ـ ....

س: ـ هل هناك أمل في شيء؟

ج: ـ ....

سكت الحاضرون، مرت فترة لم يرفع فيها أحد يـده يطلب حق السؤال، تأكد السياح من أن أحدا لن يسأل، نظرت السائحة إلى الترجمان، كانت مندهشة، لأن أحدا لم يسأل عن الأحوال المصيرية، لم يتكلموا عن عودة الأحزاب السياسية، وهل يرضى جيش مصر عن الصراعات الحزبيـة وأرض



مصر ما زالت محتلة، ومؤتمر جنيف، وهل يعقد أو لا يعقد في هذا العام، وطبول الحرب متـى تـدق فـي المنطقـة، وانقلابات هذا العام، متى ستقع؟ إن الناس لا يفهموا مشـاكل الحياة إلا بشكل حسي، أي كل ما يتصل بالحياة اليومية.

قال لها الترجمان:

ـ الناس تريد أن تعيش أولاً..

أكمل الترجمان:

ـ ثم. ماذا يريد الإنسان لكي يعـيش يـا سـيدتي الأمريكية. القادمة إلينا عبر الأطلنطي، إنه يريد منزلاً يسكنه وملابس تستر عورته وطعاما يقدم إليه ثلاث مرات في اليوم ومكان عمل يذهب إليه كلما اشتد به الحنين، وبعد هذا لنقـل على الدنيا السلام.

ارتفع صوت الترجمان أكثر وهو يقول:

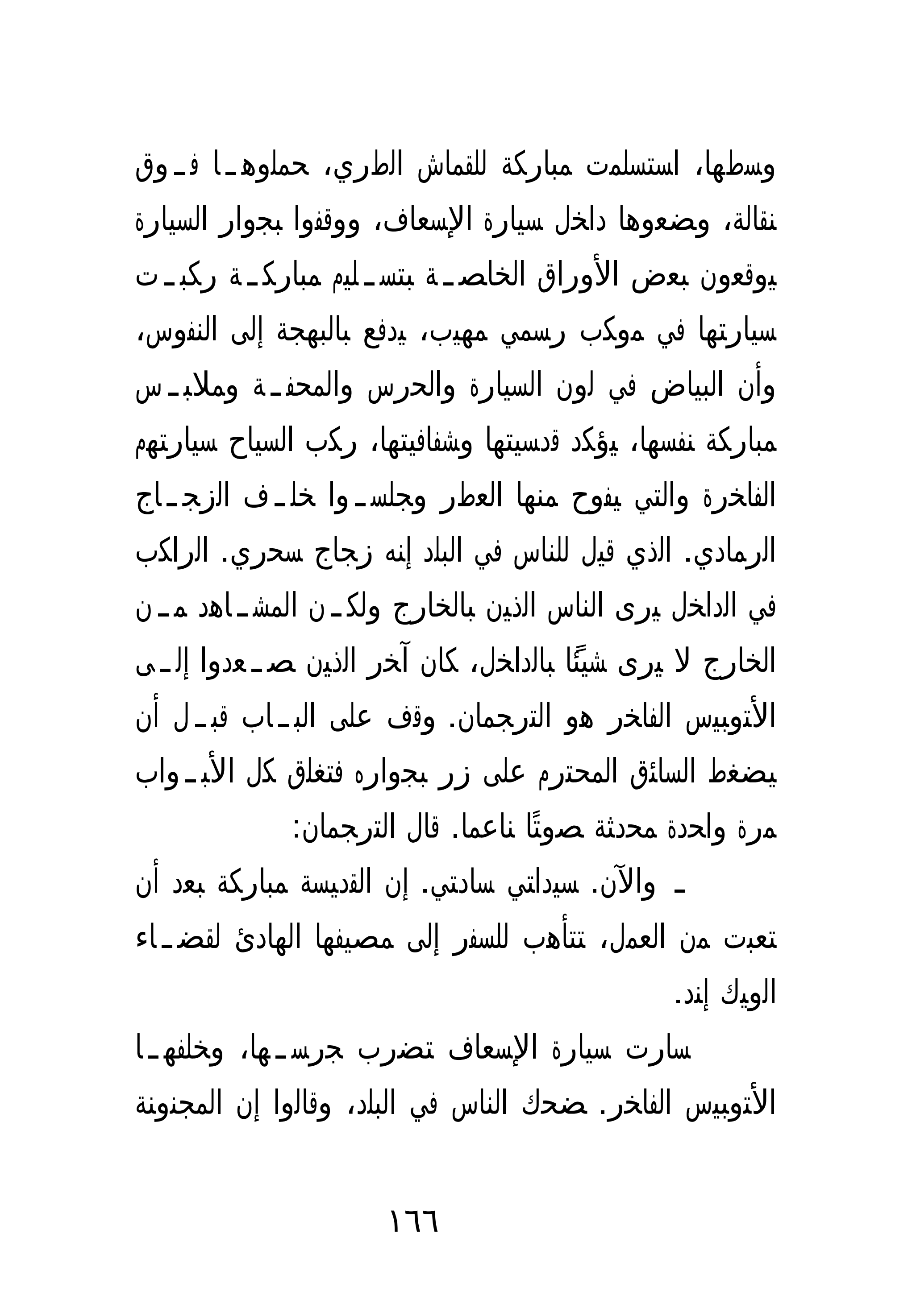
ـ بعد أن تمتلئ المعدة، يفكر الناس، تلـك قاعـدة أساسية.

تعجب السياح، ودون بعضهم في مفكرته هذه القاعدة الهامة التي ذكرها الترجمان، ووضع البعض تحتها أكثر من خط بالقلم الأحمر، وقال واحد منهم إنهـا سـتكون عنـوان

تقريره الذي سيرفعه إلى الجهات المعنية عن رحلتـه إلـى مصر أم الدنيا، وبلد العجائب.

تساءل السياح عن مصير القديسة مباركة، قيل لهـم إنها على سفر ذاهبة إلى مصر، قال السـياح: إذن تركـب معنا. تعجب الناس من تواضع السياح، خاصـة الأمريكـان منهم، تقدم شيخ الخفر من الترجمان أفهمه أن هناك سـيارة خاصة ستركبها مباركة، ولا بد من ذهابها بها إلى المركـز أولاً، وبمجرد الانتهاء من بعض الأوراق المطلوبة في مثـل هذه الحالات ستتحرك مباركة فورا، قال السياح إذن سننتظر حتى نمشي معها إلى المركز على شـكل موكـب رسـمي، سيارة القديسة مباركة أولاً، ثم سيارتنا بعدها. وقد ننتظرهـا في المركز لكي تسافر معنا إلى مصر أم الدنيا. قال السمسار دون أن يدري قد تسافر معكم إلى أمريكا، كتحفة مصرية.

وفي آخر ذلك اليوم العجيب، والذي لن تنساه البلـدة بعد ذلك أبدا وستظل لأيام طويلة قادمة تتذكره وتعيد خلقـه وتحكيه وترويه وتتكلم عنه. وقفت سيارة الإسعاف البيضـاء في السوق الحالي، وألبسها الممرضون ملابس بيضاء جديدة غير تلك التي تلوثت بالدم. بعد أن فكوا الحبال مـن حـول



وسطها، استسلمت مباركة للقماش الطري، حملوهـا فـوق نقالة، وضعوها داخل سيارة الإسعاف، ووقفوا بجوار السيارة يوقعون بعض الأوراق الخاصـة بتسـليم مباركـة ركبـت سيارتها في موكب رسمي مهيب، يدفع بالبهجة إلى النفوس، وأن البياض في لون السيارة والحرس والمحفـة وملابـس مباركة نفسها، يؤكد قدسيتها وشفافيتها، ركب السياح سيارتهم الفاخرة والتي يفوح منها العطر وجلسـوا خلـف الزجـاج الرمادي. الذي قيل للناس في البلد إنه زجاج سحري. الراكب في الداخل يرى الناس الذين بالخارج ولكـن المشـاهد مـن الخارج لا يرى شيئًا بالداخل، كان آخر الذين صـعدوا إلـى الأتوبيس الفاخر هو الترجمان. وقف على البـاب قبـل أن يضغط السائق المحترم على زر بجواره فتغلق كل الأبـواب مرة واحدة محدثة صوتًا ناعما. قال الترجمان:

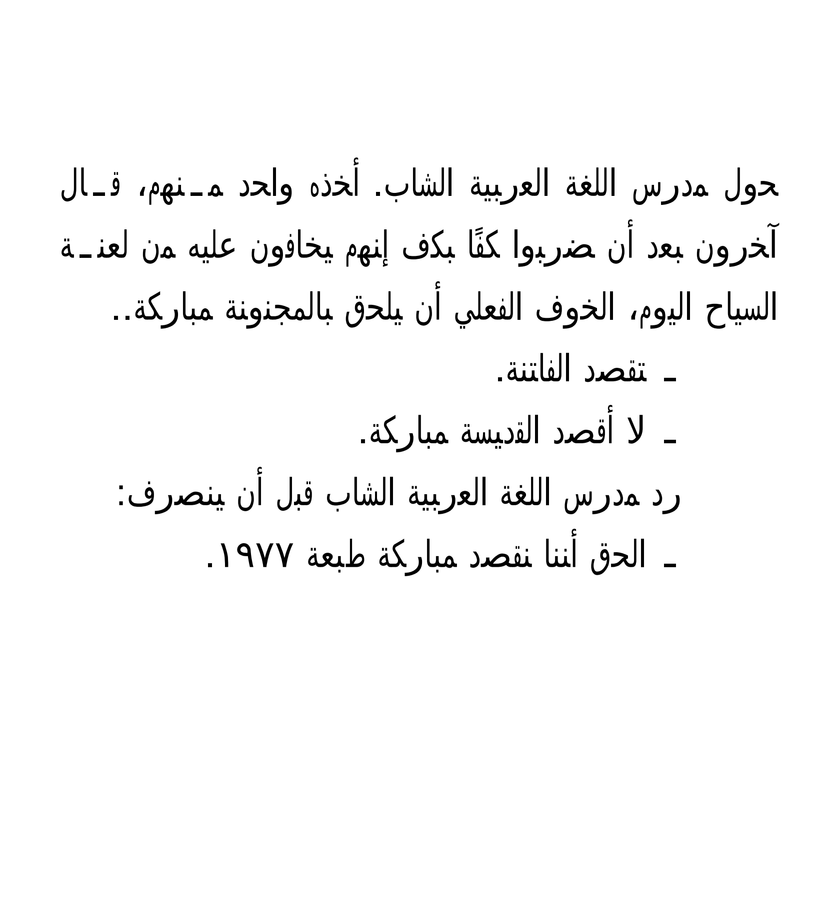
ـ والآن. سيداتي سادتي. إن القديسة مباركة بعد أن تعبت من العمل، تتأهب للسفر إلى مصيفها الهادئ لقضـاء الويك إند.

سارت سيارة الإسعاف تضرب جرسـها، وخلفهـا الأتوبيس الفاخر. ضحك الناس في البلد، وقالوا إن المجنونة

مباركة تتصدر الموكب الرسمي للسياح. حسدتها النسوة. فهي مسافرة على أي حال، وهذا أفضل من البقاء هنا، في الشارع الرئيسي مرت السيارتان، عند آخر البلد، كان هناك جمع من الناس يودع مباركة وسيارة السياح، وقف وسطهم مدرس اللغة العربية، قال بعد أن توارت السيارتان، وأصبحا على الطريق الرئيسي ولم يعد أحد يرى سحابة الغبار التي تعلن عن سيرها:

قال مدرس اللغة العربية، وكأنه يلقي درسا على تلاميذه في الفصل:

- والسائح يا ولدي هو الشخص الغريب المسافر الذي يحضر إلينا من البلاد البعيدة ويقضي في أرض الكنانة مدة لا تقل عن اليوم الواحد، ولا تزيد عن السنة، وتكون إقامته مؤقتة، وهدفها الوحيد هو الفرجة على عجائب أم الدنيا مصر. وينفق خلال هذه الفترة أموالاً كثيرة بالعملة الصعبة. في التاكسيات والشقق المفروشة والملاهي الليلية ومطاعم الدرجة الأولى السياحية وبين أفخاذ النساء، ولدى محال بيع الخمور، وتحف خان الخليلي. وقد كان تشجيع السياحة من أهم وأخطر بنود سياسة الانفتاح الاقتصادي.. خاف الواقفون



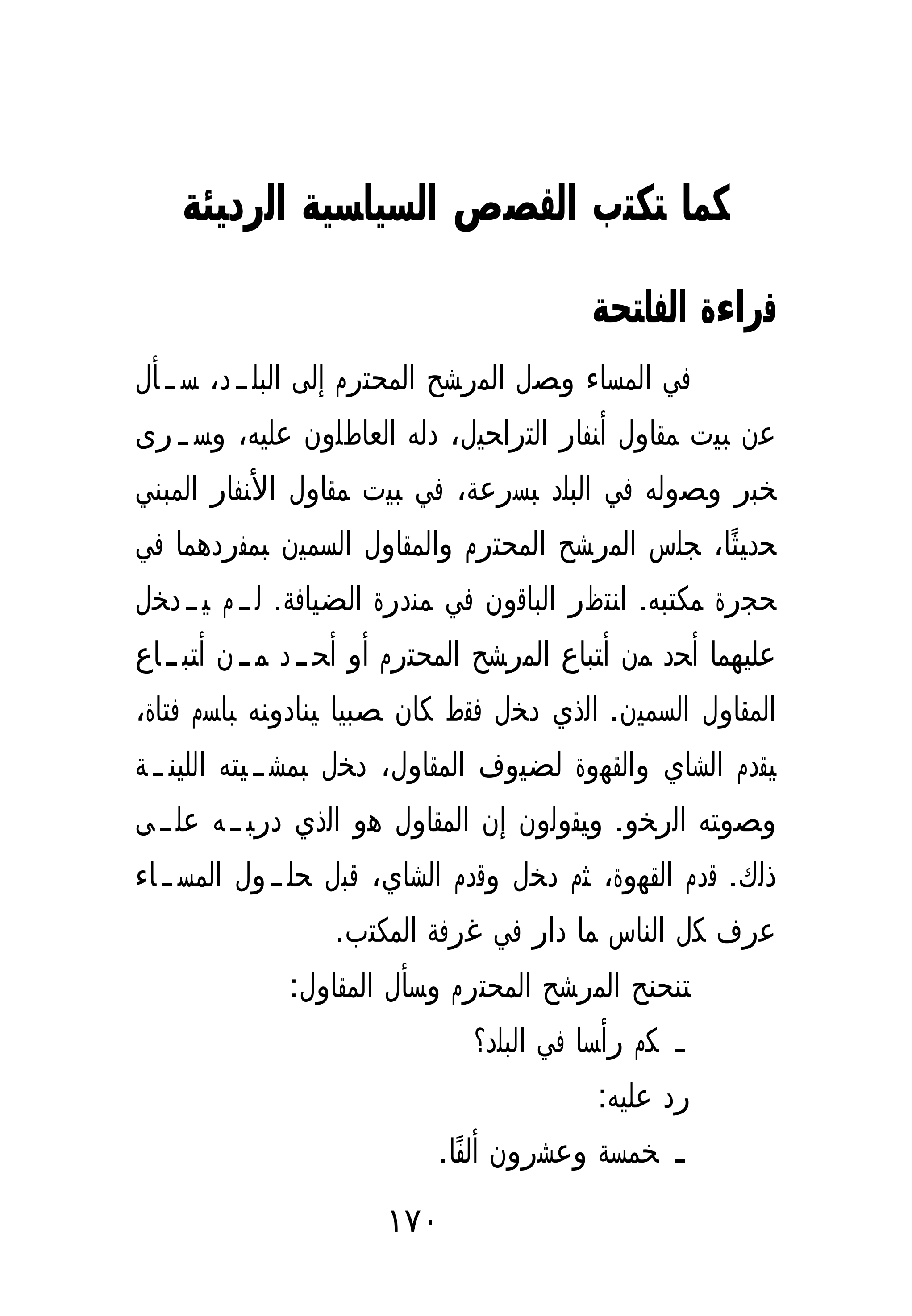
حول مدرس اللغة العربية الشاب. أخذه واحد مـنهم، قـال آخرون بعد أن ضربوا كفًا بكف إنهم يخافون عليه من لعنـة السياح اليوم، الخوف الفعلي أن يلحق بالمجنونة مباركة..

ـ تقصد الفاتنة.

ـ لا أقصد القديسة مباركة.

رد مدرس اللغة العربية الشاب قبل أن ينصرف:

ـ الحق أننا نقصد مباركة طبعة ١٩٧٧.



كما تكتب القصص السياسية الرديئة

قراءة الفاتحة

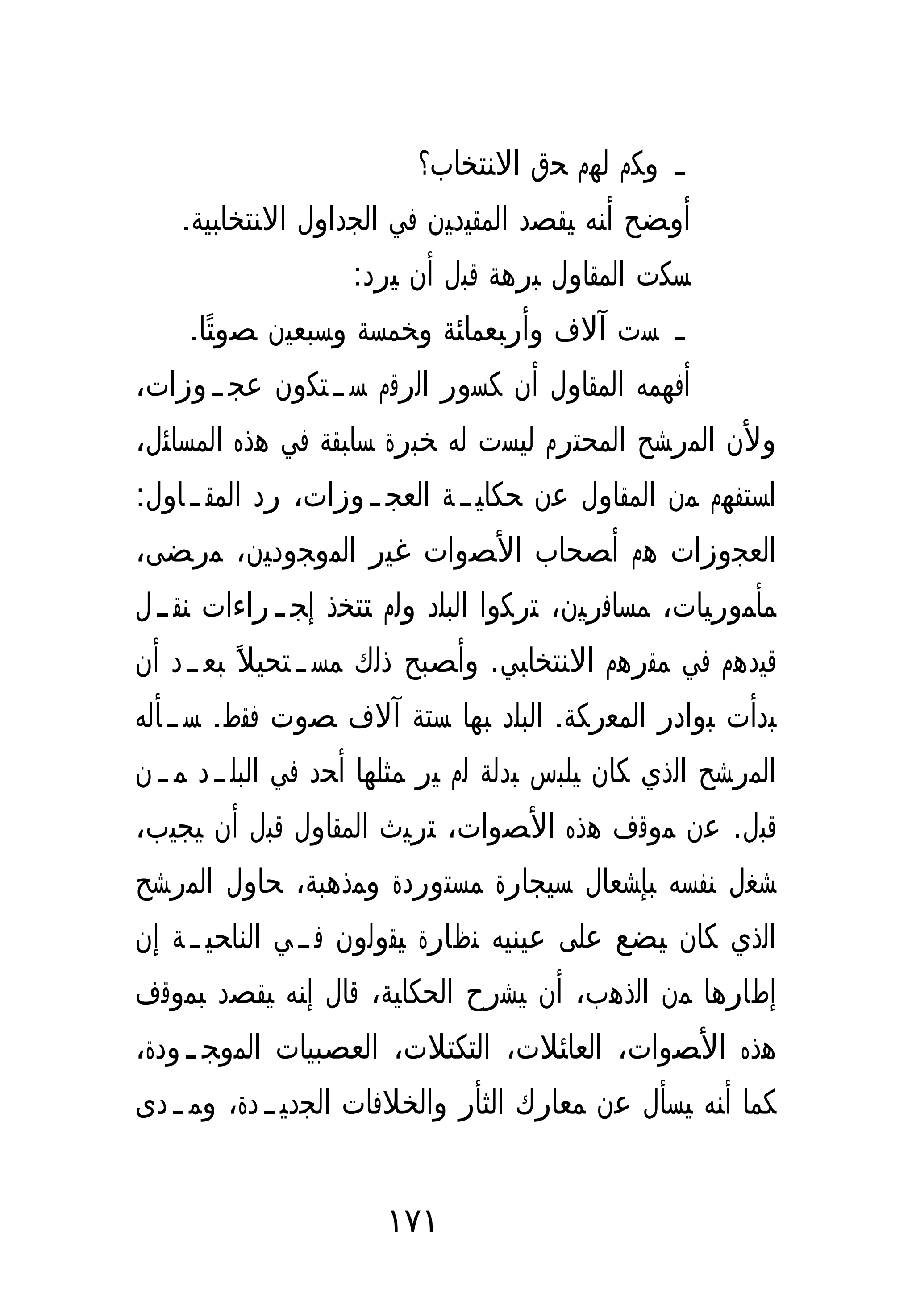
في المساء وصل المرشح المحترم إلى البلد، سأل عن بيت مقاول أنفار الترحيل، دله العاطلون عليه، وسرى خبر وصوله في البلد بسرعة، في بيت مقاول الأنفار المبني حديثًا، جلس المرشح المحترم والمقاول السمين بمفردهما في حجرة مكتبه. انتظر الباقون في مندرة الضيافة. لم يدخل عليهما أحد من أتباع المرشح المحترم أو أحد من أتباع المقاول السمين. الذي دخل فقط كان صبيا ينادونه باسم فتاة، يقدم الشاي والقهوة لضيوف المقاول، دخل بمشيته اللينة وصوته الرخو. ويقولون إن المقاول هو الذي دربه على ذلك. قدم القهوة، ثم دخل وقدم الشاي، قبل حلول المساء عرف كل الناس ما دار في غرفة المكتب.

تنحنح المرشح المحترم وسأل المقاول:

ـ كم رأسا في البلد؟

رد عليه:

ـ خمسة وعشرون ألفًا.


- وكم لهم حق الانتخاب؟

أوضح أنه يقصد المقيدين في الجداول الانتخابية.

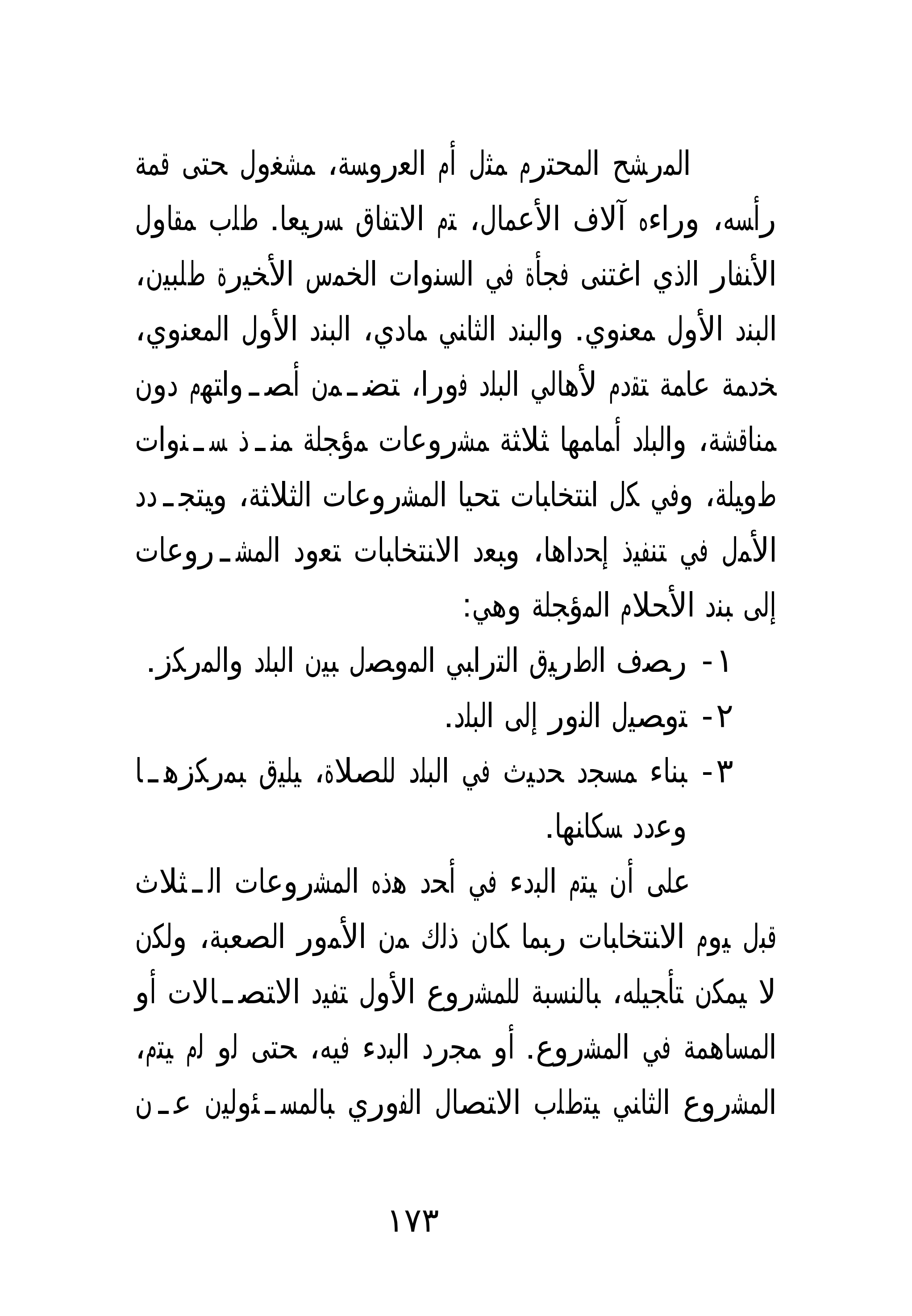
سكت المقاول برهة قبل أن يرد:

- ست آلاف وأربعمائة وخمسة وسبعين صوتًا.

أفهمه المقاول أن كسور الرقم ستكون عجوزات، ولأن المرشح المحترم ليست له خبرة سابقة في هذه المسائل، استفهم من المقاول عن حكاية العجوزات، رد المقاول: العجوزات هم أصحاب الأصوات غير الموجودين، مرضى، مأموريات، مسافرين، تركوا البلد ولم تتخذ إجراءات نقل قيدهم في مقرهم الانتخابي. وأصبح ذلك مستحيلاً بعد أن بدأت بوادر المعركة. البلد بها ستة آلاف صوت فقط. سأله المرشح الذي كان يلبس بدلة لم ير مثلها أحد في البلد من قبل. عن موقف هذه الأصوات، تريث المقاول قبل أن يجيب، شغل نفسه بإشعال سيجارة مستوردة ومذهبة، حاول المرشح الذي كان يضع على عينيه نظارة يقولون في الناحية إن إطارها من الذهب، أن يشرح الحكاية، قال إنه يقصد بموقف هذه الأصوات، العائلات، التكتلات، العصبيات الموجودة، كما أنه يسأل عن معارك الثأر والخلافات الجديدة، ومدى

تأثير كل هذا على المعركة الانتخابية التـي سـتدور، فهـو يجلس الآن في إحدى القرى الصغيرة، والدائرة التي رشـح نفسه فيها بها حوالي ثمانية عشر قرية ومركز واحد، وهو لا يطيق الحياة في ريف مصر، ولا يستطيع أن يتصور كيـف يعيش الناس فيه، لأنه يعيش في مصر منذ مولـده، لـذا لا توجد عنده خريطة سليمة للعلاقات الموجودة فـي الـدائرة. حضر من مصر ومعه كشف به حوالي عشرين اسما. قيل له إن الدائرية في جيوبهم، أوقفت حديث المرشح ضحكة عالية مجلجلة صدرت من المقاول، اهتز معها كرشه الضخم، وقام بعمل نفس الحركة التي شاهدها المرشح المحترم من التسعة عشر مقاولاً الذين قابلهم في نفس اليوم. مد يده، أشار إلـى جيب صغير، فوق القلب مباشرة، يبدو جزء من الجيب فقط، والجزء الباقي يتوه تحت العباءة الغامقة اللون، والتي تشـي بدرجة غنى المقاول ومدى ما وصل إليه، امتدت أصابع يده اليمنى، بين إصبعين منهما بقايا السيجارة المحترقة وأواخـر إصبعيه وأظافره أصابها لون أصفر من كثرة التدخين، أشار بالسيجارة إلى الجيب وقال:

ـ الستة آلاف صوت في قعر الجيب.



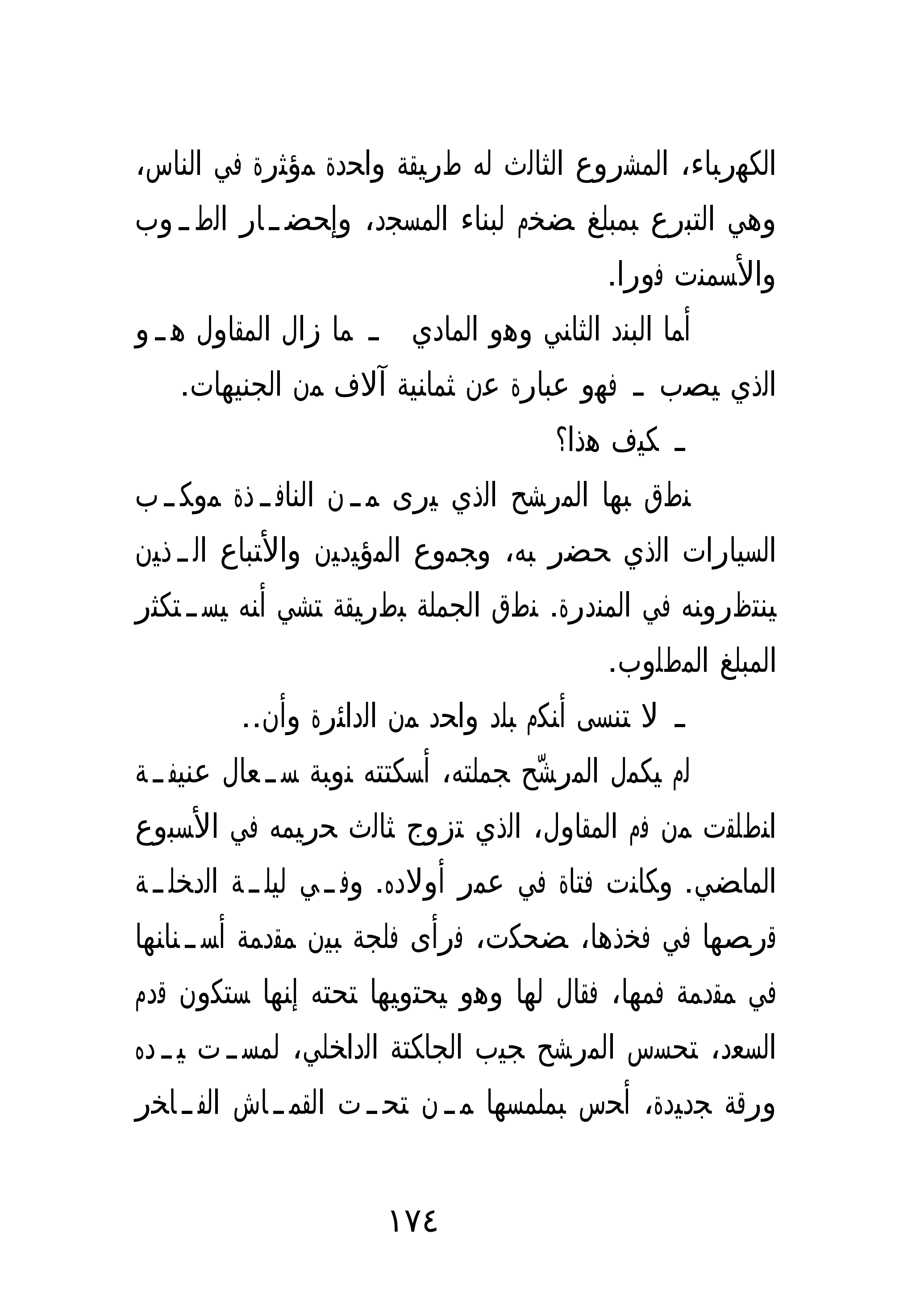
المرشح المحترم مثل أم العروسة، مشغول حتى قمة رأسه، ووراءه آلاف الأعمال، تم الاتفاق سريعا. طلب مقاول الأنفار الذي اغتنى فجأة في السنوات الخمس الأخيرة طلبين، البند الأول معنوي. والبند الثاني مادي، البند الأول المعنوي، خدمة عامة تقدم لأهالي البلد فورا، تضـمن أصـواتهم دون مناقشة، والبلد أمامها ثلاثة مشروعات مؤجلة منـذ سـنوات طويلة، وفي كل انتخابات تحيا المشروعات الثلاثة، ويتجـدد الأمل في تنفيذ إحداها، وبعد الانتخابات تعود المشـروعات إلى بند الأحلام المؤجلة وهي:

١- رصف الطريق الترابي الموصل بين البلد والمركز.

٢- توصيل النور إلى البلد.

٣- بناء مسجد حديث في البلد للصلاة، يليق بمركزهـا وعدد سكانها.

على أن يتم البدء في أحد هذه المشروعات الـثلاث قبل يوم الانتخابات ربما كان ذلك من الأمور الصعبة، ولكن لا يمكن تأجيله، بالنسبة للمشروع الأول تفيد الاتصـالات أو المساهمة في المشروع. أو مجرد البدء فيه، حتى لو لم يتم، المشروع الثاني يتطلب الاتصال الفوري بالمسـئولين عـن



الكهرباء، المشروع الثالث له طريقة واحدة مؤثرة في الناس، وهي التبرع بمبلغ ضخم لبناء المسجد، وإحضار الطوب والأسمنت فورا.

أما البند الثاني وهو المادي - ما زال المقاول هو الذي يصب - فهو عبارة عن ثمانية آلاف من الجنيهات.

- كيف هذا؟

نطق بها المرشح الذي يرى من النافذة موكب السيارات الذي حضر به، وجموع المؤيدين والأتباع الذين ينتظرونه في المندرة. نطق الجملة بطريقة تشي أنه يستكثر المبلغ المطلوب.

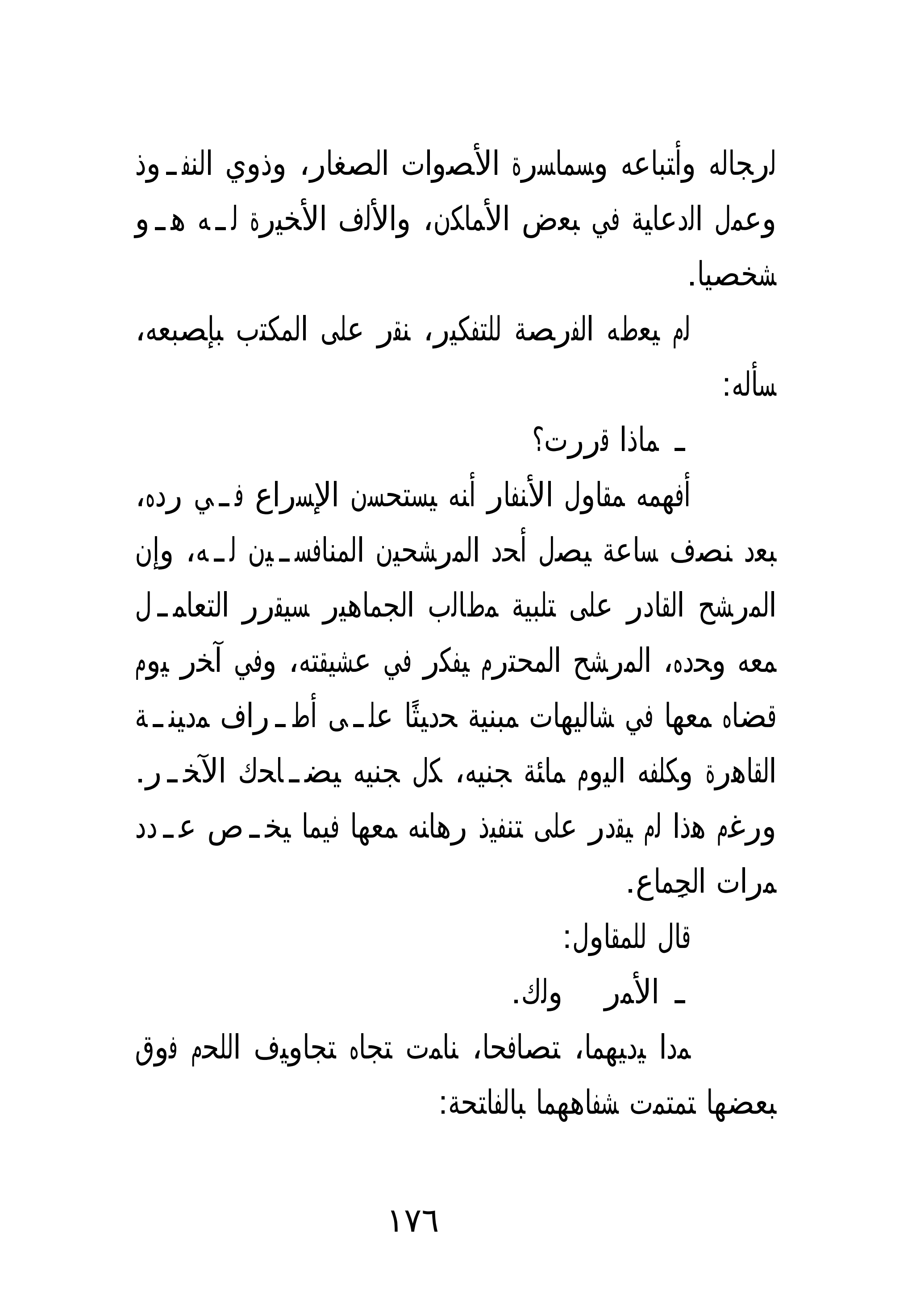
- لا تنسى أنكم بلد واحد من الدائرة وأن..

لم يكمل المرشّح جملته، أسكتته نوبة سعال عنيفة انطلقت من فم المقاول، الذي تزوج ثالث حريمه في الأسبوع الماضي. وكانت فتاة في عمر أولاده. وفي ليلة الدخلة قرصها في فخذها، ضحكت، فرأى فلجة بين مقدمة أسنانها في مقدمة فمها، فقال لها وهو يحتويها تحته إنها ستكون قدم السعد، تحسس المرشح جيب الجاكتة الداخلي، لمست يده ورقة جديدة، أحس بملمسها من تحت القماش الفاخر

المستورد، الورقة كشف به بيان بالمنافع التي ستعود عليـه بعد نجاحه في الانتخابات. قال يكلم نفسه: لكي أنجح مطلوب لي ٢٥ ألف صوت، هذا معناه تدبير ٣٥ ألف جنيه، الأمـر صعب. ما قاله المرشح كان خاطرا في نفسه، ذهـل عنـدما اكتشف معرفة المقاول بما دار في خاطره، لوح المقاول بيده في المسافة بينهما، كأنه يقول له: ما لك أنت حر فيـه، أمـا بخصوص المبلغ الذي سأطلبه فسيصرف كالتـالي: أخـرج المقاول ورقة بيضاء وقلما فاخرا، مربوط بسلسلة ذهبية إلى المكتب. كتب:

ـ ستة آلاف صوت. كل صوت سيحصل صـاحبه على جنيه مقابل صوته، في آخر انتخابات كـان الصـوت بخمسة وسبعين قرشًا التي قبلها كان الصوت بخمسين قرشًا، المشكلة هي جنون الأسعار والارتفـاع يشـد معـه قيمـة الصوت.

الجزء الباقي لم يكتبه المقاول، أكمله وهـو يطـوي الورقة ويمزقها قطعا صغيرة ويرميها في سلة مهملات مـن البلاستيك مصنوعة على شكل شـبكة صـياد مـاهر قـال المقاول: يتبقى من المبلغ ألفان من الجنيهـات، ألـف منهـا



لرجاله وأتباعه وسماسرة الأصوات الصغار، وذوي النفـوذ وعمل الدعاية في بعض الأماكن، والألف الأخيرة لـه هـو شخصيا.

لم يعطه الفرصة للتفكير، نقر على المكتب بإصبعه، سأله:

ـ ماذا قررت؟

أفهمه مقاول الأنفار أنه يستحسن الإسراع فـي رده، بعد نصف ساعة يصل أحد المرشحين المنافسـين لـه، وإن المرشح القادر على تلبية مطالب الجماهير سيقرر التعامـل معه وحده، المرشح المحترم يفكر في عشيقته، وفي آخر يوم قضاه معها في شاليهات مبنية حديثًا علـى أطـراف مدينـة القاهرة وكلفه اليوم مائة جنيه، كل جنيه يضـاحك الآخـر. ورغم هذا لم يقدر على تنفيذ رهانه معها فيما يخـص عـدد مرات الجِماع.

قال للمقاول:

ـ الأمر   ولك.

مدا يديهما، تصافحا، نامت تجاه تجاويف اللحم فوق بعضها تمتمت شفاههما بالفاتحة:

ـ بسم ا الرحمن الرحيم.

بعد كلمة آمين سحبا أيديهما، وكانت عدوى الـدفء قد سرت خلال اليدين، مسح كل منهما بيـده علـى وجهـه وقبلها، ثم أمر مقاول الأنفار بفتح الباب ودخول كل الرجـال سواء من رجاله هو أو من رجال المرشح المحترم. أصـر المقاول على أن يشربوا شربات النجاح مـن الآن فالنجـاح مسألة مضمونة مائة في المائة.

في غمضة عين تتحقق الأحلام

خرج المرشح ابن الأكابر الذي نجح والـده وجـده، وجد جده في كل الانتخابات عن نفس الدائرة، بعـد أو عـد مقاول الأنفار بدفع المبلغ المطلوب. ولكن بعد جدولته تبعـا لظروفه الصعبة، سيدفعه على ثلاث دفعات: الأولـى بعـد أسبوع والثانية عندما تشتد المعركة والثالثة ليلـة المعركـة. عند انتصاف الليل، أي في اللحظة التي يبدأ فيها ميلاد يـوم انتخابات، وبخصوص طلبات الشعب الطيب الثلاثة الأخرى، كلها مجابة بإذن ا ، ما يمكنه أن يعد بعمله هو إدخال النور فورا، الطلبان الآخران، يرجو تأجيلهما لعملهما على أسـس

سليمة وبشكل عظيم بعد الانتخابات مباشـرة، وكمـا دخـل المرشح الناعم الرقيق إلى البلد في زفة خرج أيضا في نفس الزفة.

لم يصدق أحد نفسه عندما دخل النور البلد بعد عشرة أيام فقط من زيارة المرشح المتصل بأولي الأمر منهم. قـال رجاله على سبيل الدعاية له:

ـ أول الغيث قطرة.

المهندس الذي حضر لتوصيل النـور كانـت لديـه تعليمات من رؤسائه الكبار في مصر أن يوصله أولاً علـى منزل المقاول. بعد حضوره إلى البلد، اكتشف أن المقاول له ثلاثة بيوت. لم يكن المقاول موجدا. لكي يعرف منه المهندس المنزل الذي سيوصل إليه النور، قال لـه النـاس إن الولـد زنوبة يعرف سر المقاول. بحثوا عنه، وجدوه، طلبوا منه أن يدلهم إلى أي المنازل يتم توصيل النور، قال لهـم واللبانـة تتحرك في فمه مع الكلمات. إن المقاول له ثلاثة بيوت. واحد قبلي والثاني بحري والثالث وسط البلد. وتعيش فيه زوجتـه الأخيرة وملحق به مكتب يدير منه المقاول أعماله المختلفـة. وهذا البيت هو أحب البيوت إلى قلب المقاول، على الأقل في

الوقت الحاضر، احتار المهندس، وبعد أخـذ وعطـاء قـام بتوصيل النور إلى البيوت الثلاثة.

في أول ليلة يدخل فيها النور، بدت البلد وبها ثـلاث بقع من الضوء الجديد، والـذي يـدخلها لأول مـرة، هلـل الأطفال وجرى الصبية وحزن أبناء الليل، واعتبرها مقـاول الأنفار ورجاله ضربة معلم لأنصار المرشـحين الآخـرين، وبالنسبة للمقاول فهو أساس ضخم لبناء نفوذه الانتخابية كلها أثناء الليل، لكي يدرك الناس قيمة ومعنى مـا قدمـه لهـم. ويتذكرونه في كل الأوقات.

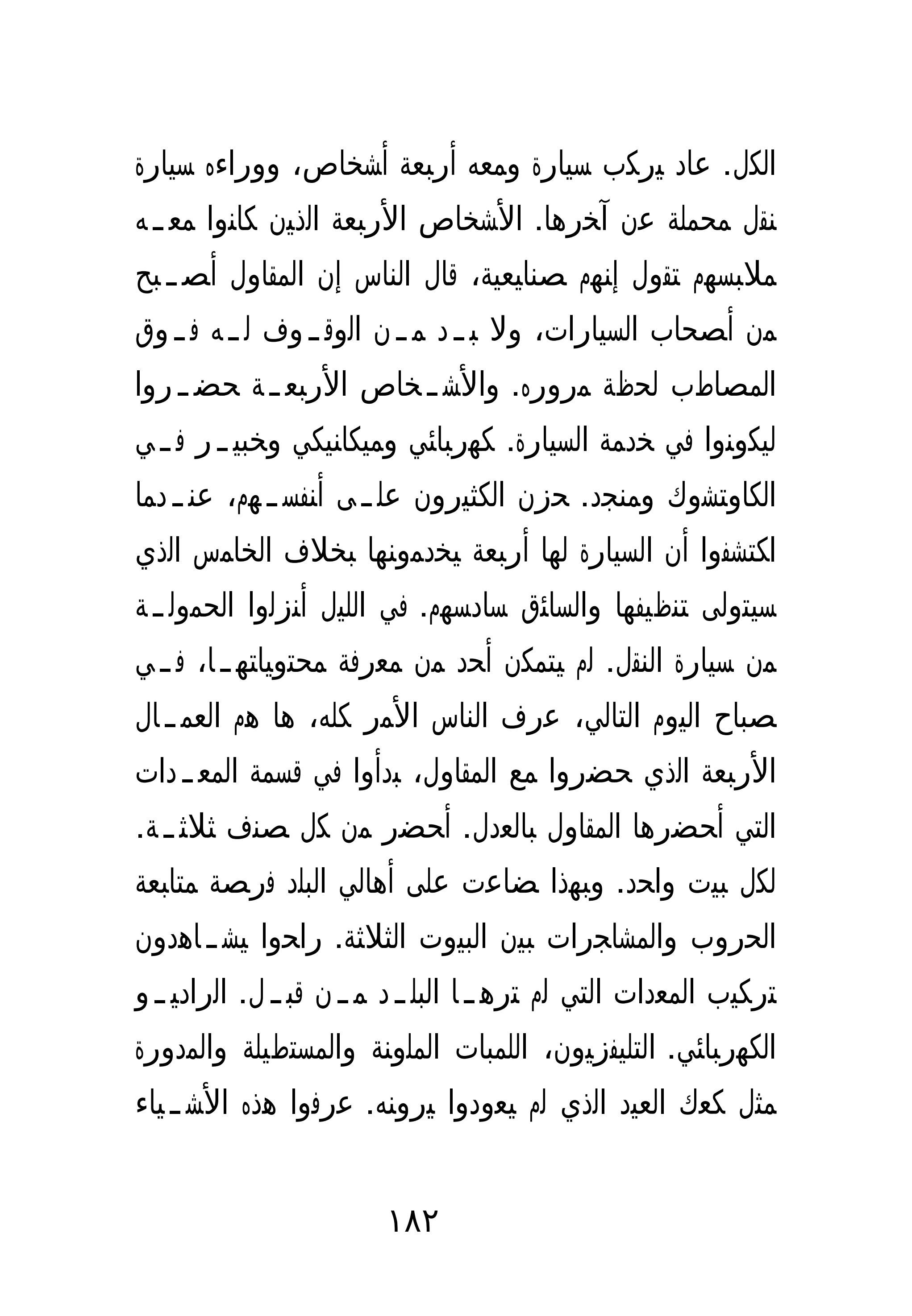
الأصوات واحدة. فلماذا تختلف النتائج؟

نجح المرشح، وقف المقاول لحظة ظهور النتيجـة، وقرأ من ورقة بيده خطبة قصيرة ومعبرة جدا. قال إنه رجل أعمال ولا يعرف الكلمات أو الخطـب، وقـال إن حصـول المرشح المحترم على ستة آلاف صوت وهي كل أصـوات البلد سابقة تحدث في مصر لأول مرة. ولم يسبق حدوثها في كل تاريخ البلاد، ثم صاح المقاول، بصوت عال، لدرجة أن عروق رقبته أصبحت في مثل غلاظة عامود النور، الذي يقف

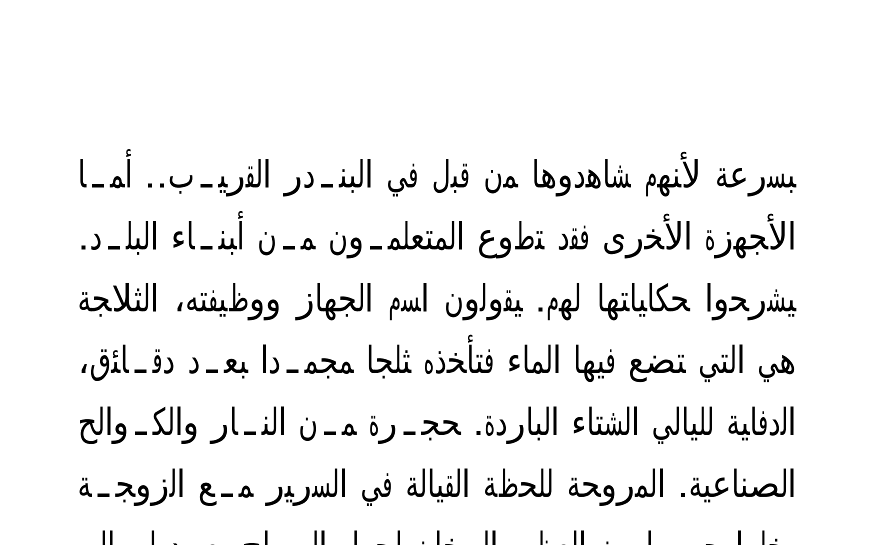
المقاول بجواره مرتكنًا عليه، قال المقاول: إن اللقب يتغير الآن أيها السادة، إن حضرة المرشح المحترم، يصبح حضرة النائب الأكثر احتراما من ذي قبل.

ثم حضر المرشح المحترم، الذي أصبح النائب الأكثر احتراما، قيل إنه حضر ليشكر أبناء البلد على حصوله على ستة آلاف صوت، هي كل أصوات البلد بالتمام والكمال، وقيل إنه حضر إلى البلد اليوم لآخر مرة، قال آخرون إنه أتى لكي يصفي حساباته المالية والعاطفية مع المقاول، وإنه سيعطيه مؤخر الأتعاب الذي وعدهم به المقاول. كان النائب متعبا بدا لهم وقد فقد حماسته لكل ما في الحياة من مشروعات وطموحات. مر على الناس في سرعة كأن وراءه من يضربه الكرباج. مد يدا خلت من حرارة الحياة، لكي تهزها الأيدي الخشنة، كانت عيناه ساهمتين وأذناه واحدة من طين والأخرى من عجين، وعندما طلب منه الناس أن يلقي كلمة فيهم اعتذر بأنه متعب، ثم طلبوا أن يحملوه على الأعناق ثم يلفوا به في البلد، وهو يحيي الجماهير، على عادة أهل البلد، قال لهم إن أمنيته الوحيدة أن يذهب إلى مصر وينام ولمدة شهر كامل.

في البلد ظهرت نتائج أخرى للانتخابات على رجال المقاول في شكل ساعات وخواتم ذهبية ونظـارات وأحذيـة وملابس وقطع أرض وبهائم، شبكة كاملة من حالات البيـع والشراء والاقتناء وتسجيل العقود وكتابة المبايعات واعتمـاد وثائق التمليك، وكانت في الطريق إلى البلد ولائم ومراهنات ومشروعات وزيجات وأشكال ثراء مفاجئـة. لكـن نتيجـة الانتخابات والتي ظهرت في بيوت مقاول الأنفار فاقت كـل التصورات الأخرى، مر أسبوع على فوز النائب المحتـرم، خرج المقاول، سافر إلى مصر لحـل مشـاكل النـاس، رد الآخرون، ذهب للحصول على مؤخر الأتعـاب والحـلاوة. بعض المقربين من المقاول، قالوا وهم يضحكون إنه مسـافر إلى مصر يبحث عن محامي كبير، أكبر محامي فـي البـر كله، يرفع قضية، يطعن في انتخاب المرشح الـذي أصـبح نائبا، ومعه الأدلة ضده، ثم يرشح نفسه في الانتخابات بمجرد كسب القضية. فالنائب له مرتب وسيارة ونفوذ ضخم ولقـب أكثر فائدة من خاتم سليمان. وجحا أولى بلحم ثوره، عمليـة النجاح والسقوط في الانتخابات لعبة قديمة بالنسبة لـه. فـي اليوم التالي عاد المقاول من مصر، خيبت عودتـه ظنـون

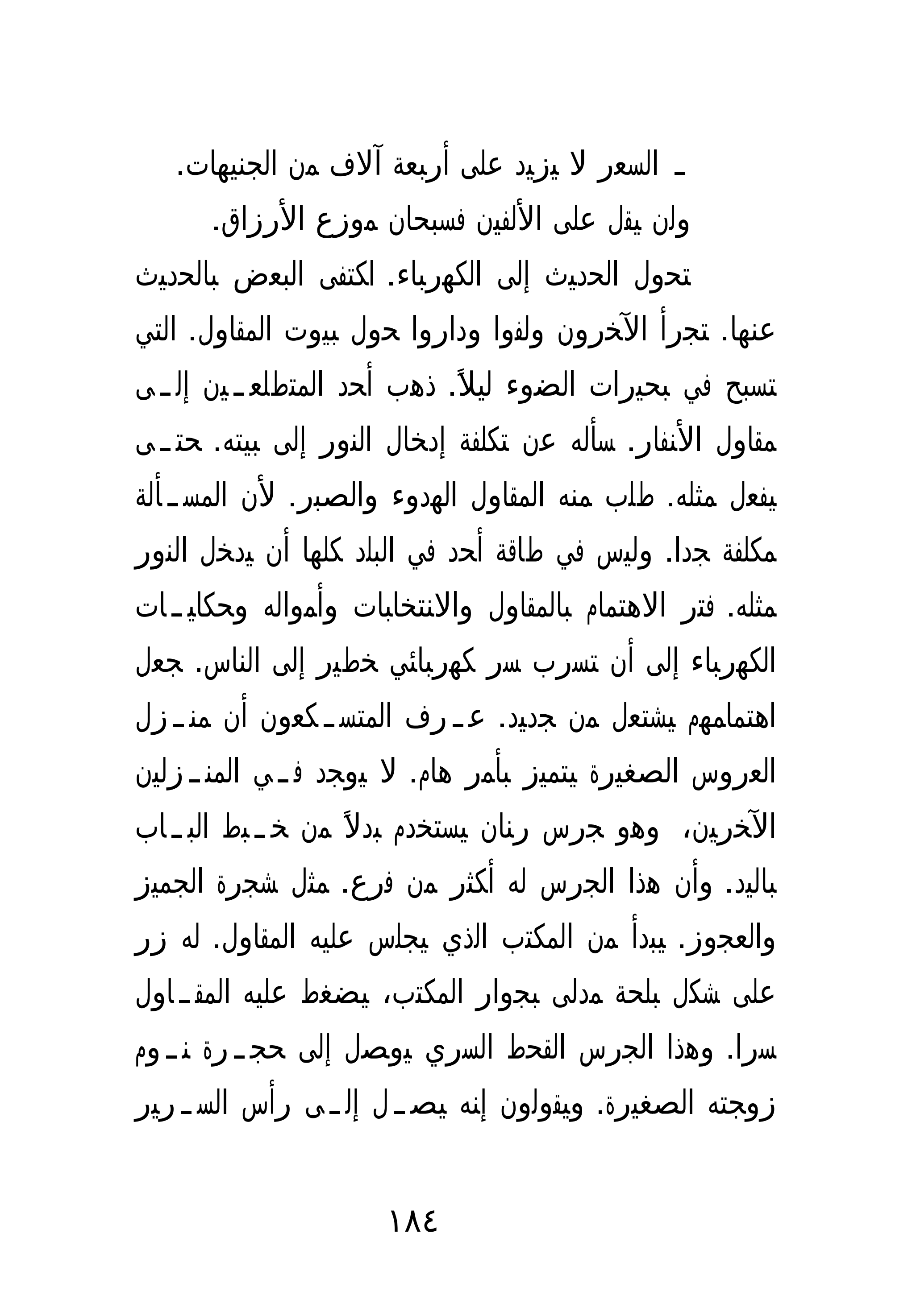


الكل. عاد يركب سيارة ومعه أربعة أشخاص، ووراءه سيارة نقل محملة عن آخرها. الأشخاص الأربعة الذين كانوا معـه ملابسهم تقول إنهم صنايعية، قال الناس إن المقاول أصـبح من أصحاب السيارات، ولا بـد مـن الوقـوف لـه فـوق المصاطب لحظة مروره. والأشـخاص الأربعـة حضـروا ليكونوا في خدمة السيارة. كهربائي وميكانيكي وخبيـر فـي الكاوتشوك ومنجد. حزن الكثيرون علـى أنفسـهم، عنـدما اكتشفوا أن السيارة لها أربعة يخدمونها بخلاف الخامس الذي سيتولى تنظيفها والسائق سادسهم. في الليل أنزلوا الحمولـة من سيارة النقل. لم يتمكن أحد من معرفة محتوياتهـا، فـي صباح اليوم التالي، عرف الناس الأمر كله، ها هم العمـال الأربعة الذي حضروا مع المقاول، بدأوا في قسمة المعـدات التي أحضرها المقاول بالعدل. أحضر من كل صنف ثلاثـة. لكل بيت واحد. وبهذا ضاعت على أهالي البلد فرصة متابعة الحروب والمشاجرات بين البيوت الثلاثة. راحوا يشـاهدون تركيب المعدات التي لم ترهـا البلـد مـن قبـل. الراديـو الكهربائي. التليفزيون، اللمبات الملونة والمستطيلة والمدورة مثل كعك العيد الذي لم يعودوا يرونه. عرفوا هذه الأشـياء



بسرعة لأنهم شاهدوها من قبل في البندر القريب.. أما الأجهزة الأخرى فقد تطوع المتعلمون من أبناء البلد. يشرحوا حكاياتها لهم. يقولون اسم الجهاز ووظيفته، الثلاجة هي التي تضع فيها الماء فتأخذه ثلجا مجمدا بعد دقائق، الدفاية لليالي الشتاء الباردة. حجرة من النار والكوالح الصناعية. المروحة للحظة القيالة في السرير مع الزوجة يخلوا جسمها من العظم، السخان لحمام الصباح بعد ليالي الوصال والحب وشواية اللحم. لصنع الكباب والكفتة، تلك الأكلات التي لا تمنح نفسها إلا لأبناء المدن، جهاز التسجيل، تجلس أمامه وتتكلم فيعيد لك ما قلته بمجرد انتهائك من الحديث. وقد صمم خصيصا في بلاده لتسجيل التأوهات في المضاجعات الجنسية. وسمعوا كلمات جديدة، مثل: النجف، الأباجورات، الإضاءات السحرية.

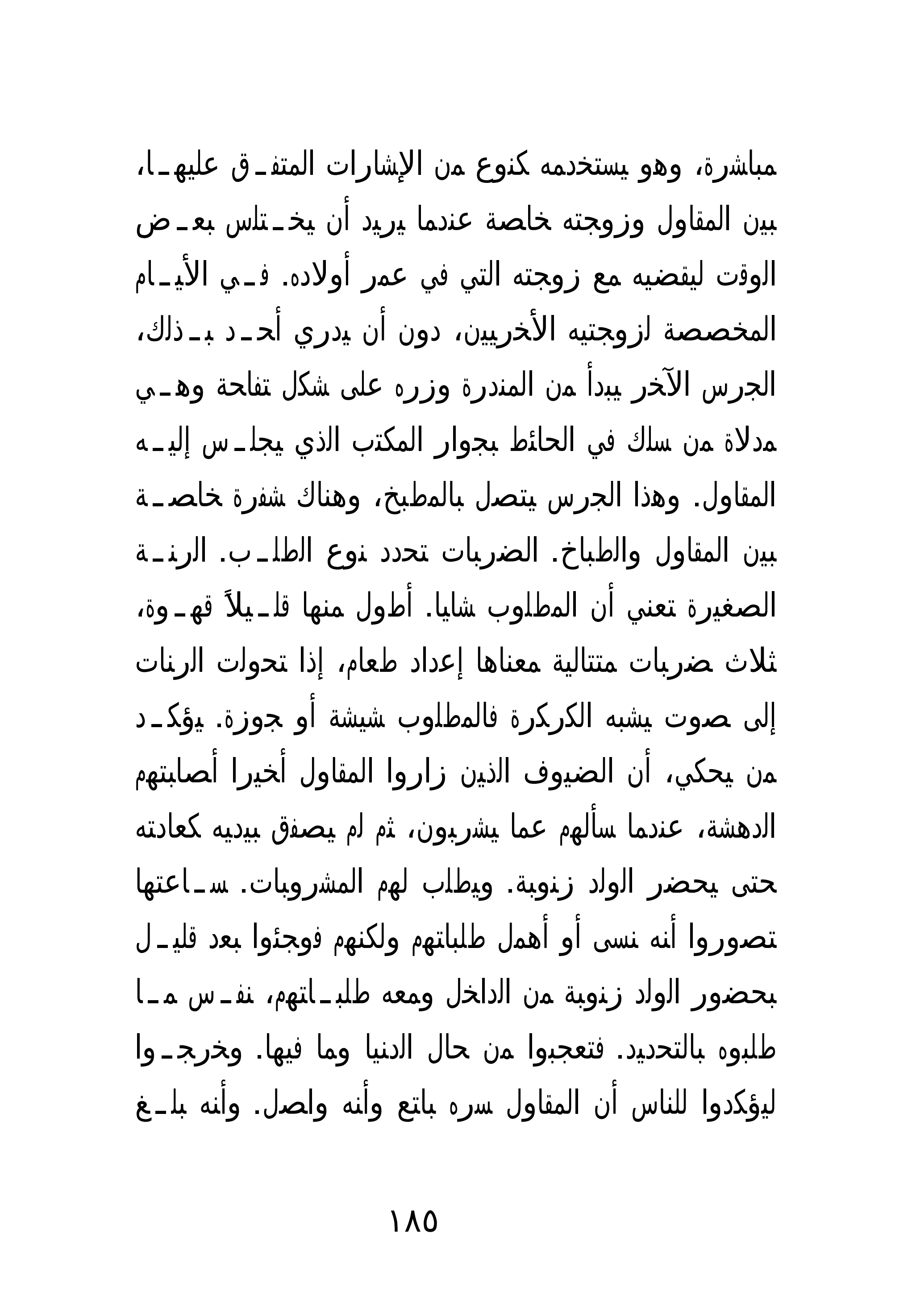
استغرق العمر ثلاثة أيام. كل بيت يوم واحد. وفي اليوم الرابع. خرجت سيارة المقاول الجديدة لتوصيل الأسطوات إلى مصر. اختلف المحرومون في تحديد سعر السيارة، تاهوا وتخبطوا بين الأرقام. لخص إمام المسجد المناقشة بقوله:



ـ السعر لا يزيد على أربعة آلاف من الجنيهات.

ولن يقل على الألفين فسبحان موزع الأرزاق.

تحول الحديث إلى الكهرباء. اكتفى البعض بالحديث عنها. تجرأ الآخرون ولفوا وداروا حول بيوت المقاول. التي تسبح في بحيرات الضوء ليلاً. ذهب أحد المتطلعين إلى مقاول الأنفار. سأله عن تكلفة إدخال النور إلى بيته. حتى يفعل مثله. طلب منه المقاول الهدوء والصبر. لأن المسألة مكلفة جدا. وليس في طاقة أحد في البلد كلها أن يدخل النور مثله. فتر الاهتمام بالمقاول والانتخابات وأمواله وحكايات الكهرباء إلى أن تسرب سر كهربائي خطير إلى الناس. جعل اهتمامهم يشتعل من جديد. عرف المتسكعون أن منزل العروس الصغيرة يتميز بأمر هام. لا يوجد في المنزلين الآخرين، وهو جرس رنان يستخدم بدلاً من خبط الباب باليد. وأن هذا الجرس له أكثر من فرع. مثل شجرة الجميز والعجوز. يبدأ من المكتب الذي يجلس عليه المقاول. له زر على شكل بلحة مدلى بجوار المكتب، يضغط عليه المقاول سرا. وهذا الجرس القحط السري يوصل إلى حجرة نوم زوجته الصغيرة. ويقولون إنه يصل إلى رأس السرير


مباشرة، وهو يستخدمه كنوع من الإشارات المتفـق عليهـا، بين المقاول وزوجته خاصة عندما يريد أن يخـتلس بعـض الوقت ليقضيه مع زوجته التي في عمر أولاده. فـي الأيـام المخصصة لزوجتيه الأخريين، دون أن يدري أحـد بـذلك، الجرس الآخر يبدأ من المندرة وزره على شكل تفاحة وهـي مدلاة من سلك في الحائط بجوار المكتب الذي يجلـس إليـه المقاول. وهذا الجرس يتصل بالمطبخ، وهناك شفرة خاصـة بين المقاول والطباخ. الضربات تحدد نوع الطلـب. الرنـة الصغيرة تعني أن المطلوب شايا. أطول منها قلـيلاً قهـوة، ثلاث ضربات متتالية معناها إعداد طعام، إذا تحولت الرنات إلى صوت يشبه الكركرة فالمطلوب شيشة أو جوزة. يؤكـد من يحكي، أن الضيوف الذين زاروا المقاول أخيرا أصابتهم الدهشة، عندما سألهم عما يشربون، ثم لم يصفق بيديه كعادته حتى يحضر الولد زنوبة. ويطلب لهم المشروبات. سـاعتها تصوروا أنه نسى أو أهمل طلباتهم ولكنهم فوجئوا بعد قليـل بحضور الولد زنوبة من الداخل ومعه طلبـاتهم، نفـس مـا طلبوه بالتحديد. فتعجبوا من حال الدنيا وما فيها. وخرجـوا ليؤكدوا للناس أن المقاول سره باتع وأنه واصل. وأنه بلـغ

الولد زنوبة بما يريده عبر الجدران والأسوار والمسـافات. ضحك الآخرون وقالوا: إن روح المقاول حلـت فـي روح الولد زنوبة وأن بينهما تفاهما صامتًا، يتم دونما كلمات.

الجرس الثالث والأخير يوجد على الباب الخـارجي. لبيت زوجته التي يقولون إنها تناديه بلقب يا بابا، فيثور، وهو مركب على يمين الباب في ارتفاع قامة رجل ليس طويلاً ولا قصيرا، فالجرس له لونان أبيض حليبي بالنهـار وأخضـر برسيمي في الليل مثل عيون القطط الشبعانة والتي تخرج من باب المقاول ليلاً.

هذا الجرس يوصل إلى وسط الدار مكتب المقـاول وحجرة الولد زنوبة في وقت واحد. جميع الذين بلا عمـل، قرروا التأكد من صدق حكايات الجرس، صعد ولد منهم فوق المنزل المقابل. حتى شاهد بنفسه واحدا من الأعيـان يرفـع يده. ويضغط على البقعة الناعمة. ثم سمع صـوت الـرنين وعاد ليقول لرفاقه. إن الصوت أسرع من ضربات جـرس المدرسة التي لم يدخلها واحد منهم قط.

الصبر.. الصبر.. الصبر

اكتمل الأسبوع الثاني بعـد فـوز النائـب الأكثـر احتراما. ولم يتقاض واحد من الناس مؤخر أثمان الأصوات، كما سماه المقاول. كل منهم حصل على أربعين قرشًا مقابـل صوته وباقي له ستون قرشًا قيل له إنه سيحصل عليها فـور ظهور النتيجة، إنهم يذكرون كلمات المقاول. قال لهم: إن من سيحضر منهم ليبارك بيده اليمنى سيأخذ الستين قرشًا باليـد اليسرى. بل طلب منهم أن يحتفظوا بالأربعين قرشًا كما هي. لكي يسلمونها ويأخذ كل منهم الجنيه صحيحا، بسبب أزمـة الفكرة في مصر أيام الانتخابات والأعياد عادة. ذهـب إليـه جماعة منهم يطالبون بباقي الأموال. لم يخرج لهم المقـاول. قال رجاله إنه متعب ومجهد. وعلى أبواب مرض قد يطـول بسبب المجهود الذي بذله في المعركة الانتخابية. أرسل لهـم الولد زنوبة لكي يتكلم معهم. طلبوا منه أن يخرج اللبانة من فمه أولاً. رفض بحجة أنها تساعده على حسن الكلام. كادت أن تحدث مشكلة بسبب قطعة اللبانة، أخيرا تكلـم. قـال إن المقاول لن يأكل عليهم مليما واحدا. وهو زعلان منهم بسبب سرعة الطلب. لأنه يفكر في مصلحتهم أكثر منهم. لهذا فهو

يرى أنه أهم من أخذ مؤخر الأتعاب أن يكون ذلك المـؤخر على شكل فرص عمل وخدمات للبلد. وهذا أقوى من المبلغ البسيط الذي سيحصل عليه كل منهم على حدة. وافق النائب المحترم على الطلب وقال إنه يرجو منحه فرصة ستة أشهر حتى يفكر في كيفية تحقيق هذا الطلب. والمقاول يرجو أهـل بلده الكرام. أن ينتظروا وأن يصبروا. أليست أول صـفات الفلاح المصري العظيم. وأهمها على مر التاريخ هي الصبر أولاً. والصبر ثانيا والصبر ثالثًا وأخيرا. وما هـي إلا أيـام قليلة. وخرج المقاول. ذهب إلى البندر. طلبوا له الشفاء بعد أن قيل لهم إنه ذاهب للعلاج. ولكنهم عرفوا أنه ذاهب لشراء بعض المعدات لافتتاح مشـروعات يسـتثمر بهـا فـائض الأموال. التي عادت إليه من الانتخابات الأخيرة. وأن البلـد ستتحول إلى جنة ا على الأرض. قالوا إنه سيحضر منشارا كهربائيا ويبني فرنًا إفرنجيا يصنع الخبز الأبـيض وسـيفتح محلاً لعصير القصب، ومقهى به تليفزيـون مـاون يكـون الجلوس فيه والفرجة عليه مقابل خمسة قروش علاوة علـى ثمن المشروب. وتهامس البعض أنه سيبني عمارة ضـخمة من عشرة طوابق لسكنى موظفي الحكومة الذين يعملون في

البلاد. وبذلك يكون قد وضع الحكومـة كلهـا فـي جيبـه. وسيخصص الدور الأرضي من العمارة لكي يكـون سـينما ضخمة، وكان للجرس مكان في الحكايات الكثيرة. قـالو إن المقاول سيربط بيوته الثلاثة بجرس واحد. حيـث يسـتطيع وهو في السرير أن يخاطب حرسه ورجاله والنائب المحترم ونسائه تحسبا للغد. النائب المحترم وحده هو الذي غاب عن الحكايات لأنه لم يعد له وجود في حياتهم من يوم فوزه فـي الانتخابات.

الجرس يدلي بصوته

لم يعرف المقاول متى بدأت مضـايقات الجـرس. ولكنه يذكر فقط أنه كان يعيش بسعادة غامرة كلمـا شـاهد جمعا من الناس يقفون لكي يشـاهدوا زر الجـرس، كانـت الوقفة تتم في وقت الغروب، في تلك اللحظة التـي تتسـاقط فيها قطرات الظلام الرمادي فيزداد لمعان الزر. كلما أصبح الظلام مؤكدا. إنهم يظلون حوله حتى يصبح الظلام عبـاءة تلف بداخلها وجودهم، في هذا الوقت بالذات يكـون للـزر

وجوده. نقطة من الضوء، ينعكس نورهـا الأخضـر علـى عيونهم التي بلا رموش.

كان المقاول يشاهد المنظر بسعادة. يذكر أنـه بعـد السعادة حدثت بعض المضايقات، بـدأت بصـبي صـغير، يقترب من الباب يضغط على الزر ثم يولي هاربا، ضـغطة صغيرة لا تصل إلى أقل مـن الثانيـة، اعتبرهـا المقـاول معاكسات أولاد. بعد هذا لاحظ المقاول أن معاكسات الجرس طالت. ولا تحدث إلا وقت تناول طعامه أو وهو نائم، وكانت النتيجة معروفة له، فهي إما توقف اللقمة في زوره أو تحرمه لذة مواصلة الجماع مع زوجته اللينة، كلـف أحـد أعوانـه بملاحظة الجرس أوقفه بجوار زر الجرس، ولكنه فوجئ في اليوم التالي بالجرس يضرب مرتين متتاليتين.

خرج مسرعا، عرف أن الذي ضرب الجرس لم يكن بمفرده. كانوا ثلاثة. اثنان، شاغلا الرجل الواقـف لحراسـة الزر، والثالث ضغط عليه. وفروا هاربين، توقـف المقـاول أمام هذه الحادثة، صفّر بفمه، وأسند رأسه بين يديه، قال إن المسألة لم تعد معاكسات والإعجاب بـالجرس، إن التـدبير واضح هذه المرة، وضربات الجرس نوع من الإنـذار لـه.

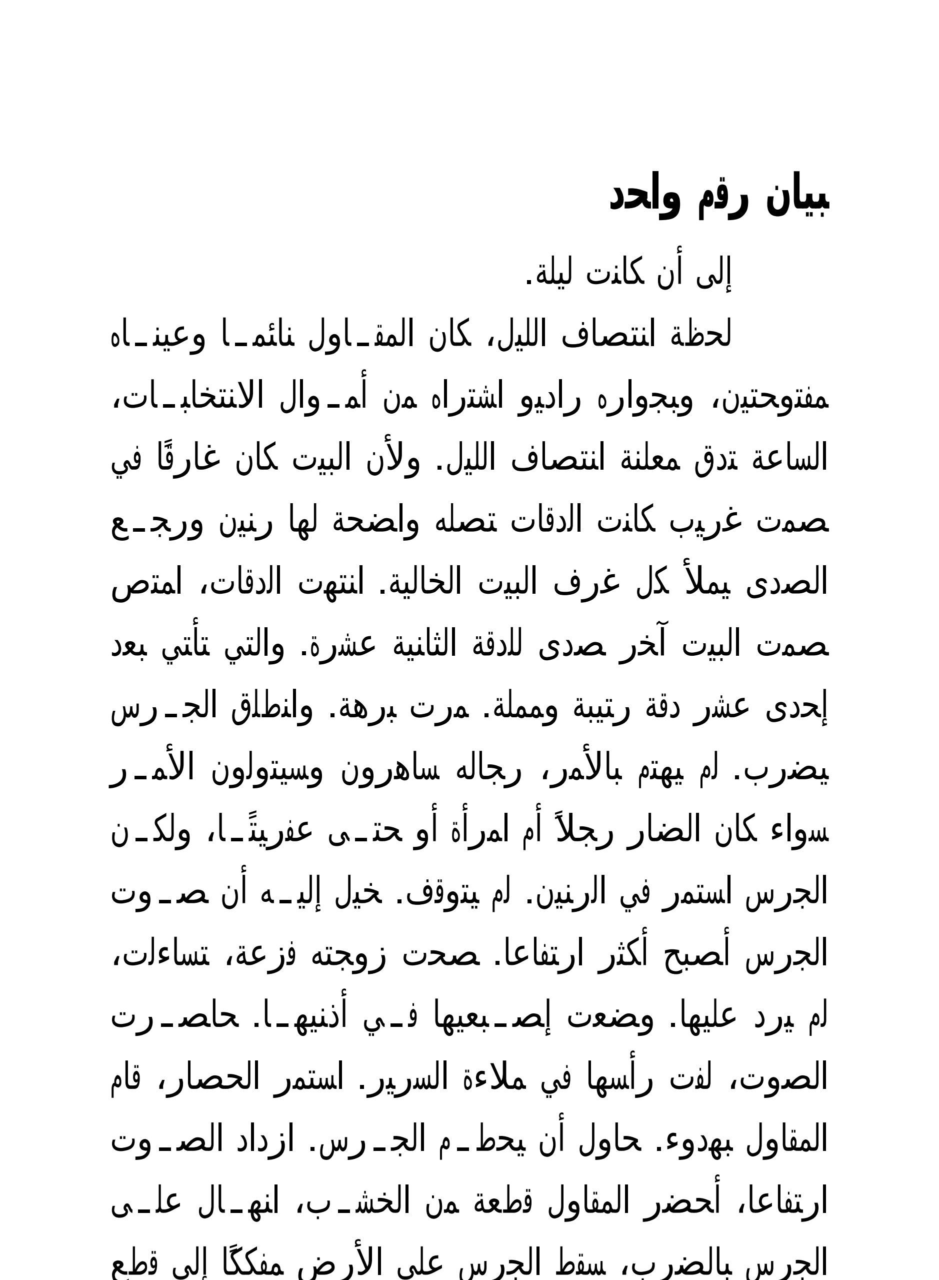
إنذار يستخدم الكهرباء، أحدث ما دخل البلد ولا بد من اليقظة ومحاولة معرفة من الذين يقفون وراءه الحكاية أكبر من هذا. وراءها ما وراءها من الأمور الخطيرة. يومها قرر أن يقـيم في بيت أحدث زوجاته الموجودة في وسـط، البلـد بصـفة نهائية، حيث توجد خزينته ومكتبه ومصالحه وأمواله ضاربا باعتراضات زوجتيه الأخيرتين عرض الحائط.

أشار عليه أحد أعوانه بإلغاء الجـرس وفـك زره. رفض الفكرة من أساسها، هاج فيهم، قال إن مجـرد طـرح الفكرة فأل سيء وأنه قادر على حماية آلاف الجرسات وليس جرسا واحدا، وأن صديقه النائب يستطيع أن يرسل له كتيبة كاملة.

شاعت قصة الجرس في البلد. وتفرغت مجموعة من الشبان لحكاية الجرس. وأقسم المقاول أن المقاولين الصـغار والذين وقفوا مع المرشحين المنافسين لمرشحه المحترم، هم الذين يقفون وراء معاكسات الجرس، إنها مـؤامرة الهـدف منها إفساد استخدامات الكهرباء في بيته. للقضاء على آفـاق الكهرباء في البلد كلها. شدد الحراسة. وكلف اثنـين بالقيـام بحراسة زر الجرس.

هدأ الأمر في اليوم الأول. قضى نهاره بدون رنين وتصور أنه استراح ولكن في الليلة التالية وفي ساعة الفجر الرمادية الموحشة، الساعة التي يصل السكون فيها إلى منتهاه، رن الجرس رنة مفاجئة، مزقت السكون، قام فزعا. خرج وجد الحارسين يجريان، الذي أدهشه أنهما كان يجريان وراء مجموعة من نساء البلد. عاد الحارسان إليه وأكدا له أن وجوه النساء كانت غريبة بالنسبة لهما. وقال أحدهما إن النساء من الجن والعفاريت. المقاول رجل واقعي، لا يسمح للأوهام أن تتسلل إلى قلبه، لذلك أصر على أن النساء من البلد وأكد أن الفجر له خيالات غريبة تفقد الإنسان القدرة على الرؤية.

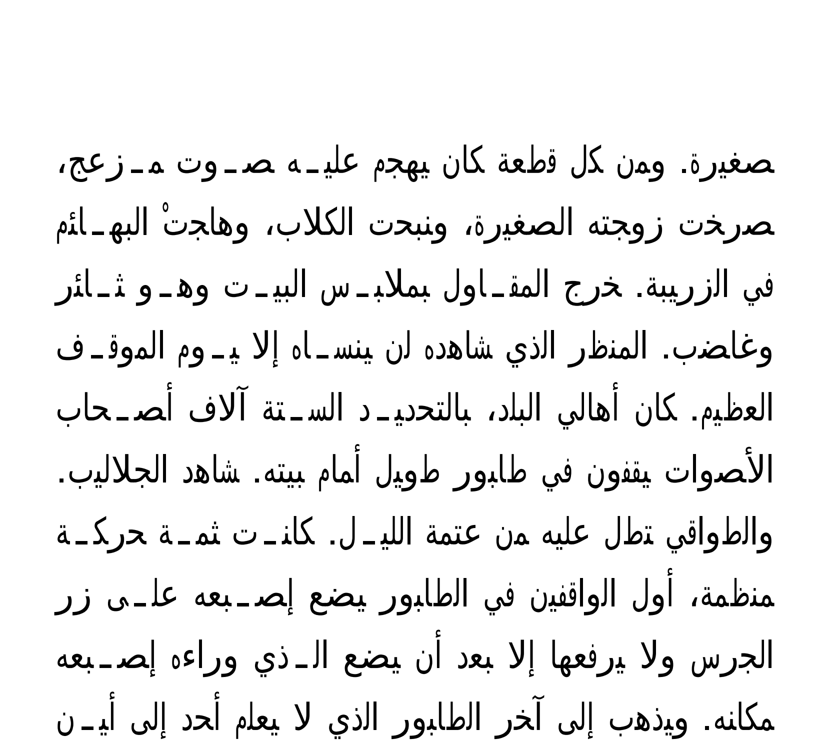
في الصباح مر في حواري البلد. عاكسه الشبان بأن ضغطوا بأصابعهم على زر جرس وهمي في الفراغ. فجرى وراءهم وسماه الأولاد المقاول الزر، ولكن المقاول طمأن نفسه بمجرد وصول المعدات وافتتاح المشروعات سيعمل فيها نصف أهالي البلد. وسيصبح من جديد الرجل الذي يمنح ويمنع حتى الحياة نفسها.



بيان رقم واحد

إلى أن كانت ليلة.

لحظة انتصاف الليل، كان المقـاول نائمـا وعينـاه مفتوحتين، وبجواره راديو اشتراه من أمـوال الانتخابـات، الساعة تدق معلنة انتصاف الليل. ولأن البيت كان غارقًا في صمت غريب كانت الدقات تصله واضحة لها رنين ورجـع الصدى يملأ كل غرف البيت الخالية. انتهت الدقات، امتص صمت البيت آخر صدى للدقة الثانية عشرة. والتي تأتي بعد إحدى عشر دقة رتيبة ومملة. مرت برهة. وانطلق الجـرس يضرب. لم يهتم بالأمر، رجاله ساهرون وسيتولون الأمـر سواء كان الضار رجلاً أم امرأة أو حتـى عفريتًـا، ولكـن الجرس استمر في الرنين. لم يتوقف. خيل إليـه أن صـوت الجرس أصبح أكثر ارتفاعا. صحت زوجته فزعة، تساءلت، لم يرد عليها. وضعت إصـبعيها فـي أذنيهـا. حاصـرت الصوت، لفت رأسها في ملاءة السرير. استمر الحصار، قام المقاول بهدوء. حاول أن يحطـم الجـرس. ازداد الصـوت ارتفاعا، أحضر المقاول قطعة من الخشـب، انهـال علـى الجرس بالضرب، سقط الجرس على الأرض مفككًا إلى قطع



صغيرة. ومن كل قطعة كان يهجم عليه صوت مزعج، صرخت زوجته الصغيرة، ونبحت الكلاب، وهاجتْ البهائم في الزريبة. خرج المقاول بملابس البيت وهو ثائر وغاضب. المنظر الذي شاهده لن ينساه إلا يوم الموقف العظيم. كان أهالي البلد، بالتحديد الستة آلاف أصحاب الأصوات يقفون في طابور طويل أمام بيته. شاهد الجلاليب. والطواقي تطل عليه من عتمة الليل. كانت ثمة حركة منظمة، أول الواقفين في الطابور يضع إصبعه على زر الجرس ولا يرفعها إلا بعد أن يضع الذي وراءه إصبعه مكانه. ويذهب إلى آخر الطابور الذي لا يعلم أحد إلى أين يمتد، وقف المقاول. لم يتكلم. لم يتقدم خطوة واحدة. لم يفعل أي شيء، وقف يشاهد ما يحدث في صمت مشحون بالانفعالات. ظل واقفًا إلى أن تعبت قدماه. ولم يدخل البيت، أحضر زوجته الحسناء وأمر بأن يفتح المكتب، جلسا فيه حتى الصباح، وأصبحت متعة أهل البلد متعتين. ضرب الجرس ومشاهدة زوجة المقاول الصغيرة والتي لم تنكشف على رجل من قبل في البلد كلها.

أتى الصباح والطابور ما يزال في حركته البطيئـة. أرسل المقاول أحد أعوانه إلى البندر. لكي يحضر كهربائي. يفك له الجرس وكل التوصيلات الكهربائية في بيوته الثلاثة، حضر الكهربائي. كان الطابور ما يزال مستمرا في دورانـه النهائي. لم يتمكن الكهربائي من فك الزر ولا حتى الاقتراب من البيت. لكي يفصل التيار. اتجه أحد أعوان المقاول إليـه يسأله هل يفصل التيار عن البلاد كلها.

فلم يرد عليه.

رحلة الأسطى أحمد وأخته بهية

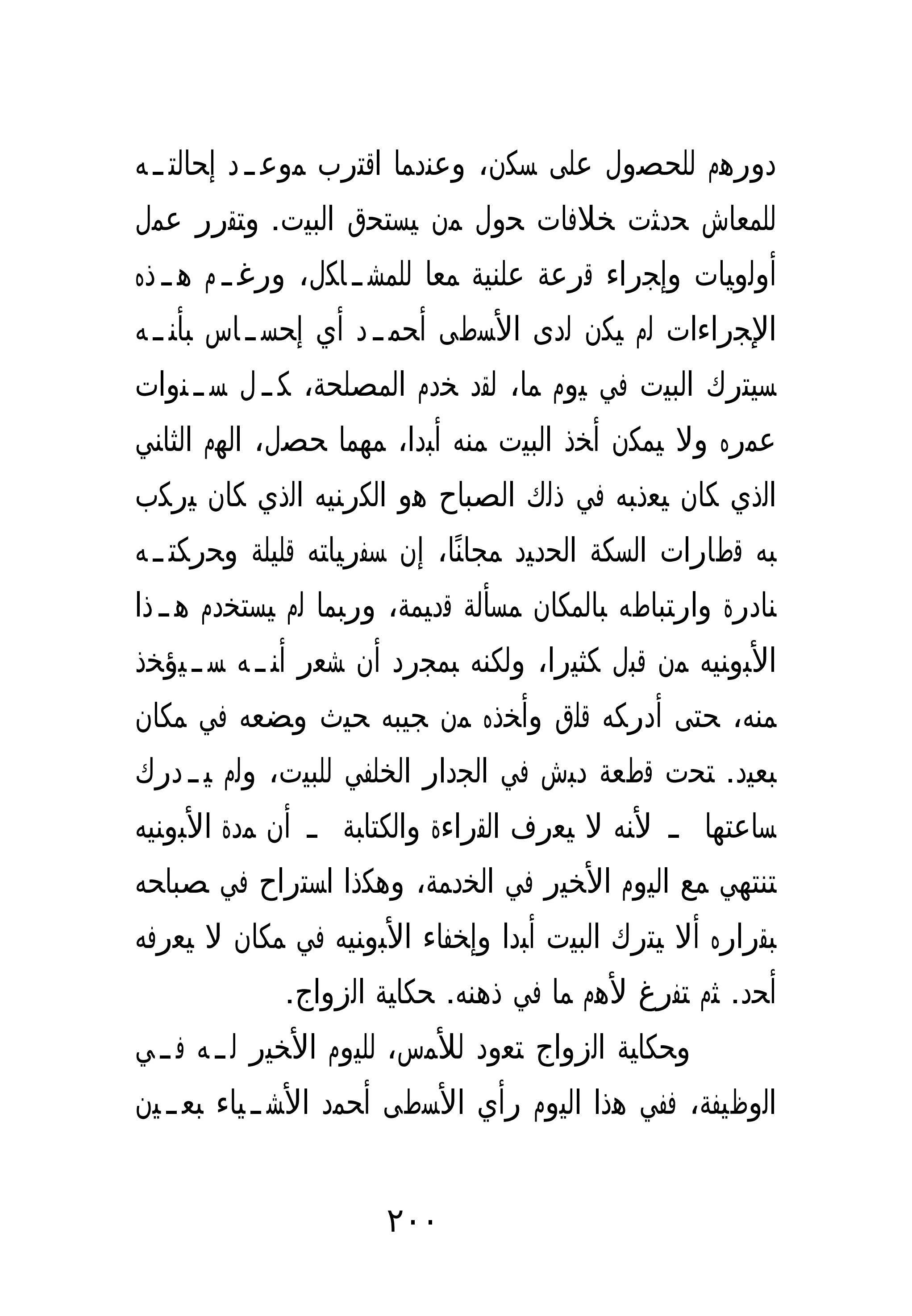
ـ هل تبدأ الحياة بعد الخامسة والستين؟

سؤال طرحه الأسطى أحمد، على نفسه، فـي ذلـك الصباح الذي لم يكن جميلاً والذي بلغ فيـه سـن الخامسـة والستين، وتقرر أن يحال للمعاش، لم تكن لديه إجابة، وسبب طرح السؤال، أن الأسطى أحمد قرر أن يقوم بأغرب فعـل يقوم به الإنسان في مثل هذا اليوم، قرر أن يتزوج. وأن يتم الزواج في نفس هذا اليوم بالذات، وعندما وصل إلى قـرار الزواج، قال لنفسه في خوف: ربما كانت صـحوة المـوت. فالإنسان تصيبه حالة من اليقظة الغريبة قبل النهاية بلحظات قصيرة، قال لنفسه إنه ربمـا كـان حسـاب السـنين معـه بالمقلوب. النهاية مكان البداية والبداية بدلاً من النهاية، هكذا فكر. بالأمس فقط وصل خطاب صغير إلى المحطـة التـي عمل في دائرتها من إدارة شئون العاملين. الخطاب قصـير وحاسم ومدبب. أسطر معدودة تقول إنه وصل إلـى السـن القانوني ابتداء من ذلك الصباح، سويت حالته وحصل علـى خطاب جديد موجه لإدارة المعاشات، يخطرها بالبـدء فـي

صرف معاشه، وهكذا وجد نفسه وحيـدا، ومعـه الخطـاب وأمامه عدد لا نهاية له من الأيام والليالي. لا يعرف كيـف يقضيه حيث الطريق إلى القبر يبدو بدون نقطة بدء، وليست له محطة وصول، وأتى الصباح الذي لن يخـرج الأسـطى أحمد عمله، لأنه لم يعد لديه عمل يذهب إليه. بـدأ النهـار، وفقد الصباح طقوسه الجميلة فضلاً عن أن هناك مشكلة لـم تحل، مشكلة البيت الذي يعيش فيه. الحـديث عـن البيـت والمعاش والمشاكل يتطلب البدء بالحديث عن عمله والأسطى أحمد كان من عمال الدريسة، لا أحد يعـرف أصـل كلمـة الدريسة هذه. ولكنه يعمل في إصلاح قضبان قطارات السكة الحديد وصيانتها والتأكد من تثبيت الفلنكات الخشبية بالأرض وثبات قطبي السكة الحديد بالفلنكات. المسافة التي يعمل فيها تصل لحوالي أربعين كيلو مترا على طريق السكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية. كان عامل دريسة، وهذا معناه أنه كان في قاع العمل، فوقه رؤساء لا يحصـيهم العـد الملاحـظ، المراقب الهندسي، الباشمهندس، المدير والمدير العام. صف طويل من الأفندية لا عمل لهم سوى رئاسة الأسطى أحمـد، وهو الوحيد فيهم الذي يتعامل مع قضبان السكة الحديد. يمر

على القضبان والفلنكات في المسافة التي يعمل بهـا. ويبلـغ الرؤساء بما يجده وهم ينصرفون. لم يكن يعمل بمفرده، معه أربعة عمال، كان المفروض أن يكون هو الأسطى علـيهم. ظروف الأيام المقلوبة جعلت غيره رئيسا عليه أمـا كلمـة الأسطى التي تسبق اسمه. فسببها الوحيد، تقدمه فـي السـن وأقدميته في العمل. طول عمره وهو وحيد. لا يعـرف الآن كيف مضى هذا العمر، ولا كيف تسربت لحظاتـه وأيامـه ببطء قاتل. أصله في الأساس من إحـدى القـرى القريبـة. وكانت له قطعة صغيرة من الأرض. من يوم حصوله علـى العمل في المصلحة ترك البلد. قال إخوته إن من يترك داره ينهد شرفه ويقل مقداره. بدأ النزاع على قطعة الأرض التي تخصه. ولكنه منحها لأخته بهية أصغر إخوته. والأقرب إلى ابنته منها إلى أخته. وعندما بدأ الحديث عن المعاش: حـاول بكل الوسائل أن يبقى في العمل. كتب الالتماسـات وأرسـل الشكاوى. وقال إنه قادر على العمل. وليس في حياتـه مـا يعمله، المعاش يعني بالنسبة له الموت. هكذا تصور. وحاول أن يقنع رؤساءه. الشكاوى التي أرسلها عادت إليه. المعنـى واحد في كل الردود وإن اختلفت الكلمات مـن رد لآخـر.

العمل بعد من الخامسة والستين بالنسـبة لعمـال الدريسـة ممنوع. لا أحد يملك الحق في إصدار مثل هذا القـرار. وإن صدر فلابد من القول في مذكرات وأوراق رسمية كثيرة إنه لا يوجد شخص آخر يصلح للقيام بعمله. أحنى رأسه. ولـم يجرؤ على إثارة حكاية البيت الذي يعيش فيـه وهـو ملـك للمصلحة، بيت مبني من الدبش الأبيض، غرفة واحدة منعزلة عن مساكن باقي العاملين في السكة الحديـد لأنـه أعـزب، بالقرب من بابه يمتد شريط السكة الحديد، خلفه طلمبة ترفـع المياه إلى فنطاس فوق البيت كان يـديرها بنفسـه وبجـوار الطلمبة عنباية زرعها بنفسه في الزمـان القـديم، وظللـت البيت، وفي المسافة التي تفصل بين البيت والسور الذي يحدد مساحة الأرض التابعة للسكة الحديد، توجـد تكعيبـة مـن الخشب تنام فوقها شجرة العنب. ومن وراء السـور ترعـة وخلف الترعة طريق السيارات، عالم متحرك من خلفه ومن أمامه وهو وحـده الثابـت فـي الأرض، كأنـه دق إليهـا بالمسامير، لم يكن يعرف هل ستأخذ الهيئة البيت منه؟ هـذا مفروض. فالمساكن تعطى لمن بالخدمة فقط، ويوجد طـابور طويل من العاملين الذين لم يحصلوا على سكن وينتظـرون



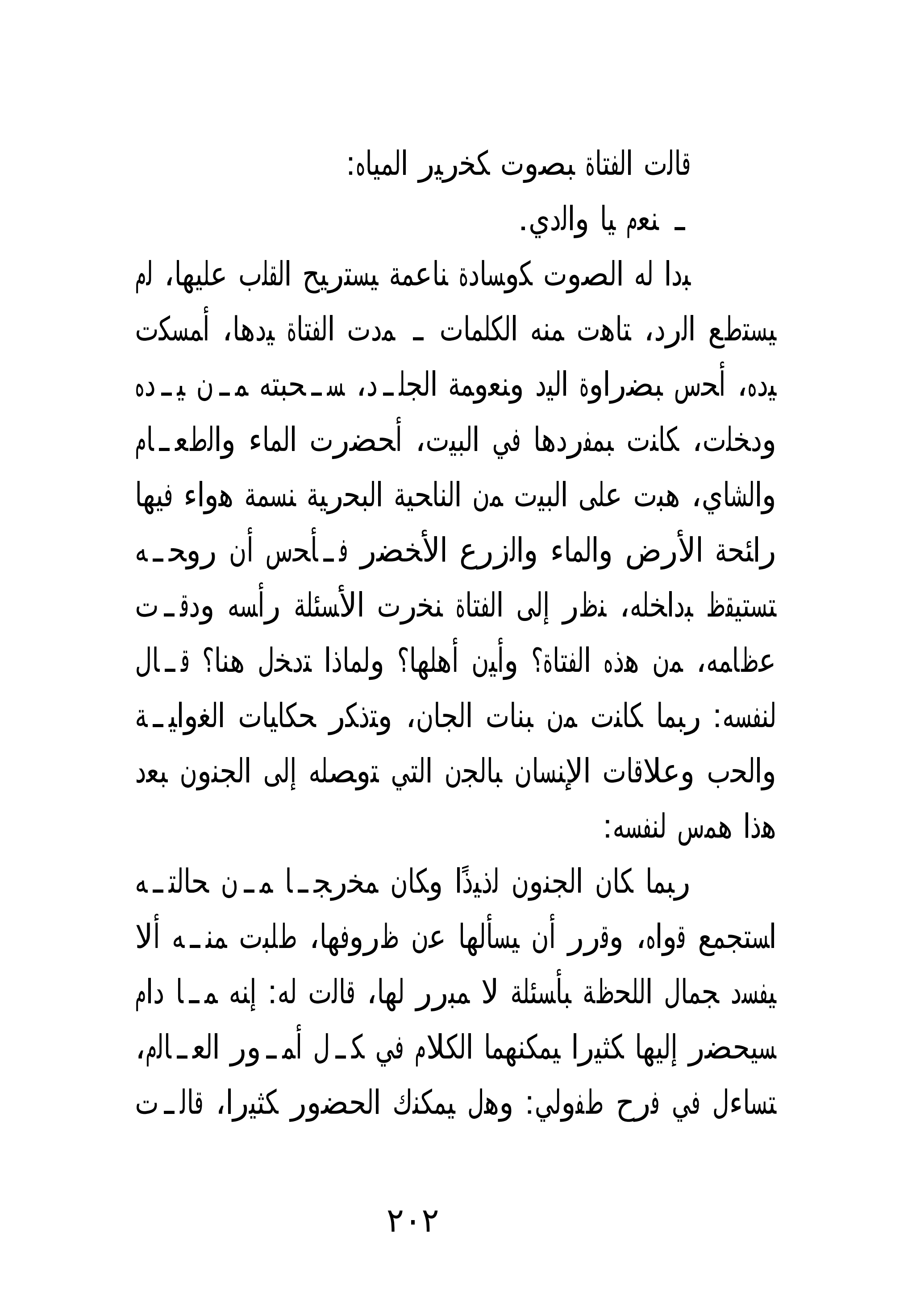
دورهم للحصول على سكن، وعندما اقترب موعـد إحالتـه للمعاش حدثت خلافات حول من يستحق البيت. وتقرر عمل أولويات وإجراء قرعة علنية معا للمشـاكل، ورغـم هـذه الإجراءات لم يكن لدى الأسطى أحمـد أي إحسـاس بأنـه سيترك البيت في يوم ما، لقد خدم المصلحة، كـل سـنوات عمره ولا يمكن أخذ البيت منه أبدا، مهما حصل، الهم الثاني الذي كان يعذبه في ذلك الصباح هو الكرنيه الذي كان يركب به قطارات السكة الحديد مجانًا، إن سفرياته قليلة وحركتـه نادرة وارتباطه بالمكان مسألة قديمة، وربما لم يستخدم هـذا الأبونيه من قبل كثيرا، ولكنه بمجرد أن شعر أنـه سـيؤخذ منه، حتى أدركه قلق وأخذه من جيبه حيث وضعه في مكان بعيد. تحت قطعة دبش في الجدار الخلفي للبيت، ولم يـدرك ساعتها - لأنه لا يعرف القراءة والكتابة - أن مدة الأبونيه تنتهي مع اليوم الأخير في الخدمة، وهكذا استراح في صباحه بقراره ألا يترك البيت أبدا وإخفاء الأبونيه في مكان لا يعرفه أحد. ثم تفرغ لأهم ما في ذهنه. حكاية الزواج.

وحكاية الزواج تعود للأمس، لليوم الأخير لـه فـي الوظيفة، ففي هذا اليوم رأي الأسطى أحمد الأشـياء بعـين

جديدة، واستقرت المرئيات في قاع العين، وتسللت إلى القلب المتعب والعقل الذي أصابه صدأ الأيام. اكتشف أنـه كـان هناك الكثير من الأشياء لم يكن يراها جيدا، بسـبب الألفـة اليومية. وقد وجد نفسه ينفض تراب الألفة عما يراه، وهكذا قرر أن يمر بالمنطقة التي قضى العمر كله وهو يعمل بهـا حتى لو استغرق ذلك اليوم كله، في آخر المنطقة التي يعمل فيها من الناحية القبلية يوجد بيت مهجور، لم يكتشف وجوده إلا في هذا اليوم، عندما اقترب من البيت الغريب المهجـور، شعر بعطش جارف، الزمزمية التي رافقته في رحلة العمـر لم تكن معه، اقترب أكثر من البيت، وجد حولـه علامـات ودلائل حياة فيه دق الباب، صفق بيديه، صاح قائلاً.

ـ يا أهل ا .

كانت دهشته بالغة عندما فتح الباب وأطلت منه فتـاة وجهها كالبدر المنور، تساءل لحظة رؤيته لها إن كانت ابنته أو حفيدته وهو لا يدري، نظر إليها وسكت، شعر بجفاف في حلقه، وبحبات عرق تنبت في أكثر مـن مكـان بجسـمه، وأسرعت دقات القلب وغامت الرؤيا أمامه، فلم يتكلم تعطلت بداخله الكلمات وماتت على الشفتين همسات نسجتها اللحظة.

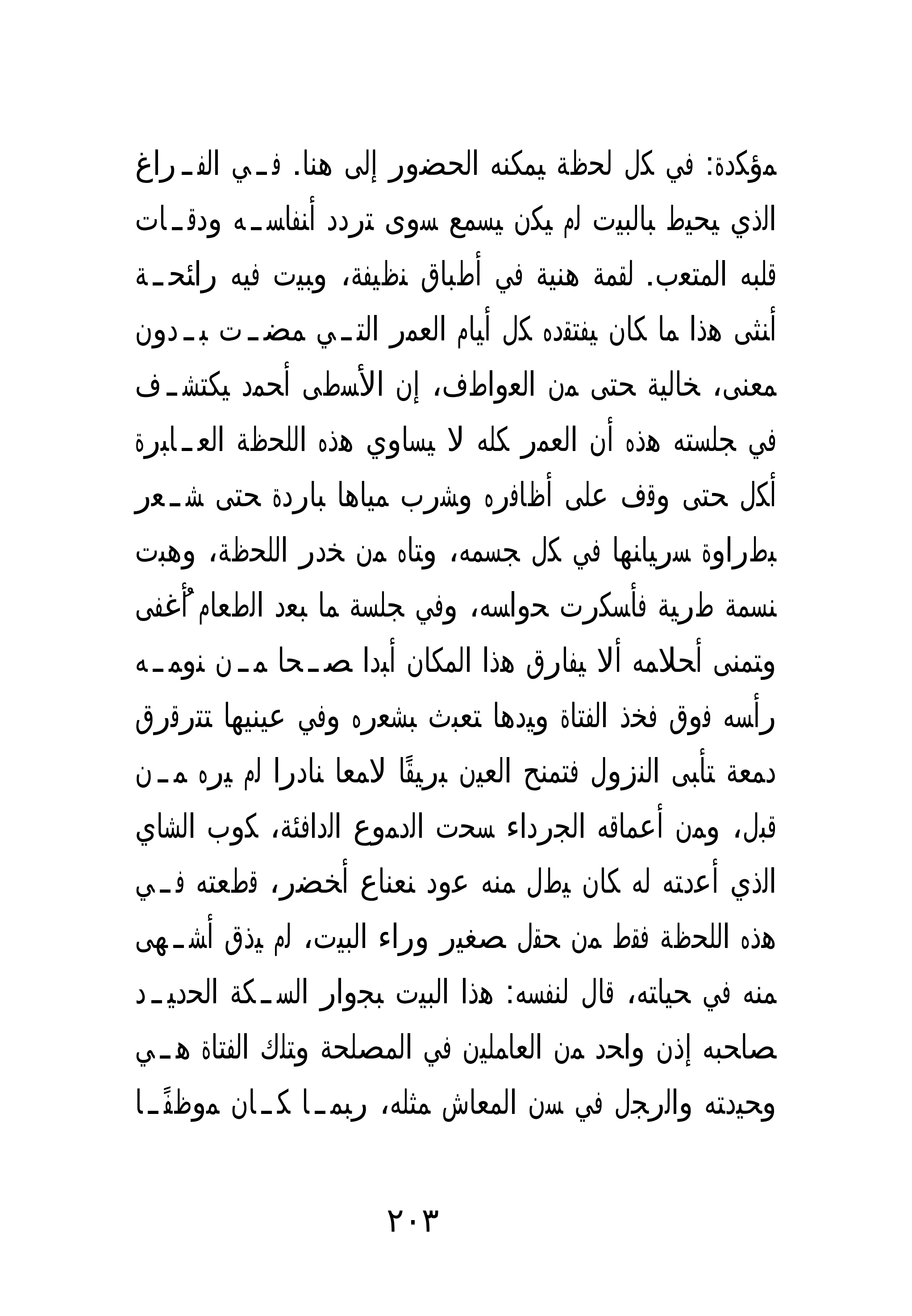


قالت الفتاة بصوت كخرير المياه:

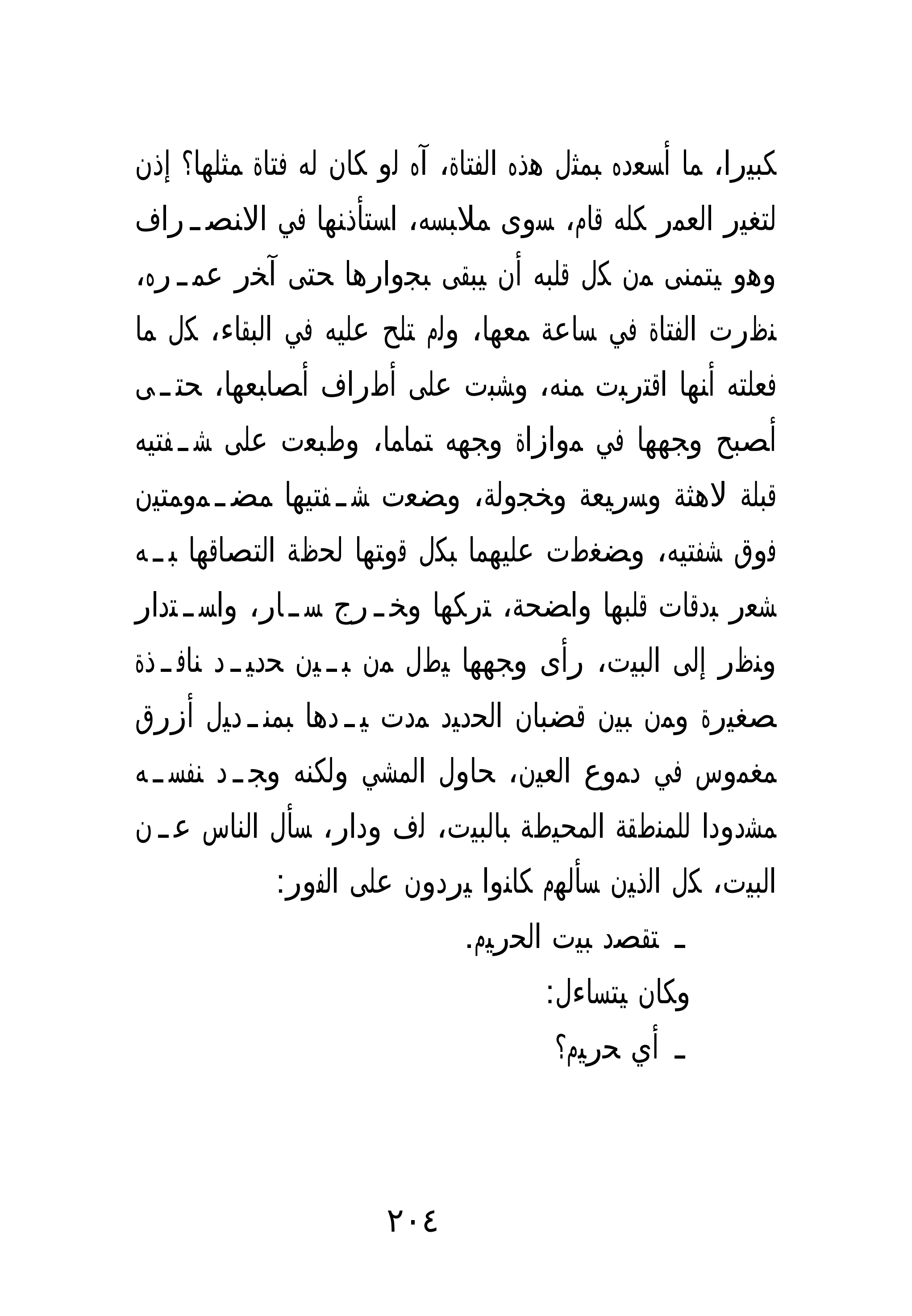
ـ نعم يا والدي.

بدا له الصوت كوسادة ناعمة يستريح القلب عليها، لم يستطع الرد، تاهت منه الكلمات ـ مدت الفتاة يدها، أمسكت يده، أحس بضراوة اليد ونعومة الجلـد، سـحبته مـن يـده ودخلت، كانت بمفردها في البيت، أحضرت الماء والطعـام والشاي، هبت على البيت من الناحية البحرية نسمة هواء فيها رائحة الأرض والماء والزرع الأخضر فـأحس أن روحـه تستيقظ بداخله، نظر إلى الفتاة نخرت الأسئلة رأسه ودقـت عظامه، من هذه الفتاة؟ وأين أهلها؟ ولماذا تدخل هنا؟ قـال لنفسه: ربما كانت من بنات الجان، وتذكر حكايات الغوايـة والحب وعلاقات الإنسان بالجن التي توصله إلى الجنون بعد هذا همس لنفسه:

ربما كان الجنون لذيذًا وكان مخرجـا مـن حالتـه استجمع قواه، وقرر أن يسألها عن ظروفها، طلبت منـه ألا يفسد جمال اللحظة بأسئلة لا مبرر لها، قالت له: إنه مـا دام سيحضر إليها كثيرا يمكنهما الكلام في كـل أمـور العـالم، تساءل في فرح طفولي: وهل يمكنك الحضور كثيرا، قالـت



مؤكدة: في كل لحظة يمكنه الحضور إلى هنا. في الفراغ الذي يحيط بالبيت لم يكن يسمع سوى تردد أنفاسه ودقات قلبه المتعب. لقمة هنية في أطباق نظيفة، وبيت فيه رائحة أنثى هذا ما كان يفتقده كل أيام العمر التي مضت بدون معنى، خالية حتى من العواطف، إن الأسطى أحمد يكتشف في جلسته هذه أن العمر كله لا يساوي هذه اللحظة العابرة أكل حتى وقف على أظافره وشرب مياها باردة حتى شعر بطراوة سريانها في كل جسمه، وتاه من خدر اللحظة، وهبت نسمة طرية فأسكرت حواسه، وفي جلسة ما بعد الطعام أُغفى وتمنى أحلامه ألا يفارق هذا المكان أبدا صحا من نومه رأسه فوق فخذ الفتاة ويدها تعبث بشعره وفي عينيها تترقرق دمعة تأبى النزول فتمنح العين بريقًا لامعا نادرا لم يره من قبل، ومن أعماقه الجرداء سحت الدموع الدافئة، كوب الشاي الذي أعدته له كان يطل منه عود نعناع أخضر، قطعته في هذه اللحظة فقط من حقل صغير وراء البيت، لم يذق أشهى منه في حياته، قال لنفسه: هذا البيت بجوار السكة الحديد صاحبه إذن واحد من العاملين في المصلحة وتلك الفتاة هي وحيدته والرجل في سن المعاش مثله، ربما كان موظفًا

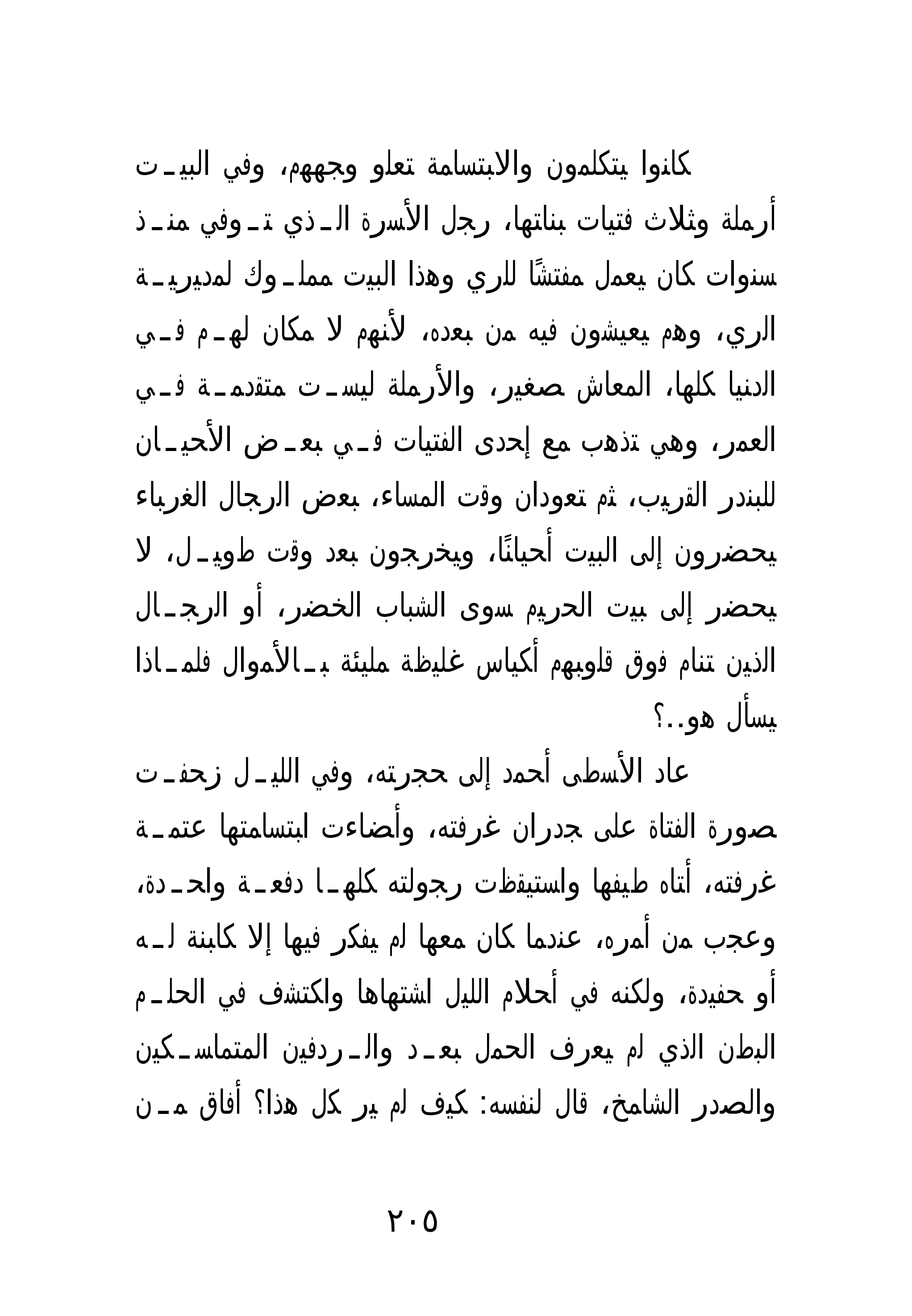


كبيرا، ما أسعده بمثل هذه الفتاة، آه لو كان له فتاة مثلها؟ إذن لتغير العمر كله قام، سوى ملابسه، استأذنها في الانصـراف وهو يتمنى من كل قلبه أن يبقى بجوارها حتى آخر عمـره، نظرت الفتاة في ساعة معها، ولم تلح عليه في البقاء، كل ما فعلته أنها اقتربت منه، وشبت على أطراف أصابعها، حتـى أصبح وجهها في موازاة وجهه تماما، وطبعت على شـفتيه قبلة لاهثة وسريعة وخجولة، وضعت شـفتيها مضـمومتين فوق شفتيه، وضغطت عليهما بكل قوتها لحظة التصاقها بـه شعر بدقات قلبها واضحة، تركها وخـرج سـار، واسـتدار ونظر إلى البيت، رأى وجهها يطل من بـين حديـد نافـذة صغيرة ومن بين قضبان الحديد مدت يـدها بمنـديل أزرق مغموس في دموع العين، حاول المشي ولكنه وجـد نفسـه مشدودا للمنطقة المحيطة بالبيت، اف ودار، سأل الناس عـن البيت، كل الذين سألهم كانوا يردون على الفور:

ـ تقصد بيت الحريم.

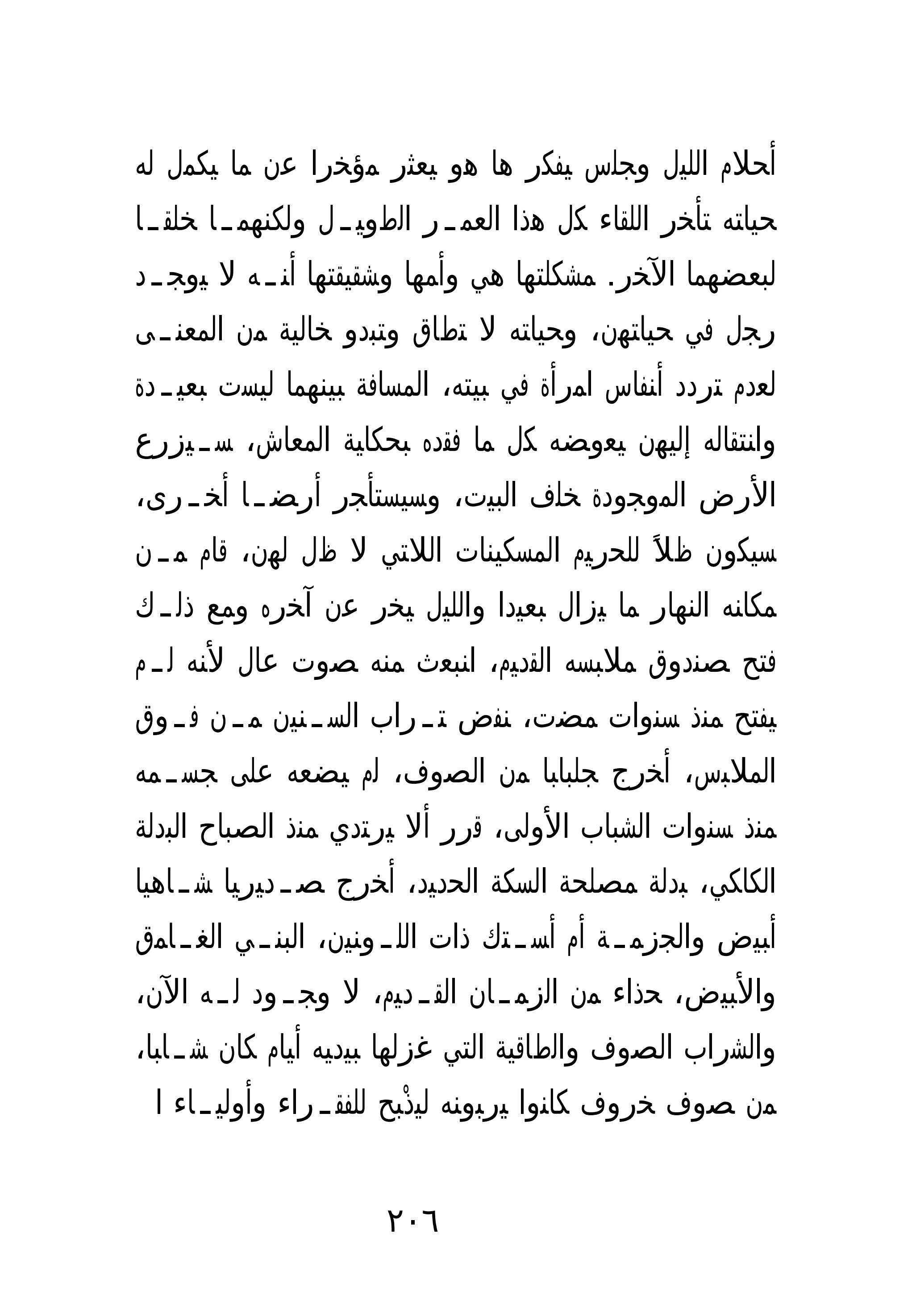
وكان يتساءل:

ـ أي حريم؟

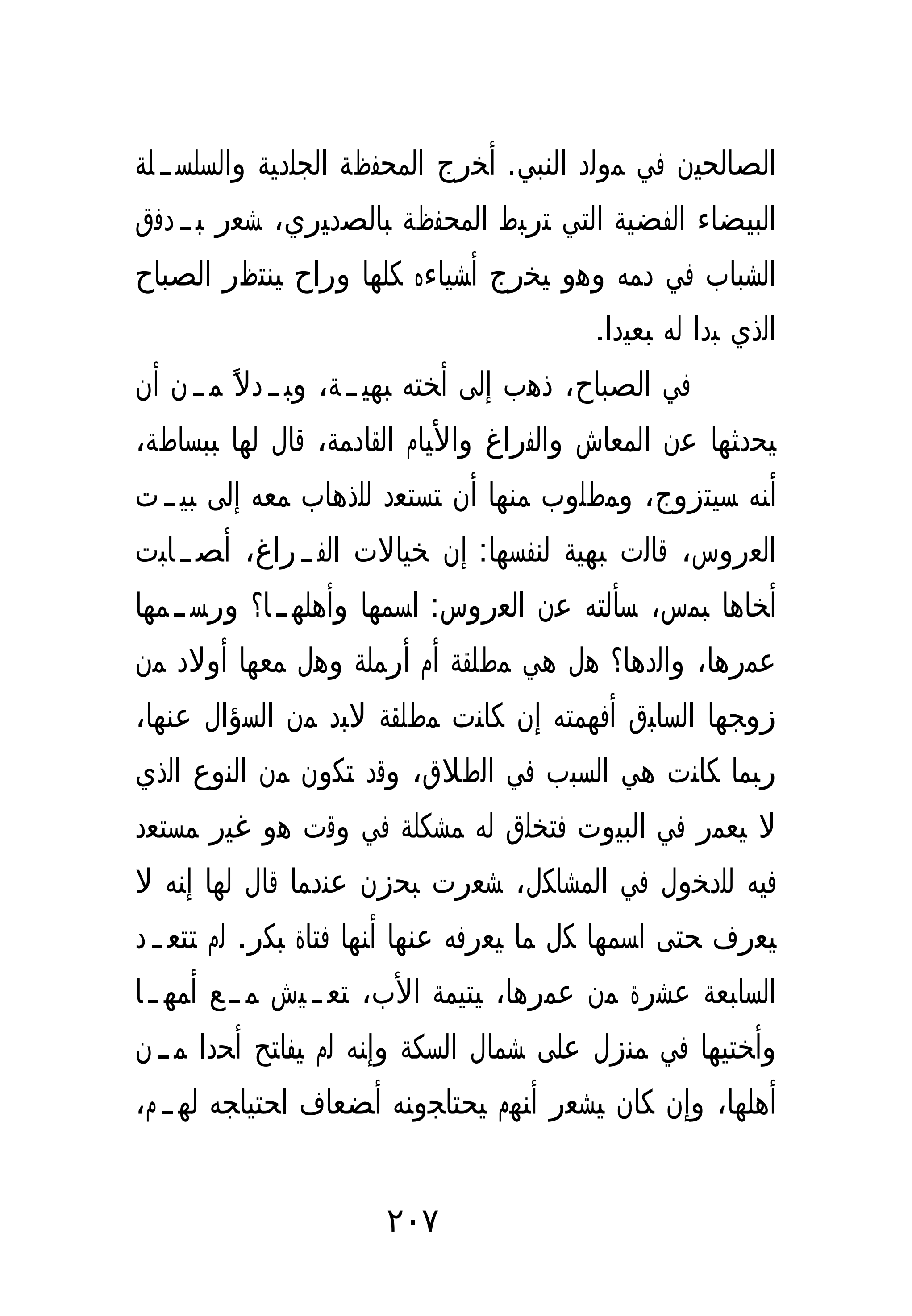


كانوا يتكلمون والابتسامة تعلو وجههم، وفي البيـت أرملة وثلاث فتيات بناتها، رجل الأسرة الـذي تـوفي منـذ سنوات كان يعمل مفتشًا للري وهذا البيت مملـوك لمديريـة الري، وهم يعيشون فيه من بعده، لأنهم لا مكان لهـم فـي الدنيا كلها، المعاش صغير، والأرملة ليسـت متقدمـة فـي العمر، وهي تذهب مع إحدى الفتيات فـي بعـض الأحيـان للبندر القريب، ثم تعودان وقت المساء، بعض الرجال الغرباء يحضرون إلى البيت أحيانًا، ويخرجون بعد وقت طويـل، لا يحضر إلى بيت الحريم سوى الشباب الخضر، أو الرجـال الذين تنام فوق قلوبهم أكياس غليظة مليئة بـالأموال فلمـاذا يسأل هو..؟

عاد الأسطى أحمد إلى حجرته، وفي الليـل زحفـت صورة الفتاة على جدران غرفته، وأضاءت ابتسامتها عتمـة غرفته، أتاه طيفها واستيقظت رجولته كلهـا دفعـة واحـدة، وعجب من أمره، عندما كان معها لم يفكر فيها إلا كابنة لـه أو حفيدة، ولكنه في أحلام الليل اشتهاها واكتشف في الحلـم البطن الذي لم يعرف الحمل بعـد والـردفين المتماسـكين والصدر الشامخ، قال لنفسه: كيف لم ير كل هذا؟ أفاق مـن



أحلام الليل وجلس يفكر ها هو يعثر مؤخرا عن ما يكمل له حياته تأخر اللقاء كل هذا العمـر الطويـل ولكنهمـا خلقـا لبعضهما الآخر. مشكلتها هي وأمها وشقيقتها أنـه لا يوجـد رجل في حياتهن، وحياته لا تطاق وتبدو خالية من المعنـى لعدم تردد أنفاس امرأة في بيته، المسافة بينهما ليست بعيـدة وانتقاله إليهن يعوضه كل ما فقده بحكاية المعاش، سـيزرع الأرض الموجودة خلف البيت، وسيستأجر أرضـا أخـرى، سيكون ظلاً للحريم المسكينات اللاتي لا ظل لهن، قام مـن مكانه النهار ما يزال بعيدا والليل يخر عن آخره ومع ذلـك فتح صندوق ملابسه القديم، انبعث منه صوت عال لأنه لـم يفتح منذ سنوات مضت، نفض تـراب السـنين مـن فـوق الملابس، أخرج جلبابا من الصوف، لم يضعه على جسـمه منذ سنوات الشباب الأولى، قرر ألا يرتدي منذ الصباح البدلة الكاكي، بدلة مصلحة السكة الحديد، أخرج صـديريا شـاهيا أبيض والجزمـة أم أسـتك ذات اللـونين، البنـي الغـامق والأبيض، حذاء من الزمـان القـديم، لا وجـود لـه الآن، والشراب الصوف والطاقية التي غزلها بيديه أيام كان شـابا، من صوف خروف كانوا يربونه ليذْبح للفقـراء وأوليـاء ا


الصالحين في مولد النبي. أخرج المحفظة الجلدية والسلسـلة البيضاء الفضية التي تربط المحفظة بالصديري، شعر بـدفق الشباب في دمه وهو يخرج أشياءه كلها وراح ينتظر الصباح الذي بدا له بعيدا.

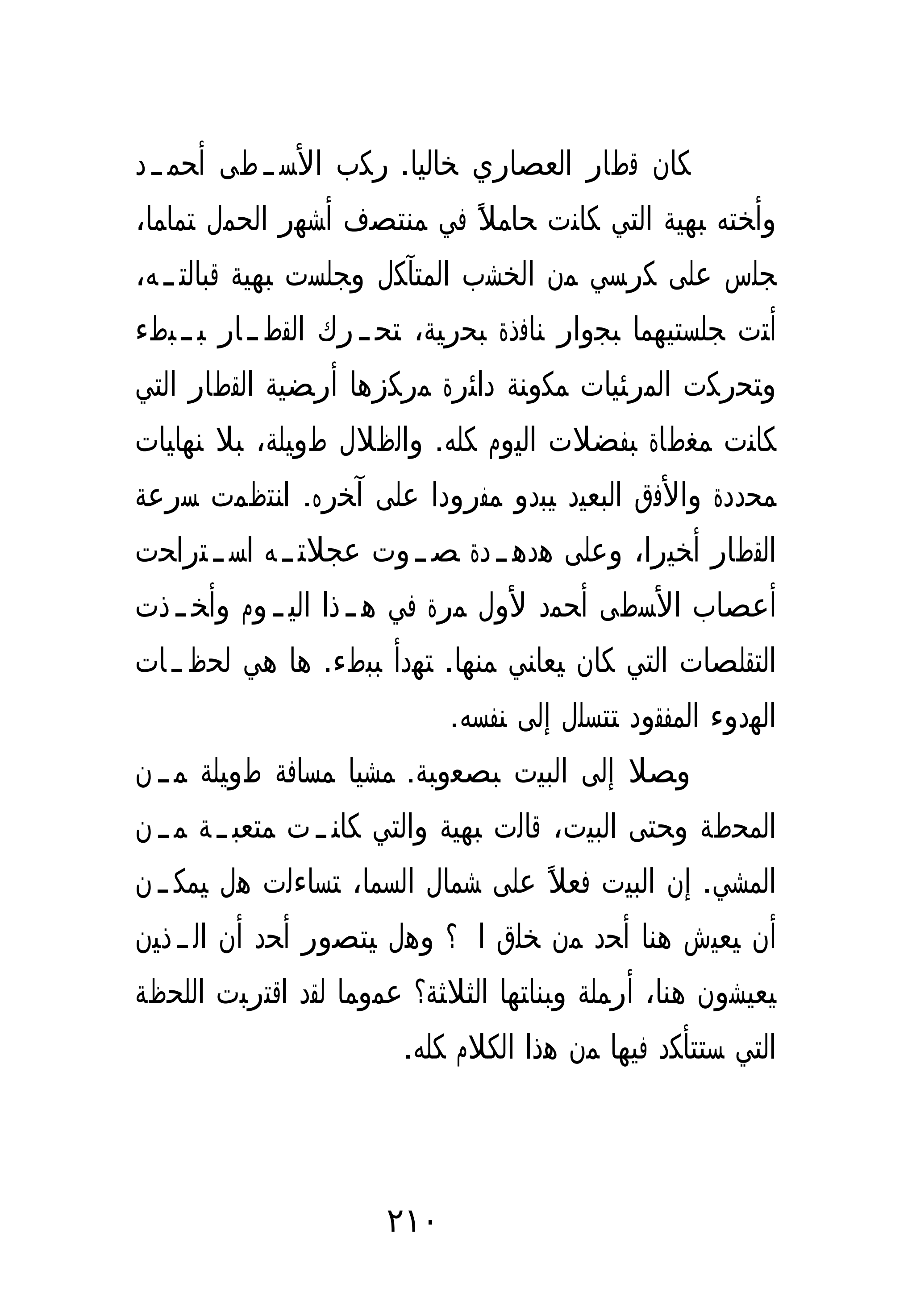
في الصباح، ذهب إلى أخته بهيـة، وبـدلاً مـن أن يحدثها عن المعاش والفراغ والأيام القادمة، قال لها ببساطة، أنه سيتزوج، ومطلوب منها أن تستعد للذهاب معه إلى بيـت العروس، قالت بهية لنفسها: إن خيالات الفـراغ، أصـابت أخاها بمس، سألته عن العروس: اسمها وأهلهـا؟ ورسـمها عمرها، والدها؟ هل هي مطلقة أم أرملة وهل معها أولاد من زوجها السابق أفهمته إن كانت مطلقة لابد من السؤال عنها، ربما كانت هي السبب في الطلاق، وقد تكون من النوع الذي لا يعمر في البيوت فتخلق له مشكلة في وقت هو غير مستعد فيه للدخول في المشاكل، شعرت بحزن عندما قال لها إنه لا يعرف حتى اسمها كل ما يعرفه عنها أنها فتاة بكر. لم تتعـد السابعة عشرة من عمرها، يتيمة الأب، تعـيش مـع أمهـا وأختيها في منزل على شمال السكة وإنه لم يفاتح أحدا مـن أهلها، وإن كان يشعر أنهم يحتاجونه أضعاف احتياجه لهـم،

مشكلتهن الأساسية وجود رجل في بيت تعيش فيـه أرملـة مكسورة الجناح وثلاث بنات الرجل هو السند الوحيد لهـن، مسألة رفضه غير واردة أبدا، وهذا ما تُحدثه به نفسه بعـد زيارة الأمس.

ـ عليه العوض ومنه العوض، جن أحمد.

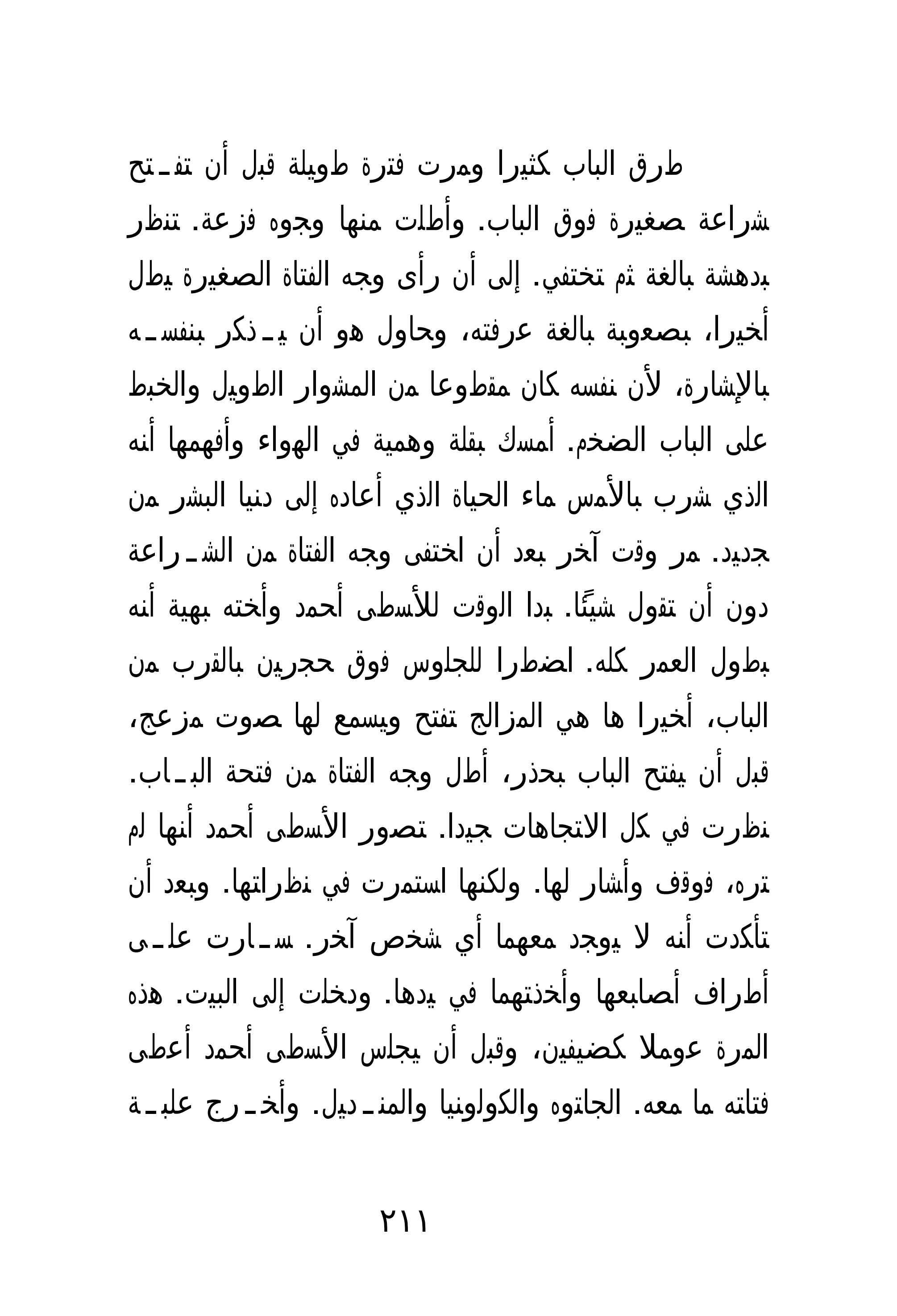
قالت بهية لنفسها، وإن كانت قد تظاهرت بالصـمت التام أمامه. تصميمه جعلها تخشى التفكير في رفض طلبـه، قالت لنفسها: لتذهب حتى آخر المطـاق. وعنـدما يكتشـف بنفسه الأوهام التي يجر وراءها فإن هذا أفضل من النقـاش والجدل، تركها على أن يعود إليها وقت العصاري، حيث إنه أنسب الأوقات لأهل العروس. كان كل مـا معـه.. ثمانيـة جنيهات وستون قرشًا. منها مبلغ جمعه له زملاؤه في العمل قدره خمسة جنيهات. وثلاثة جنيهات وستون قرشًـا. كانـت هي كل ما يملك. كان زملاؤه يفكرون في شراء هدية لـه. الفكرة نبعت من المشرف وهو أفندي من البنادر، وقد تمكن من جمع الجنيهات الخمسة بصعوبة، فالأيام ضنينة والـزمن بخيل وصعوبة الحصول على القرش تجعل إنفاقـه مشـكلة. علم الأسطى أحمد بحكاية الهدية. فقال للمشرف عندما سـأله

عن نوع الهدية التي يفضلها إن أحسن الحلول هو أخذ المبلغ ناشفًا لأنه في أمس الاحتياج إليه. سيوصله المبلغ إلى بر الأمان، من الآن وحتى اللحظة التي سيصرف فيها المعاش. لا يعرف كيف يصرف أموره. والكل يعلم كم من الليالي والأيام ستمر قبل صرف المعاش. امتعض المشرف من فكرة الزواج، المبلغ كان هو المخرج الوحيد لولاه ما نفذ الأسطى أحمد المشروع. كان سينتظر على الأقل لحين صرف معاشه، وهو يعرف أن يوم الحكومة بسنة. ذهب إلى البندر. اشترى علبة سجائر كبيرة من النوع المستورد. مع أنه لم يدخن في حياته، اشترى دستتين من الجاتوه وزجاجة كولونيا لها رائحة نفاذة، ومنديل يد حريمي ومنديل رجالي، فتح زجاجة الكولونيا ونثر منها على المنديلين حتى يذكراه بمناديل الأفراح في بلدته البعيدة. يوم الصباحية حيث كان يخرج المنديل ويشمه من وقت لآخر، ولكي يدخل طعم الفرحة إلى بيت أخته بهية، اشترى بطيخة كبيرة، ليكسرها في منزل أخته قبل الذهاب إلى بيت العروس أو بعد العودة منه وتتحول وليمة أكلها إلى مناسبة سعيدة.

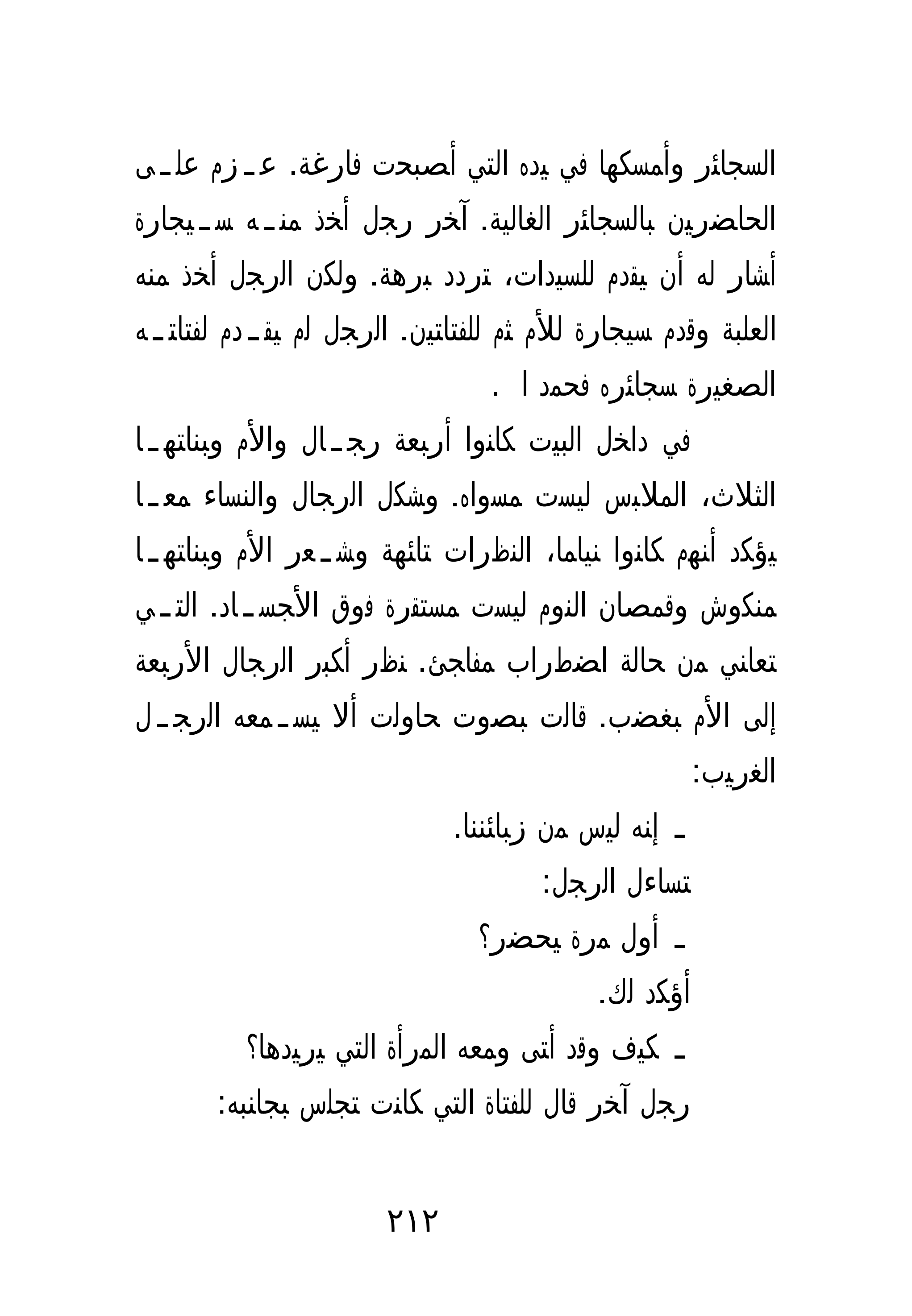


كان قطار العصاري خاليا. ركب الأسـطى أحمـد وأخته بهية التي كانت حاملاً في منتصف أشهر الحمل تماما، جاس على كرسي من الخشب المتآكل وجلست بهية قبالتـه، أتت جلستيهما بجوار نافذة بحرية، تحـرك القطـار بـبطء وتحركت المرئيات مكونة دائرة مركزها أرضية القطار التي كانت مغطاة بفضلات اليوم كله. والظلال طويلة، بلا نهايات محددة والأفق البعيد يبدو مفرودا على آخره. انتظمت سرعة القطار أخيرا، وعلى هدهـدة صـوت عجلاتـه اسـتراحت أعصاب الأسطى أحمد لأول مرة في هـذا اليـوم وأخـذت التقلصات التي كان يعاني منها. تهدأ ببطء. ها هي لحظـات الهدوء المفقود تتسلل إلى نفسه.

وصلا إلى البيت بصعوبة. مشيا مسافة طويلة مـن المحطة وحتى البيت، قالت بهية والتي كانـت متعبـة مـن المشي. إن البيت فعلاً على شمال السما، تساءلت هل يمكـن أن يعيش هنا أحد من خلق ا ؟ وهل يتصور أحد أن الـذين يعيشون هنا، أرملة وبناتها الثلاثة؟ عموما لقد اقتربت اللحظة التي ستتأكد فيها من هذا الكلام كله.



طرق الباب كثيرا ومرت فترة طويلة قبل أن تفـتح شراعة صغيرة فوق الباب. وأطلت منها وجوه فزعة. تنظر بدهشة بالغة ثم تختفي. إلى أن رأى وجه الفتاة الصغيرة يطل أخيرا، بصعوبة بالغة عرفته، وحاول هو أن يـذكر بنفسـه بالإشارة، لأن نفسه كان مقطوعا من المشوار الطويل والخبط على الباب الضخم. أمسك بقلة وهمية في الهواء وأفهمها أنه الذي شرب بالأمس ماء الحياة الذي أعاده إلى دنيا البشر من جديد. مر وقت آخر بعد أن اختفى وجه الفتاة من الشـراعة دون أن تقول شيئًا. بدا الوقت للأسطى أحمد وأخته بهية أنه بطول العمر كله. اضطرا للجلوس فوق حجرين بالقرب من الباب، أخيرا ها هي المزالج تفتح ويسمع لها صوت مزعج، قبل أن يفتح الباب بحذر، أطل وجه الفتاة من فتحة البـاب. نظرت في كل الاتجاهات جيدا. تصور الأسطى أحمد أنها لم تره، فوقف وأشار لها. ولكنها استمرت في نظراتها. وبعد أن تأكدت أنه لا يوجد معهما أي شخص آخر. سـارت علـى أطراف أصابعها وأخذتهما في يدها. ودخلت إلى البيت. هذه المرة عوملا كضيفين، وقبل أن يجلس الأسطى أحمد أعطى فتاته ما معه. الجاتوه والكولونيا والمنـديل. وأخـرج علبـة



السجائر وأمسكها في يده التي أصبحت فارغة. عـزم علـى الحاضرين بالسجائر الغالية. آخر رجل أخذ منـه سـيجارة أشار له أن يقدم للسيدات، تردد برهة. ولكن الرجل أخذ منه العلبة وقدم سيجارة للأم ثم للفتاتين. الرجل لم يقـدم لفتاتـه الصغيرة سجائره فحمد ا .

في داخل البيت كانوا أربعة رجـال والأم وبناتهـا الثلاث، الملابس ليست مسواه. وشكل الرجال والنساء معـا يؤكد أنهم كانوا نياما، النظرات تائهة وشـعر الأم وبناتهـا منكوش وقمصان النوم ليست مستقرة فوق الأجسـاد. التـي تعاني من حالة اضطراب مفاجئ. نظر أكبر الرجال الأربعة إلى الأم بغضب. قالت بصوت حاولت ألا يسـمعه الرجـل الغريب:

- إنه ليس من زبائننا.

تساءل الرجل:

- أول مرة يحضر؟

أؤكد لك.

- كيف وقد أتى ومعه المرأة التي يريدها؟

رجل آخر قال للفتاة التي كانت تجلس بجانبه:

ـ يبدو أنه مصاب بمرض الرغبة في النـوم فـوق الأجنة في بطون الحوامل.

ضحك الرجل الثالث:

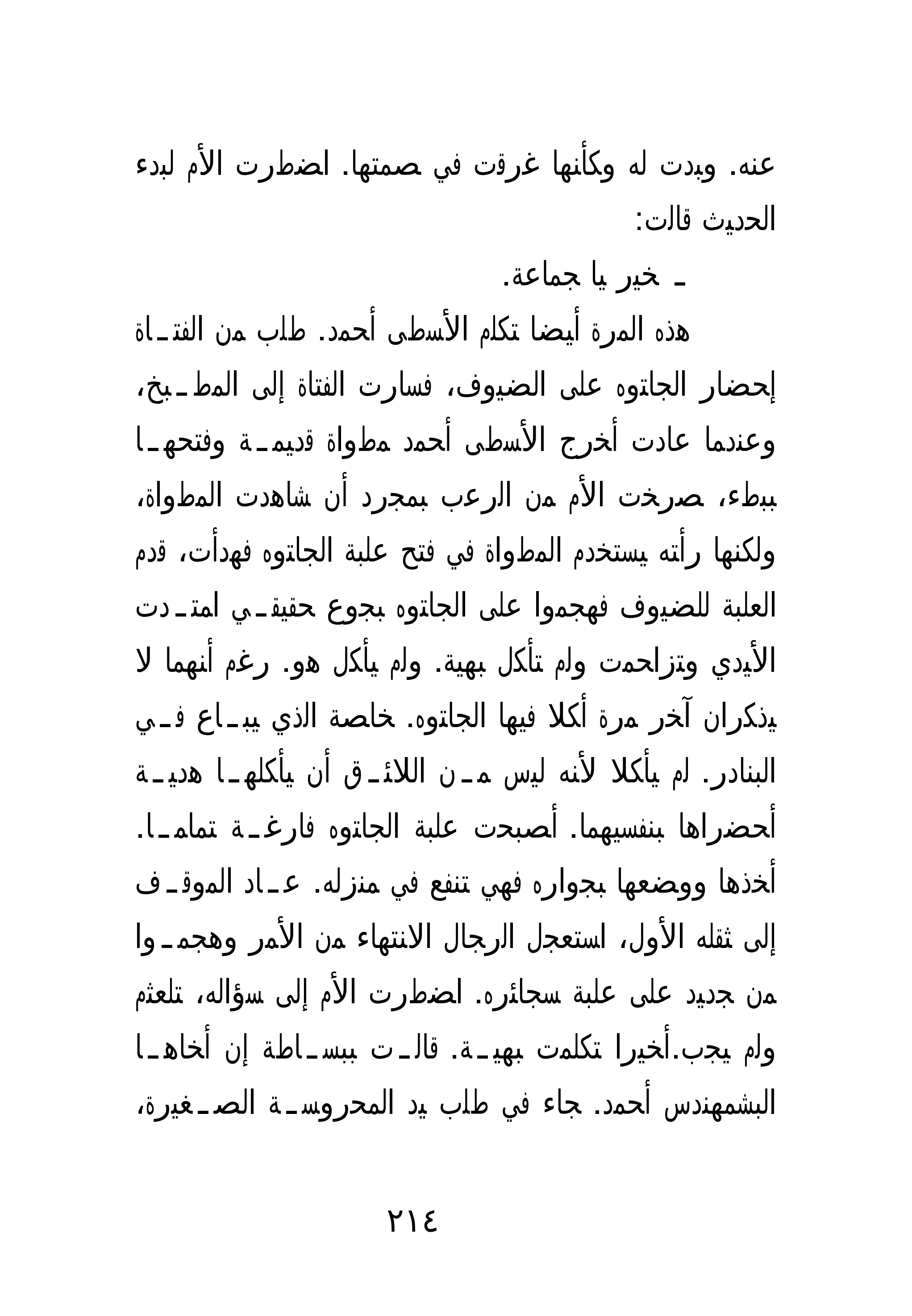
ـ إنه يبحث عن شهود إثبات للحظة الجنس الرهيبة.

والدهشة والترقب والفرحة لم تعط الأسـطى أحمـد فرصة سماع الكلمات التي قيلت بصورة أقرب إلى الهمـس. وكان الرجل مشغولاً بحبة القلب. أما أخته بهية فقد فهمـت بعض الكلام وإن كانت لم تفهم الباقي. بدا الموقف ثقـيلاً لا يطاق. فالكل في حالة الدهشة والاستغراب، الأسطى أحمـد هو الذي بدأ الحديث. ذكر فتاته بنفسه وقدم لها أخته بهية.

هتف الكل في صوت واحد:

ـ أخته؟.

قالت الأم لنفسها، كنت أتصـورهما مـن العشـاق، يبحثان عن مكان ما وأن أحد أحبائنا أعطاهما العنوان، أمـا حكاية أخته فهي مسألة تعقد الأمر كثيرا. بعد الكـلام أتـى الصمت المتوتر المشحون. لم يجد الأسطى أحمد ما يقولـه. نظر إلى أخته لكي تسعفه وتتكلم، ولكنها صـمتت. تخلـت

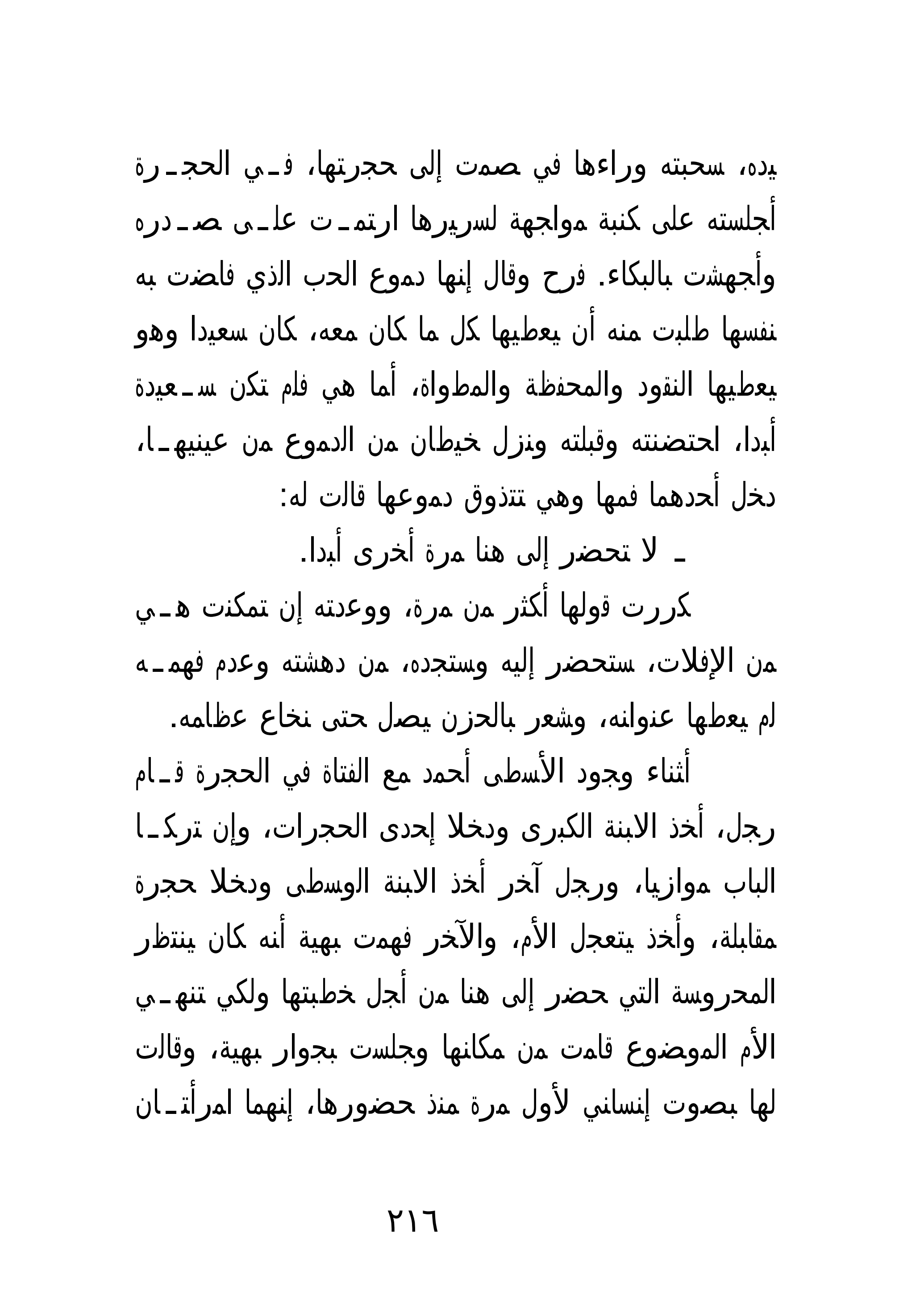


عنه. وبدت له وكأنها غرقت في صمتها. اضطرت الأم لبدء الحديث قالت:

- خير يا جماعة.

هذه المرة أيضا تكلم الأسطى أحمد. طلب من الفتـاة إحضار الجاتوه على الضيوف، فسارت الفتاة إلى المطـبخ، وعندما عادت أخرج الأسطى أحمد مطواة قديمـة وفتحهـا ببطء، صرخت الأم من الرعب بمجرد أن شاهدت المطواة، ولكنها رأته يستخدم المطواة في فتح علبة الجاتوه فهدأت، قدم العلبة للضيوف فهجموا على الجاتوه بجوع حقيقـي امتـدت الأيدي وتزاحمت ولم تأكل بهية. ولم يأكل هو. رغم أنهما لا يذكران آخر مرة أكلا فيها الجاتوه. خاصة الذي يبـاع فـي البنادر. لم يأكلا لأنه ليس مـن اللائـق أن يأكلهـا هديـة أحضراها بنفسيهما. أصبحت علبة الجاتوه فارغـة تمامـا. أخذها ووضعها بجواره فهي تنفع في منزله. عـاد الموقـف إلى ثقله الأول، استعجل الرجال الانتهاء من الأمر وهجمـوا من جديد على علبة سجائره. اضطرت الأم إلى سؤاله، تلعثم ولم يجب.أخيرا تكلمت بهيـة. قالـت ببسـاطة إن أخاهـا البشمهندس أحمد. جاء في طلب يد المحروسـة الصـغيرة،

وأشارت للفتاة، ضحك الرجال الأربعة. والأم ضحكت ولكن في نفسها. الأختان الكبيرتان حسدتا الصغرى، والصـغرى جرت إلى حجرتها. ارتمـت علـى السـرير وبكـت، الأم استوعبت الموقف بسرعة، دخلت وراء ابنتهـا الصـغرى، وطلبت منها أن تختلي بهذا العجوز المجنون، أن تأخذ كل ما معه. قالت لأمها من خلال الدموع إن هذا الرجـل حضـر بالأمس لأول مرة، كان عطشانًا يطلب ماء، رأت التعب وهد الحيل يطلان من وجهه، وهو يشرب، رأت فيه أباها الذي لم تشاهده أبدا، أتت إلى هذه الدنيا بعد وفاته والأم لـم تحـتفظ بصورة له فبقي معنى مجردا في الـذهن. عنـدما شـاهدت حنجرته تصعد وتنزل وسمعت صوت شربه، قالت هذا أبـي فعلاً، لهذا عاملته بكل الحب الذي تكنه لوالدها فـي قلبهـا، وطلبت منه أن يعود مرة أخرى، ولـم تتصـور أن تصـل المسألة للحب وطلب الزواج أبدا. كل هذا الكلام لم يصل إلى قلب الأم، كررت طلبها، رفضت الفتاة، وأصـرت الأم ولأن الفتاة تعرف أن الضرب والتوبيخ هو نهاية المطاف، قبلـت، اتجهت إلى الأسطى أحمد.. وبقايا الدموع عالقـة برمـوش العين الطويلة التي تغطي فدانًا من الأرض البكر، أمسكته من



يده، سحبته وراءها في صمت إلى حجرتها، فـي الحجـرة أجلسته على كنبة مواجهة لسريرها ارتمـت علـى صـدره وأجهشت بالبكاء. فرح وقال إنها دموع الحب الذي فاضت به نفسها طلبت منه أن يعطيها كل ما كان معه، كان سعيدا وهو يعطيها النقود والمحفظة والمطواة، أما هي فلم تكن سـعيدة أبدا، احتضنته وقبلته ونزل خيطان من الدموع من عينيهـا، دخل أحدهما فمها وهي تتذوق دموعها قالت له:

ـ لا تحضر إلى هنا مرة أخرى أبدا.

كررت قولها أكثر من مرة، ووعدته إن تمكنت هـي من الإفلات، ستحضر إليه وستجده، من دهشته وعدم فهمـه لم يعطها عنوانه، وشعر بالحزن يصل حتى نخاع عظامه.

أثناء وجود الأسطى أحمد مع الفتاة في الحجرة قـام رجل، أخذ الابنة الكبرى ودخلا إحدى الحجرات، وإن تركـا الباب موازيا، ورجل آخر أخذ الابنة الوسطى ودخلا حجرة مقابلة، وأخذ يتعجل الأم، والآخر فهمت بهية أنه كان ينتظر المحروسة التي حضر إلى هنا من أجل خطبتها ولكي تنهـي الأم الموضوع قامت من مكانها وجلست بجوار بهية، وقالت لها بصوت إنساني لأول مرة منذ حضورها، إنهما امرأتـان

وتفهمان بعضهما جيدا، الرجل في عمر جد البنـت وليـس أبوها فقط. وهي لن تزوج الفتاة إلا بعد أختيها، وهناك قريب لها. من نفس عمرها، تكلم بشأنها، ثم إن العائلة لا تتعجـل الزواج، والأم تعتقد أن بهية تفهم جيدا ما تقوله إنهـا وليـة، وا أمر بالستر، ولهذا فهي تطلب من بهية أن تكـون هـذه الزيارة هي الأولى. وهي أيضا الأخيرة. وأن تقنـع أخاهـا بذلك دون أن تؤذي مشاعره أو جرح أحاسيسه.

في طريق العودة. احتارت بهية كيف تخبـر أخاهـا بالأمر دون أن تسبب له مزيدا من الألم. ولكن الحزن كـان ينسال داخل الرجل والدموع الدافئة كانت تسح في أعماقه.

قالت له:

ـ مر وقت طويل قبل أن يفتحوا.

زادت الكلمات من إحساسه بالمرارة.

ـ أربعة رجال وأربع نساء وكل اثنـان كانـا فـي حجرة.

فتح فمه ولكن لم يرد.

ـ كانوا عرايا تماما.

كاد أن يضربها. توقفت، استدارت، نظرت إلى البيت الغارق في الصمت، والذي بدأت ملامحه تذوب وسط غبشة المساء، كانت النوافذ قد أغلقت، والباب فصل داخل البيـت من عالمنا.

قالت بصوت أقرب لهديل الحمام في البناني:

ـ أنهم يكملون المسألة الآن.

أشار بيده، قال إن ما سمعه يكفي. وأكثـر. بعـد أن ركبا قطار المساء. وتحرك بهما عائدا إلى البلـد، وكانـت مصابيحه تهمس بضوء لا يكفي لكي يرى الإنسان الجـالس أمامه فتبدو المرئيات كالأشباح، اقترب الأسطى أحمـد مـن أخته بهية وقال لها:

ـ هل لي من طلب أخير..؟

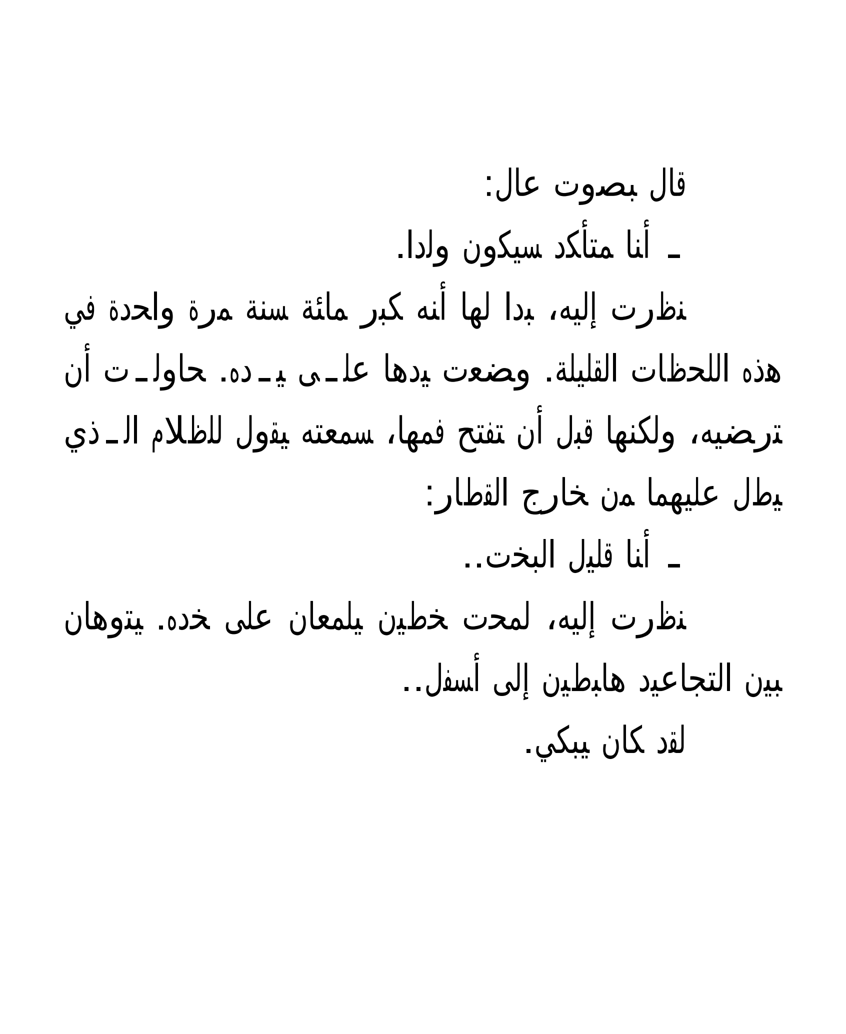
ـ قالت:

ـ تحت أمرك.

أشار لبطنها بيد مرتعشة، وطلب منها أن تسمي من في بطنها أحمد.

همست:

ـ إن كان ولدا.



قال بصوت عال:

- أنا متأكد سيكون ولدا.

نظرت إليه، بدا لها أنه كبر مائة سنة مرة واحدة في هذه اللحظات القليلة. وضعت يدها على يده. حاولت أن ترضيه، ولكنها قبل أن تفتح فمها، سمعته يقول للظلام الذي يطل عليهما من خارج القطار:

- أنا قليل البخت..

نظرت إليه، لمحت خطين يلمعان على خده. يتوهان بين التجاعيد هابطين إلى أسفل..

لقد كان يبكي.

الجفاف

في الصباح، صحا من نومه، فتح عينيه، بدا اليـوم بذاك الإحساس بأماكن الألم في الجسم، طالعه سقف الحجرة، جلس، حاول الوقوف، أحس بدوار، خيـل إليـه أن الأرض تدور والجدران تلف، فأدرك أن هيكله مريض، خلع جلبابـه الوحيد الذي كان ينام به على اللحم، مر بيديه على جسـمه، توقفت أصابع يديه بين ثنيات اللحم، هالته البرودة المنبعثـة من جلده، فهمس لنفسه (يا ا حسن الختام) ارتدى ملابس الخروج، ركب مداسه. في طريـق خروجـه، مـر علـى الحظيرة، كانت تطل من داخلها العتمة، وكانت زوجته تجلس تحت الجاموسة. تمسك الضرع الممتلئ بين يديها، وتضـع بين فخذيها شالية الحليب، إنه يسمع صوت اصطدام قطرات اللبن الدافئة، بقاع الشالية، وبخار اللبن الدافئ يستريح علـى وجه زوجته فتزيده احمرارا، دار بين المواشي، نظـر فـي المزاود أمامها فوجدها خالية، فاستشعر في نفسه معنى القحط والأيام العجاف.. استدار، وكان جو الحظيرة يعبق برائحـة اختمار الأرض ببول وروث البهائم طول الليل.

خرج، في المسجد، توضأ وصلى، إن بخار الصبح يخرج من أفواه الرجال مع تمتمات الصلاة.

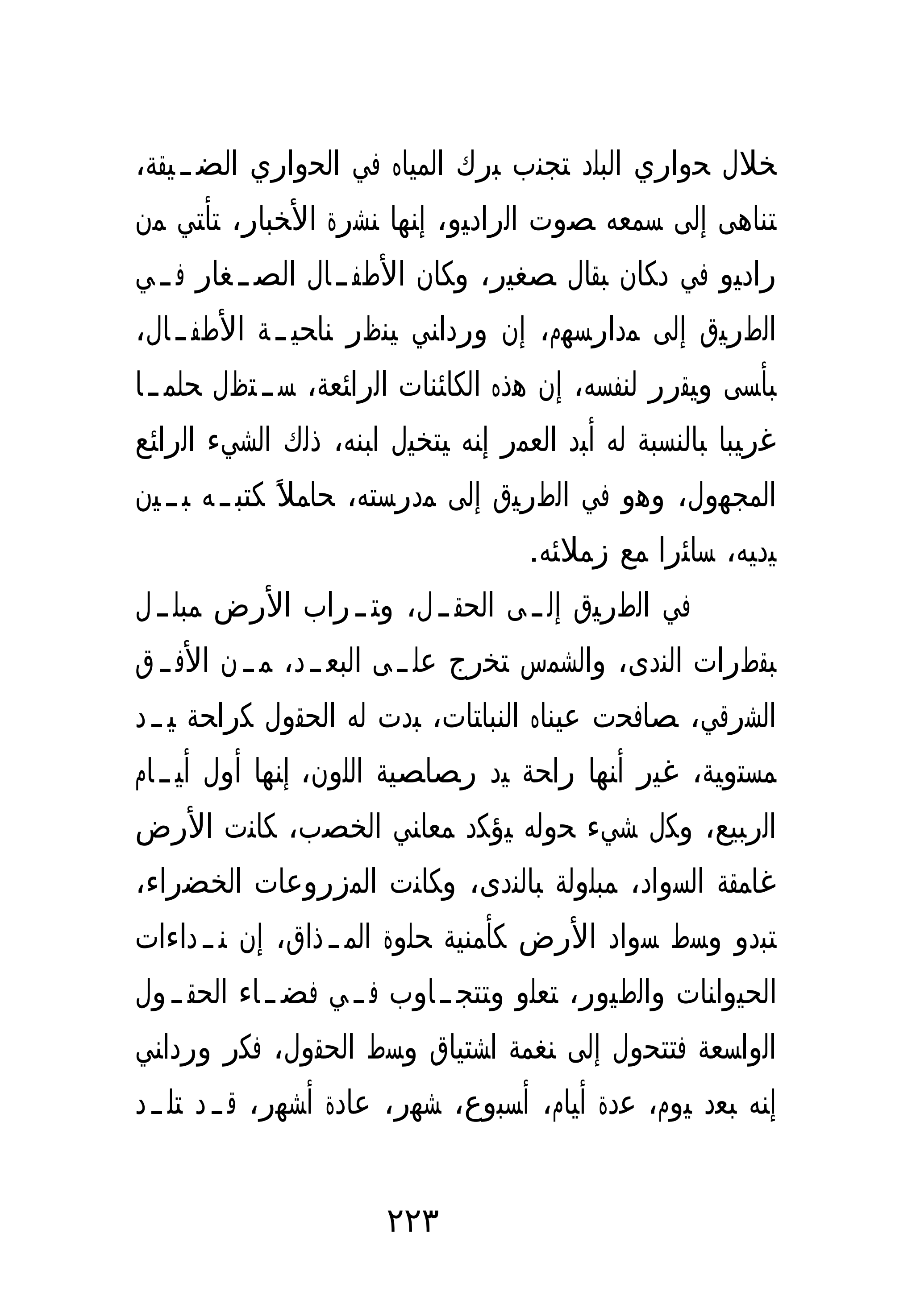
ـ التحيات ، الطيبات المباركات.

ختم صلاته، رفع يديه نحو سقف الجامع، دارت عيناه المشربتان بالرجاء على حيطان الجامع الأربعة.

أطبق بكفيه على ملامح وجهه المجهدة. قبل يديه، وكان بين شفتيه الجافتين.. وجلد يده الخشن المشقق دفء غريب.

ـ أنا نفسي في الملوحة يا سي ورداني.

في لحظة دخوله منزله، كانت زوجته تقف وسط الدار، بدت له داره واسعة عليهما بمفردهما، وأن زوجته تتحسس بطنها، ابتسم لنفسه قال لها إنه سيحضر لها الملوحة من السوق القادم. تناول طعام إفطاره، لُقيمات مكسورة مغموسة بجفاف الأيام، شرب الشاي، سأل زوجته إن كانت تطلب أي شيء، قال لها إنه سيحضر وقت القيالة للغداء معها، وسيترك الحقل والمواشي في رعاية جاره، في الحظيرة، فك رباط الجاموسة، والحمار، والماعز الصغيرة. وضع على الحمار بردعته أمسك بمقود الجاموسة في يده،



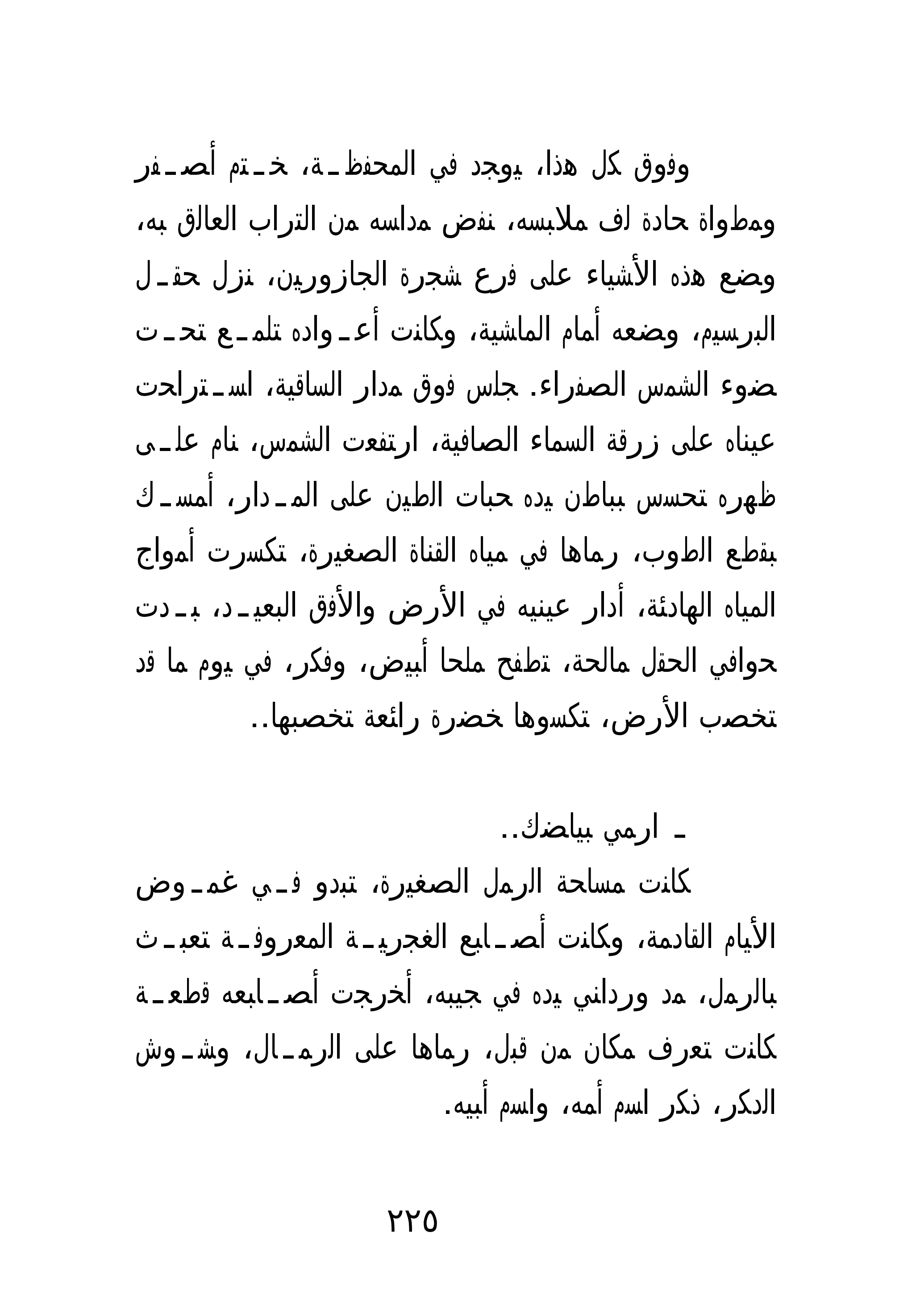
خلال حواري البلد تجنب برك المياه في الحواري الضيقة، تناهى إلى سمعه صوت الراديو، إنها نشرة الأخبار، تأتي من راديو في دكان بقال صغير، وكان الأطفال الصغار في الطريق إلى مدارسهم، إن ورداني ينظر ناحية الأطفال، بأسى ويقرر لنفسه، إن هذه الكائنات الرائعة، ستظل حلما غريبا بالنسبة له أبد العمر إنه يتخيل ابنه، ذلك الشيء الرائع المجهول، وهو في الطريق إلى مدرسته، حاملاً كتبه بين يديه، سائرا مع زملائه.

في الطريق إلى الحقل، وتراب الأرض مبلل بقطرات الندى، والشمس تخرج على البعد، من الأفق الشرقي، صافحت عيناه النباتات، بدت له الحقول كراحة يد مستوية، غير أنها راحة يد رصاصية اللون، إنها أول أيام الربيع، وكل شيء حوله يؤكد معاني الخصب، كانت الأرض غامقة السواد، مبلولة بالندى، وكانت المزروعات الخضراء، تبدو وسط سواد الأرض كأمنية حلوة المذاق، إن نداءات الحيوانات والطيور، تعلو وتتجاوب في فضاء الحقول الواسعة فتتحول إلى نغمة اشتياق وسط الحقول، فكر ورداني إنه بعد يوم، عدة أيام، أسبوع، شهر، عادة أشهر، قد تلد

زوجته طفلاً صغيرا يحمل اسمه، وعندما يعود إلى البيت في آخر النهار، وعلى باب البيت ونسمات الماء الطرية تكـنس الحواري من حرارة اليوم، يقف الطفـل الصـغير، قطعـة صغيرة من اللحم الأحمر، تقف بين قدميـه، يقـول ويـداه الصغيرتان تلوحان أبويا جه، أبويا جه، ويرفعه بـين يديـه، يقبله، يدخل به المنزل، ورداني يمر الآن بحـواري البلـد، شارعها الرئيسي، إنه يتبادل تحية الصـباح مـع الرجـال الآخرين، تخرج من البلد، يترك البيوت الواطئة خلف ظهره، وعلى مدى البصر، كانت الحقول تمتد أمامه إلى ما لا نهاية.

على رأس الحقل، بالتحديد، عند مدار الساقية، تحت شجرة الصفصاف ربط المواشي وخلع جلبابـه، والطاقيـة، والصديري تأكد من وجوده المحفظة الجلدية فيه.

فتحها، أغلقها. لم يكن فيها سوى، نقود قليلة، قروش متآكلة الأطراف، في المحفظة أيضا،خطابات قديمة، إيصـال من الجمعية التعاونية، إعلان من محكمة، إمسـاكية شـهر رمضان الماضي. إيصال بمبلغ سيقترضه من بنك التسليف، الأسبوع القادم.



وفوق كل هذا، يوجد في المحفظـة، خـتم أصـفر ومطواة حادة لف ملابسه، نفض مداسه من التراب العالق به، وضع هذه الأشياء على فرع شجرة الجازورين، نزل حقـل البرسيم، وضعه أمام الماشية، وكانت أعـواده تلمـع تحـت ضوء الشمس الصفراء. جلس فوق مدار الساقية، اسـتراحت عيناه على زرقة السماء الصافية، ارتفعت الشمس، نام علـى ظهره تحسس بباطن يده حبات الطين على المـدار، أمسـك بقطع الطوب، رماها في مياه القناة الصغيرة، تكسرت أمواج المياه الهادئة، أدار عينيه في الأرض والأفق البعيـد، بـدت حوافي الحقل مالحة، تطفح ملحا أبيض، وفكر، في يوم ما قد تخصب الأرض، تكسوها خضرة رائعة تخصبها..

ـ ارمي بياضك..

كانت مساحة الرمل الصغيرة، تبدو فـي غمـوض الأيام القادمة، وكانت أصـابع الغجريـة المعروفـة تعبـث بالرمل، مد ورداني يده في جيبه، أخرجت أصـابعه قطعـة كانت تعرف مكان من قبل، رماها على الرمـال، وشـوش الدكر، ذكر اسم أمه، واسم أبيه.

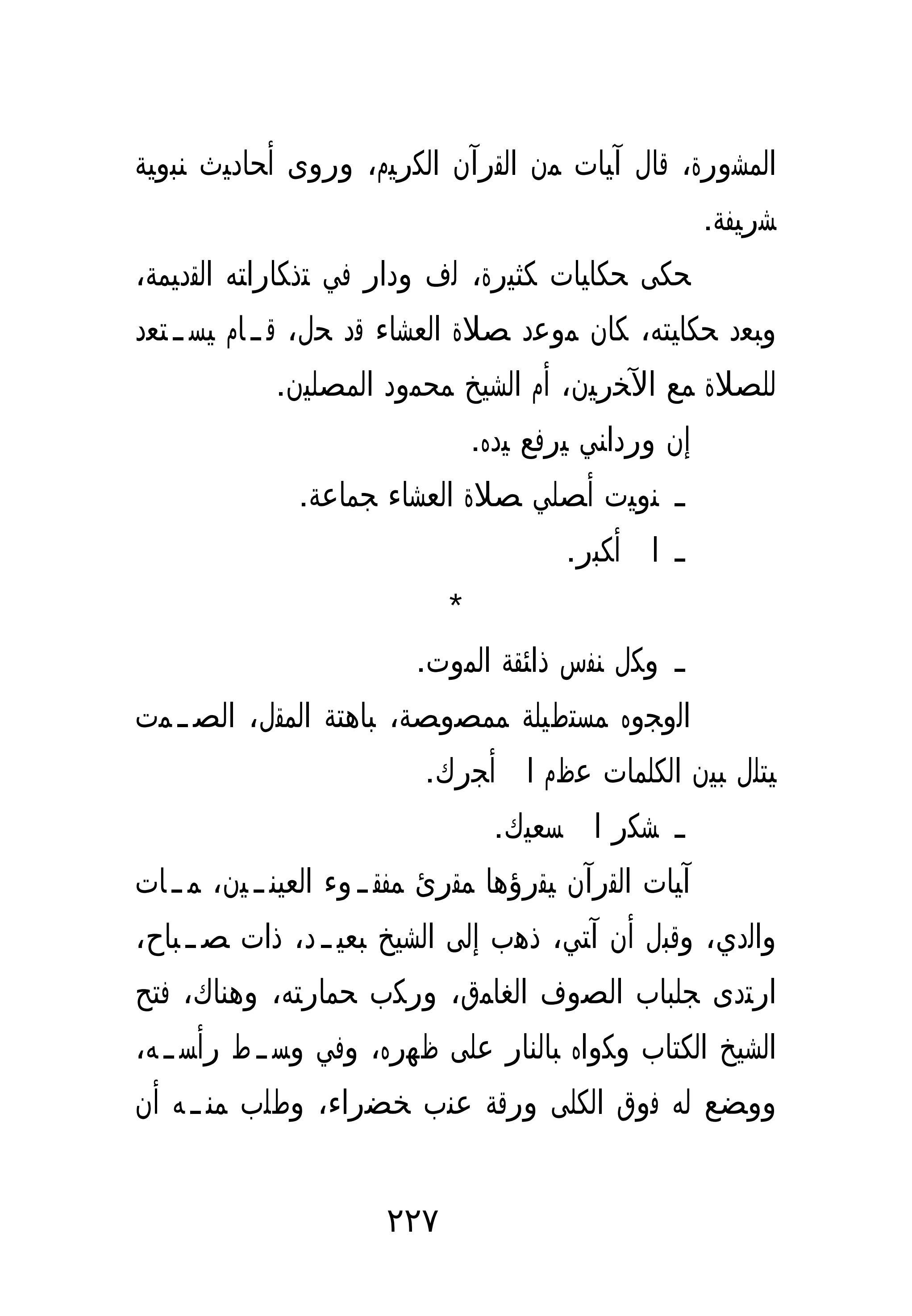
نظر إلى الخطوط الطويلة والعرضية أمامه.

ـ أمامك سفر، سافرت أم لا؟

ـ على باب كريم.

قالت الغجرية كل شيء، طلبت أن يكفيـه ا عـين الحسود، وذكرته بنذور نذرها ونساها فـي زحمـة الحيـاة، أكدت لكل الجالسين، أنه لا يخـرب البيـوت سـوى عـين الحسود، أو نذر منسي، وضربت له الأمثلة، وران على جمع الرجال صمت مشوب، وقام ورداني، غير أنه لم يقل ما كان يود قوله. لقد جلس، تكلم، استمع، غير أن ما بنفسـه، ظـل سره الخاص، وتقدم إليها رجل آخر غيره. إن الغجرية مـا زالت تتكلم والجميع ينصت إليها. سألت من عيون الرجـال أحلام لم تتحقق أبدا ووعود منْسية. ومـن الأشـداق نَزلـت أحرف من كلمات مدفونة في حبات القلوب، وسأل وردانـي نفسه، دونما كلمات، متى يأتي زمن تتحقق فيه الأحلام؟.

حدث هذا بالأمس، وبعد أن ترك الغجرية، ذهب إلى الجامع، وبعد الصلاة، جلس في صحن الجامع، وكان الظلام قد حل، كان هناك الشيخ محمود، عرض عليه حاله، سـأله



المشورة، قال آيات من القرآن الكريم، وروى أحاديث نبوية شريفة.

حكى حكايات كثيرة، لف ودار في تذكاراته القديمة، وبعد حكايته، كان موعد صلاة العشاء قد حل، قـام يسـتعد للصلاة مع الآخرين، أم الشيخ محمود المصلين.

إن ورداني يرفع يده.

ـ نويت أصلي صلاة العشاء جماعة.

ـ ا أكبر.

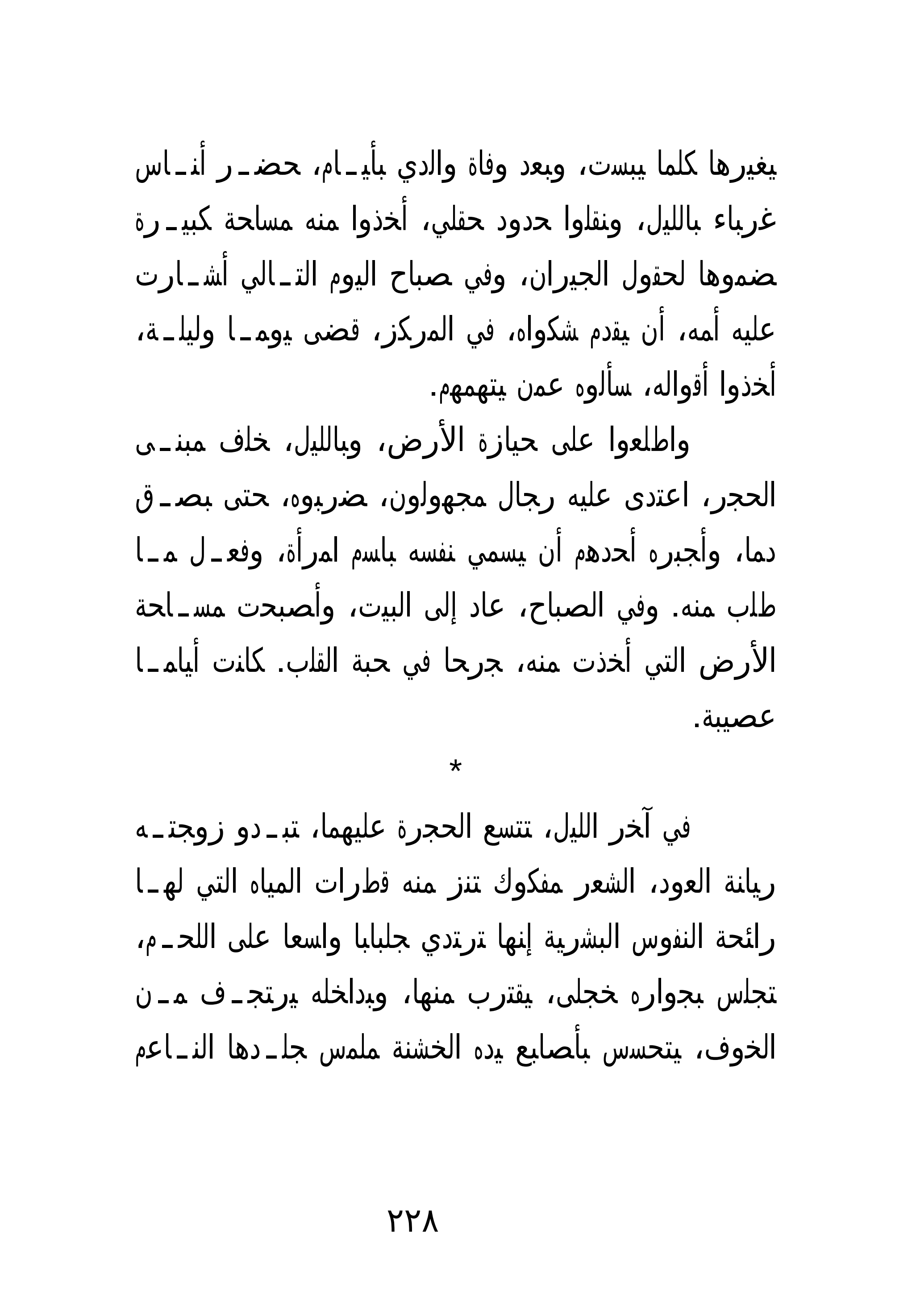
*

ـ وكل نفس ذائقة الموت.

الوجوه مستطيلة ممصوصة، باهتة المقل، الصـمت يتلل بين الكلمات عظم ا أجرك.

ـ شكر ا سعيك.

آيات القرآن يقرؤها مقرئ مفقـوء العينـين، مـات والدي، وقبل أن آتي، ذهب إلى الشيخ بعيـد، ذات صـباح، ارتدى جلباب الصوف الغامق، وركب حمارته، وهناك، فتح الشيخ الكتاب وكواه بالنار على ظهره، وفي وسـط رأسـه، ووضع له فوق الكلى ورقة عنب خضراء، وطلب منـه أن

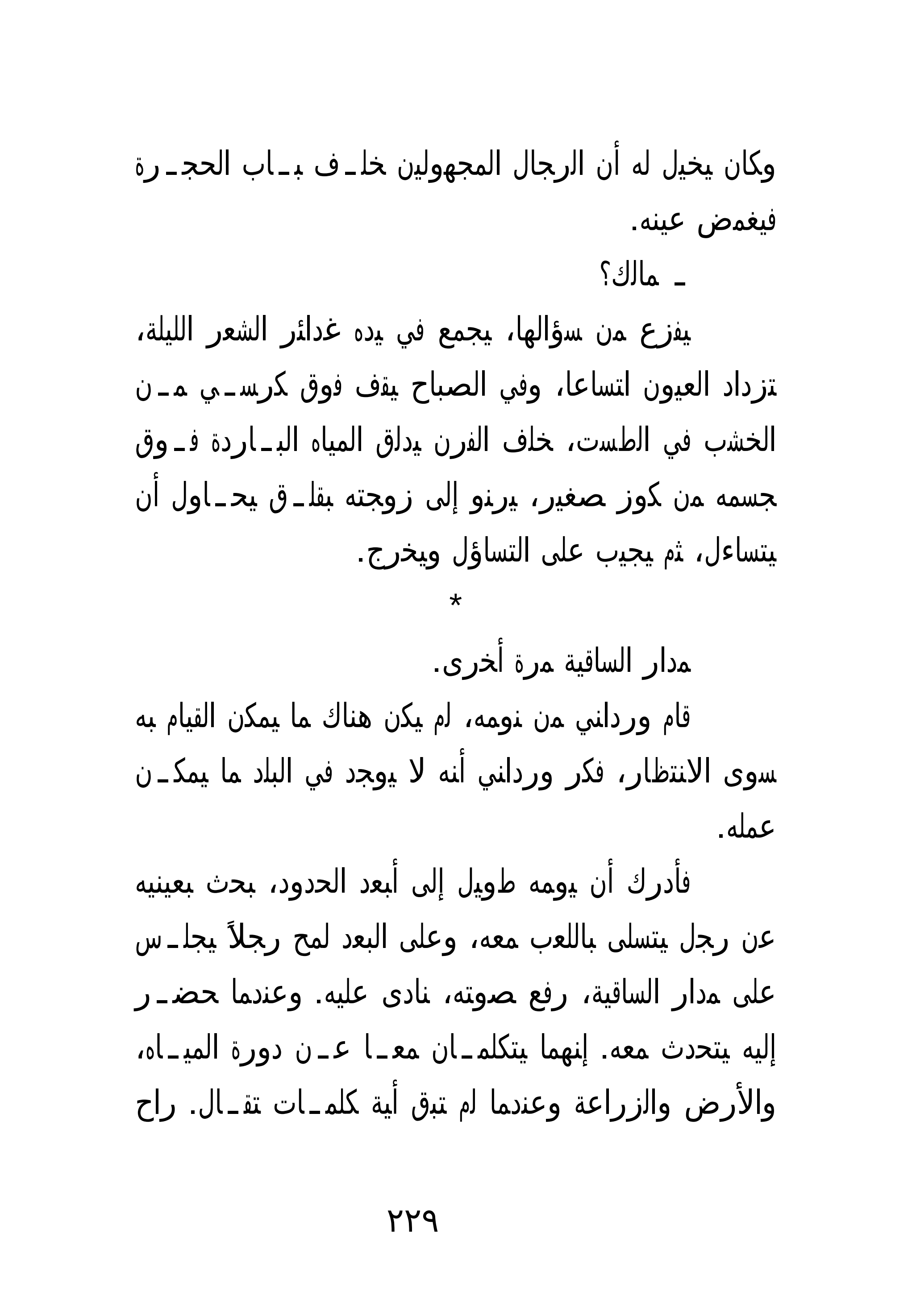


يغيرها كلما يبست، وبعد وفاة والدي بأيام، حضر أناس غرباء بالليل، ونقلوا حدود حقلي، أخذوا منه مساحة كبيرة ضموها لحقول الجيران، وفي صباح اليوم التالي أشارت عليه أمه، أن يقدم شكواه، في المركز، قضى يوما وليلة، أخذوا أقواله، سألوه عمن يتهمهم.

واطلعوا على حيازة الأرض، وبالليل، خلف مبنى الحجر، اعتدى عليه رجال مجهولون، ضربوه، حتى بصق دما، وأجبره أحدهم أن يسمي نفسه باسم امرأة، وفعل ما طلب منه. وفي الصباح، عاد إلى البيت، وأصبحت مساحة الأرض التي أخذت منه، جرحا في حبة القلب. كانت أياما عصيبة.

*

في آخر الليل، تتسع الحجرة عليهما، تبدو زوجته ريانة العود، الشعر مفكوك تنز منه قطرات المياه التي لها رائحة النفوس البشرية إنها ترتدي جلبابا واسعا على اللحم، تجلس بجواره خجلى، يقترب منها، وبداخله يرتجف من الخوف، يتحسس بأصابع يده الخشنة ملمس جلدها الناعم



وكان يخيل له أن الرجال المجهولين خلف باب الحجرة فيغمض عينه.

ـ مالك؟

يفزع من سؤالها، يجمع في يده غدائر الشعر الليلة، تزداد العيون اتساعا، وفي الصباح يقف فوق كرسي من الخشب في الطست، خلف الفرن يدلق المياه الباردة فوق جسمه من كوز صغير، يرنو إلى زوجته بقلق يحاول أن يتساءل، ثم يجيب على التساؤل ويخرج.

*

مدار الساقية مرة أخرى.

قام ورداني من نومه، لم يكن هناك ما يمكن القيام به سوى الانتظار، فكر ورداني أنه لا يوجد في البلد ما يمكن عمله.

فأدرك أن يومه طويل إلى أبعد الحدود، بحث بعينيه عن رجل يتسلى باللعب معه، وعلى البعد لمح رجلاً يجلس على مدار الساقية، رفع صوته، نادى عليه. وعندما حضر إليه يتحدث معه. إنهما يتكلمان معا عن دورة المياه، والأرض والزراعة وعندما لم تبق أية كلمات تقال. راح

الرجل يجمع قطع الطوب الأخضر والأحمر، ويكوم التراب فوق مدار الساقية. راح الرجل في صمت وببطء يحول أكوام التراب إلى عيون صغيرة متجاورة. ثم نفض يديه من التراب ونفخهما.

ـ هيا نلعب دور سيجاج.

ـ كلابك السمرة.

مد ورداني يده، أمسك بالكلاب، راح يستعد للعـب وكانت تهب عليهما نسمات هواء ربيعيـة مشـبعة برائحـة الصباح الطرية.

الشونة

غلام الطيور

بعد بحثٍ طويل حصل الولد عباس على عمل. لمدة ثلاثة أشهر هي فصل الربيع. لن يذهب خلالها إلى المدرسة. في أيامه الأولى بدا العمل محببا إلى نفسه. ذهب إلى الشونة. وقف أمام أمين المخزن سلّمه صفيحة مستعملة، مقطوعة من جانبها. وعصا من الخيزران غليظة وقصيرة، وطاقية شمس بيضاء لها رفرف دائري. يظل وجهه من كل الجهات. حتى في وقت الظهر عندما تكون الشمس عمودية. بعـد الأيـام الأولى بدأ الولد عباس يختلف عن أبناء عمره في البلد. لـم يقبض أجره بعد. ولكنه ينتظر ذلك اليـوم، سـيمتلئ جيبـه بالنقود. كل ما يشتهيه سيصبح تحت أمره. في الليل. طلـب منه الأولاد أن يحكي لهم ما يقوم به. شـعر قبـل الحكايـة بخفقان في القلب. وجفاف في الحلق. طلب منه أمين الشونة عندما سلمه العمل أن لا يحكي ما سـمعه أو يـراه داخـل الشونة، أن يعتبره من الأسرار التي لا تقال حتى لأمه نفسها، عاهد الولد عباس نفسه على كتمان الأسرار الرهيبة. صـمد

في اليومين الأول والثاني. في اليـوم الثالـث لـم يسـتطع الاستمرار. سقطت كل مقاومة بداخله. قرر أن يـتكلم مـع أصحابه عن عمله. في الصباح يأخذ العهدة من البيت:

ـ العهدة؟

ـ طبعا.

لم يشأ أن يحددها، آثر أن تبقى العهدة معنى غامضا في نفوسهم المطلوب منه بسيط. أن يدور حول الشونة مـن كل الجهات. من لحظة بكة الشمس وحتى غروبها. يضـرب على الطبلة بكل قوته.

يحدث صوتًا مزعجا. يجعل العصافير التي تعتـدي على أقوات الشعب المخزونة في الشـونة كأمانـات تطيـر مبتعدة. ولكنه بدلاً من طرد الطيور. كان ينظر إليها. ميـز العصفور من الحمامة واليمامة. أحب العصافير يقترب مـن المكان الذي تقف فيه. يلاحظ المنقار الصغير وهو يبحث عن حب القمح الأصفر الزاهي اللون. يعرف أنه في اللحظة التي سيرفع فيها العصا. لكي يضرب الصفيحة. يدور بعينيه فـي الجهات الأربع. تتوقف عيناه عند المكتب يتصور أن أمـين الشونة شاهده من بعيد. يضرب الصفيحة بكل قوته. ثم ينظر

إلى شبكة الظلال المتحركة تحت العصافير التـي طـارت. تتحرك الشبكة، ويصبح الظل نقطة باهتة تذوب مع طيـران العصافير عاليا. استدعاء الأمين. قال إنه غير راض عنـه، فهو يبدو غير متحمس لعمله مثل الأيام الأولى. أكد له أنـه يمتلك عينا سحرية يرى منها الكل. حتى لو كان في منزلـه نائما وقت القيالة.

ـ إما أن تجتهد أو..

لم يكمل الجملة التي فهم الولد عباس بقيتها، اجتهـد في عمله، لم يكن ينظر ناحية العصافير. يرفع رأسه ناحيـة السماء ويخبط، تغوص عيناه في الجهات الأربـع ويخـبط. يحدق في قرص الشمس ويخبط. ويـدوس علـى العشـب الأخضر ويضرب. تصور أن الأيام صفت. غير أنـه مـن يومين. وقف أمام الشونة عدد من السيارات. ألوانها مغطـاة بأتربة. فهم الولد عباس أنها قادمة من أماكنها البعيدة. نـزل من السيارات أفندية. يرتدون ملابس كـالتي يشـاهدها فـي صور سكان البنادر البعيدة . لفوا حول الشونة علـى شـكل موكب. حضر له الملاحظ. طلب منه أن يشتد فـي عملـه.

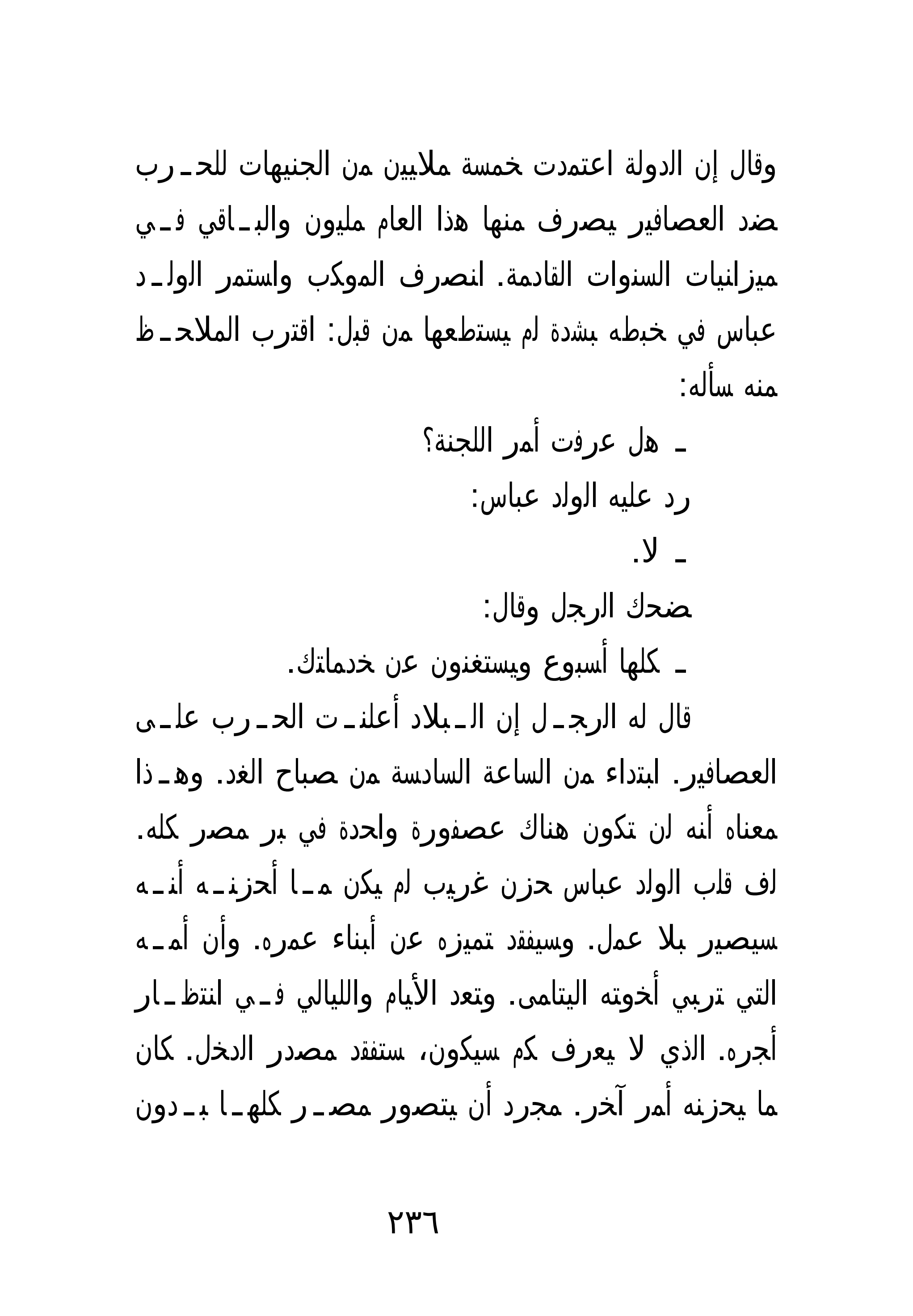
فالموكب بعثة أتت من مصر. للتفتيش على الشونة. عندما اقتربوا منه نادى أمين الشونة. قال لهم وهو يشير إليه:

- هذه هي الوسيلة البدائية التي نعتمد عليها.

قال رجل ضخم. شعره أبيض ويضع نظارة على عينيه:

- غلام الطيور. هذا تخاف.

تركوه يواصل عمله. ولكن الملاحظ طلب منه السكوت حتى يستمعوا إلى ما يقوله الدكتور. لم يفهم ما هي علاقة الدكتور بالشونة. قال الرجل السمين: إنهم يفكرون في تطوير هذه الوسيلة البدائية وأشار ناحية الولد عباس، فنظر الكل نحوه. مما أشعره بخجل. أكمل الرجل: إنهم حضروا لعمل دراسات ميدانية للوصول إلى وسيلة تساير العصر وإنهم بعد رحلات في كل محافظات مصر. آخرها رحلتهم إلى هذه الشونة. سيعقدون مؤتمرا ضخما في القاهرة. تحت شعار الحكومة المصرية تعلن الحرب على العصافير. التي تهدد الاقتصاد القومي. ومصر تعاني من أزمة اقتصادية حادة. ولابد من الوقوف في وجه هذه المؤامرة العصفورية ضد مصر. تقدم موظف كان يقف بجوار الدكتور كظله.



وقال إن الدولة اعتمدت خمسة ملايين من الجنيهات للحـرب ضد العصافير يصرف منها هذا العام مليون والبـاقي فـي ميزانيات السنوات القادمة. انصرف الموكب واستمر الولـد عباس في خبطه بشدة لم يستطعها من قبل: اقترب الملاحـظ منه سأله:

- هل عرفت أمر اللجنة؟

رد عليه الولد عباس:

- لا.

ضحك الرجل وقال:

- كلها أسبوع ويستغنون عن خدماتك.

قال له الرجـل إن الـبلاد أعلنـت الحـرب علـى العصافير. ابتداء من الساعة السادسة من صباح الغد. وهـذا معناه أنه لن تكون هناك عصفورة واحدة في بر مصر كله. لف قلب الولد عباس حزن غريب لم يكن مـا أحزنـه أنـه سيصير بلا عمل. وسيفقد تميزه عن أبناء عمره. وأن أمـه التي تربي أخوته اليتامى. وتعد الأيام والليالي فـي انتظـار أجره. الذي لا يعرف كم سيكون، ستفقد مصدر الدخل. كان ما يحزنه أمر آخر. مجرد أن يتصور مصـر كلهـا بـدون

عصفور واحد. أمر محزن. أتاه صوت أمين الشونة. يطلب منه الاستمرار في عمله بتثاقل ودون رغبـة فـي العمـل. ارتفعت يده بالعصا. ضربت بها فوق الصفيحة.

الساعة التي تكذب

مشكلته هي الساعة، بالتحديد سـاعات أربـع. فـي منتصف كل ضلع من سور الشونة توجد ساعة قديمة. تقول ملامحها الخارجية إنها شاهدت فرعون الذي عاصر موسـى عليه السلام. يتسلم الشونة في لحظة الغروب الموحشة ينظر بلا نهايات محددة. يحضر أمين الشونة دفترا قديما متآكلاً لا يعرف أحد عمره. أول الصفحات التي نجت من التآكل يعود تاريخها إلى سنوات مضت. يفتح صفحة جديدة يكتب. إنه في يوم، في ساعة قد قمت أنا أمين الشونة بتسليم محتوياتها من الخفير المعين لحراستها نهارا إلى الخفير المعين لحراسـتها ليلاً. حسب كشف المحتويات المرفق.

وقّع هنا.

يشير الأمين إلى مكان في ذيل الصفحة،يعطيه القلم، يكتب اسمه، في هذه الليلة يسمع الخفير صوت الريح تخـبط

في الزرع والبيوت وشواشي الأشجار تعبث بها هبات رياح الليل القادم، يتسرب الضوء الباهت. يمتص هـدوء الليـالي الريفية أصوات النهار المعتادة. ويبقى الخفير وحيدا، لابد من البقاء هنا، يدور حول الأضلاع الأربعة التي تشـكل سـور الشونة. يشعر بالحسد للخفير النظامي في القرية البعيدة. على الأقل يستطيع أن يصل وأن يقضي حاجته. وأن يذهب إلـى أولاده لتناول طعام العشاء معهم. أو أن يقبـل دعـوة أحـد الفلاحين لشراب كوب شاي. وتدخين كرسي معسل. أما هو. لا يمكنه أن يتحرك بعيدا عن الشونة. بسبب السعات الأربع. التي تكذب عليه، لا يعرف عنها. سوى أنها وصـلت إلـى مصر أيام الإنجليـز. أحضـروها لتسـاعدهم فـي الكيـد للمصريين.

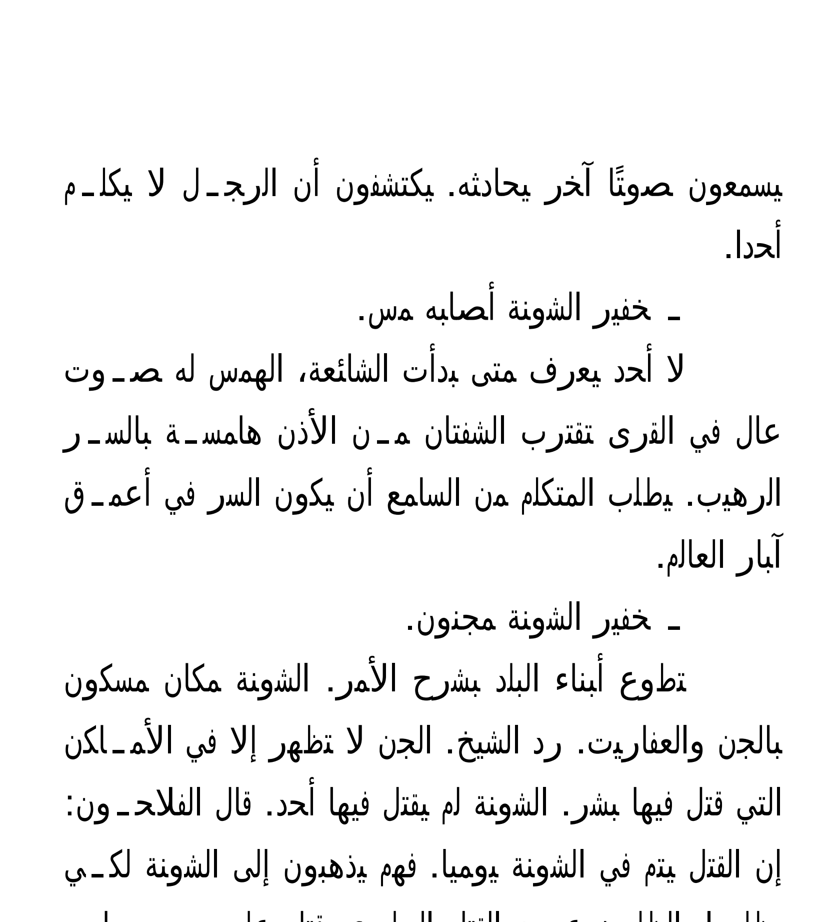
لابد وأن يمر على الساعات الأربـع. يملأهـا مـن مفتاح في أحد جوانبها أو كانت تملأ كلها في وقـت واحـد. لدبر أموره. ولكن كل ساعة تملأ في وقـت مختلـف عـن الأخريات. كل ربع ساعة عليه أن يملأ إحـداها، إن أهمـل تتوقف الساعة. وفي الصباح. لن يتسلم منه الخفير النهـاري الشونة. تبدأ المتاعب مع النهار. يحول بخطاب رسمي. إلى

المديرية في البندر مرورا بالإدارة في المركز. يدخل مكاتب. يقف أمام موظفين. تقول ملامحهم إنهـم مسـتريحون فـي حياتهم. مساحات السواد في أعينهم ونعومة جلـد ذقـونهم. وترتيب شعورهم، يؤكد أنهم ناموا طـول الليلـة السـابقة. الجفون منتفخة والشفاه متورمة من كثرة النـوم يشـاهدونه، يفتحون الدفاتر ويخرجون الأوراق. سين، جيم. سيم جـيم، يرد عليهم. يترجمون كلماته المكسرة إلى جمل يكتبونها فـي الأوراق يأخذون منه الختم. يوقعوا به بالعلم علـى الجـزاء الذي وقع عليه. خصم مرتب خمسة عشر يوما من ماهيتـه الشهرية والتي لا تتعدى ثمانية جنيهـات. والهمـوم تجـر بعضها البعض مثل سحب الشتاء. ثمانية جنيهات وفي البيت ستة عشر فما مفتوحا عن آخرها لن تكفيهـا الغـلال التـي يحرسها في الشونة. إنه يسهر ليلاً طويلاً معذبا بالسـاعات الأربع، وفي النهار يذهب إلى حقله الصغير. أو إلى حقـول الغير. ليعمل. في الليل تؤنس وحشته سوى هـذه السـاعات الأربع. وعندما يخر الليل عن آخره ويستقر على جلبابه ظل الفجر يكون التعب قد وصل إلى نخاعه، يسلي نفسه، يختـار الساعة التي يتمكن من رؤيتها، في الليالي الأولى من الشهر

يكون حواره مع الساعة التي تواجه الجهة الغربيـة، حيـث تنعكس عليها أشعة قمر الريف، في النصف الثاني يخـتص بحديثه. ساعة الجهة الشرقية. التي تواجه البلد. فـي حديثـه يحكي للساعة التي تكذب عليه في الصباح. وتقدم في صمت تقريرها عن يقظته.

ـ البنت فتحية ولدت.

يخيل له في صمت الليل وسكونه أن ملامح السـاعة تستفهم منه، تطلب الشرح تود إكمال الحكاية، يستطرد مكملاً شرح الأمر. والبنت فتحية تزوجت منذ عام. من ابن أخيـه. ظهرت عليها أعراض الحمـل. وعنـدما حـان موعـدها. حضرت لتلد في منزل والدها. أحيانًا يتصـور أن السـاعة تسأله عن الأخبار. يضع يده عليها. يجلس بجوارها. ويبـدأ حديثه الطويل. الساعة من حديد انطفأ لونه مع مرور الليالي الطوال، مثبتة فوق عامود من الحجر ارتفاعه متر ونصف. الشونة محاطة، بحقول الفلاحين من كل جانب. على يمينهـا طريق رئيسي يوصل البلد بالمركز. الساهرون فـي الليـل والمارون على الطريق. يسمعون صوت الخفير. يتوقفون. لا



يسمعون صوتًا آخر يحادثه. يكتشفون أن الرجـل لا يكلـم أحدا.

ـ خفير الشونة أصابه مس.

لا أحد يعرف متى بدأت الشائعة، الهمس له صـوت عال في القرى تقترب الشفتان مـن الأذن هامسـة بالسـر الرهيب. يطلب المتكلم من السامع أن يكون السر في أعمـق آبار العالم.

ـ خفير الشونة مجنون.

تطوع أبناء البلد بشرح الأمر. الشونة مكان مسكون بالجن والعفاريت. رد الشيخ. الجن لا تظهر إلا في الأمـاكن التي قتل فيها بشر. الشونة لم يقتل فيها أحد. قال الفلاحـون: إن القتل يتم في الشونة يوميا. فهم يذهبون إلى الشونة لكـي يظلموا. الظلم نوع من القتل البطيء، قتل علـى درجـات. مكان مثقل بأرواح كل من قتلهم الظلم. ما يحزن الفلاحين أن العفاريت لا تظهر نهارا الكل يتمنى أن تظهر وقت وجـود الكاتب والملاحظ وأمين المخزن ما ذنب الخفير الذي يكـون بمفرده في الشونة ليلاً.

ـ الخفير هو الإنذار.

هكذا قالوا. العفاريت ترسل إنـذارها مـن خـلال الخفير. أوقفوا الظلم فورا. وإلا فالدور عليكم جميعـا ولـن يستثني أحد. كبرت الحكاية من فم إلى فم آخر. أضاف كـل فم لها كلمة جديدة. الليلة الأخيرة. تحدث فيها الخفير أكثـر من أي ليلة مضت. شعر بحركة حول الشونة. لـم يعرهـا اهتماما. ارتفع صوته وهو يتساءل: من أين يـأتي بتكـاليف ولادة فتحية. وإيجار قطعة الأرض الصغيرة وثمـن الـذرة والقمح المطلوب لكي يكمل الطحين. لم ترد الساعة. صـاح بصوت عال. لم تمد يدها بالمبلغ، هجم عليها. خـبط رأسـه فيها في الصباح سلمه أمين الشونة خطابا رسميا لـم يكـن محولاً للتحقيق كما تعود. بل كان الخطـاب موجهـا إلـى مستشفى الأمراض العقلية. ظل الرجل هادئًا، إلى أن قرأ له شاب متعلم الخطاب لطم الخفير. شق جلبابه الوحيد. صـرخ وبكى، وتجمع حوله أطفال البلد وصل إلى منزله في زفـة. انضم لها كل الذين كانوا في الجواري ودواير الناحية. علـى باب بيته الصغير. قال لزوجته بصوت باك:

ـ الساعة الكذابة هي السبب.

خبط الناس كفًا بكف:

ـ لا حول ولا قوة إلا با . جن الرجل.

أوزني أولاً

وقت الظهر، الجو حار والذباب يطن حول الشـونة يتحول السور الخارجي في هذا الوقت من النهار إلى مـربط للحمير. كل حمار يعكس حالة صاحبه. البردعـة والحبـل ووقفة الحمار تقول من صاحبه، بعض الحمير يحضر لهـا أصحابها أكلها في مخلة صغيرة يعلقها فـي رأسـه. يـدس الحمار أنفه وفمه فيها ويأكل. هناك من يحضر الحمار لحمل ما سيأخذ من الشونة. ومن يحضره الركوبـة فقـط. عليـه بردعة فاخرة ألوانها زاهية. وفي فمه لجام نحـاس أصـفر. تتكسر أشعة الشمس على لمعانـه. أمـا ركائـب أصـحاب العزب. فتحضر يجري خلفها ولد صـغير ينـزل صـاحب العزبة ـ وغالبا ما يناديه الناس بكلمة يـا حـاج ـ بقفـزة سريعة. يعطي طرف اللجام للصبي ويتجه إلى الشونة فـي مشية وقورة ومهيبة. أما الصبي، يمسك لجام الركوبة يتولى ربطها والوقوف بجوارها. إلى أن يحضر الحاج من الشونة. وقت القيالة. حضر فلاح. لم يكن راكبا. كان يسوق أمامـه

حمارا هزيلاً. فوق ظهره جوال قديم. تآكلت وبرته من كثرة احتكاكه بظهر الحمار. من تحت الجوال ظهرت سلسلة ظهر الحمار عظمة. الفلاح كان حافيا ويرتدي سروالاً وقميصـا. ورأسه العاري تناثرت شُعيرات بيضاء في أنحـاء متفرقـة منه. في صمت وهدوء اتجه إلى سور الشونة، ربط حمـاره بعيدا عن الحمير الأخرى جمع له قلـيلاً مـن قـش الأرز وعيدان الحطب الجافة. وضعها أمامه عبث الحمار فيها بأنفه الضخم. ثم نفخ فيها نفخة طيرتها بعيدا. دخل الرجل الشونة وبيده الحيازة وكان يبدو أن أمرا ما سيشغل تفكيره ذهب إلى أمين المخازن فقدم له الحيازة. ليعرف ما سيصرفه. لن يأخذ كسبا فهذا لا يحصل عليه إلا من يمتلك أكثـر مـن خمسـة رءوس ماشية فأكثر. كل ما حصل من أجله هو نصيبه مـن الأسمدة، كانت مسألة الميزان تشغل تفكيـره. أمـام أمـين المخزن ميزان حكومي ضخم. يقول الكل إنه مضبوط علـى الشعرة. ولكن الفلاح لم يقتنع من قبل أن الميزان مضـبوط. يزن له الأسمدة. وعندما يذهب إلى منزله يجـدها ناقصـة. يعود إليه شاكيا يضحك أمين المخزن يقول له: إن الأسـمدة جفت في الطريق من الشونة إلى بيته بفعل الشمس والهواء.

وفي المرة الثانية قال له: الجوال لم يكن محكماً. وبسبب رجرجة الحمار المتعب. تسربت كميات كبيرة منه. احتار الرجل ماذا يفعل. هل يضع جوال السماد على الطبلية ويذهب إلى عامود الميزان. وحتى لو ذهب هل يستطيع أن يعرف المكتوب بالأمس كان في المستشفى. ليس مهما سبب ذهابه. فهو مريض منذ طفولته. يحمل أمراضا بعدد شعر رأسه يذهب إلى المستشفى كل أسبوع. لمعالجة أحد هذه الأمراض. ولا فائدة. قبل أن يدخل إلى الدكتور. طلبوا منه أن يخلع مداسه ولأنه كان حافي القدمين اكتفوا بأن قالوا له أن ينفض قدميه من التراب العالق بهما. نظرت الممرضة إلى توتر الميزان وحركة المؤشر وقالت:

- ٥٨ كيلو.

حفظ الرقم. نبتت في ذهنه ساعتها هذه الفكرة. أن يطلب من أمين الشونة أن يزنه هو أولاً. إن كان الرقم هو نفسه، اطمئن إلى الميزان. وإن اختلف أثار معه مشكلة وليكن ما يكون. صفق الأمين بيديه. طلب جوال سما نترات شيلي. ولكن الفلاح أشار له بيديه. طلب منه التوقف أطلت

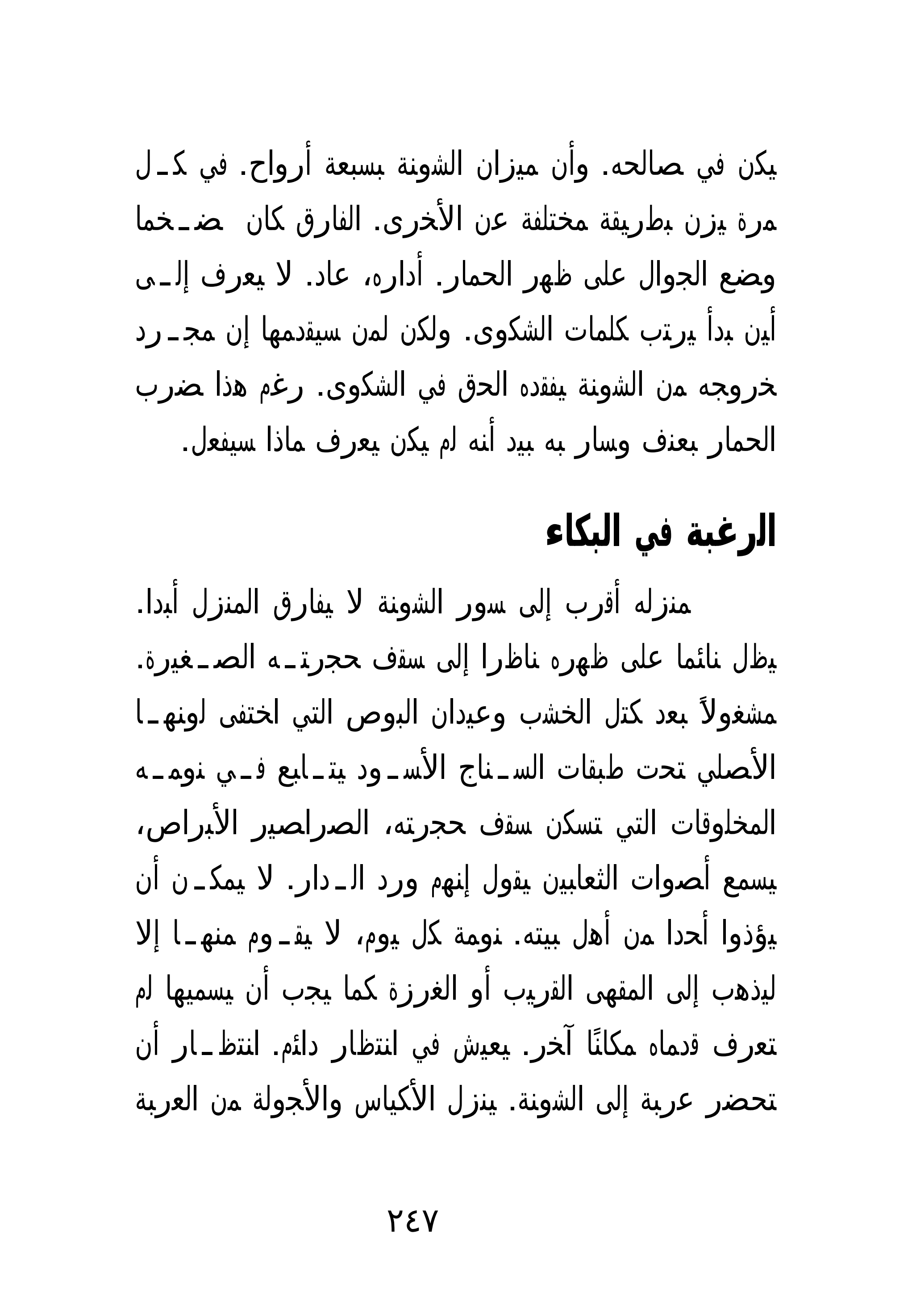
من وجه أمين المخزن علامة استفهام تطلب الإجابـة. قفـز الفلاح فوق طبلية الميزان. قال للأمين بصوت لاهث:

ـ أوزني أولاً.

لدقيقة لم يفهم أمين المخزن الحكاية. استفهم منه لـم يجب وعلى سبيل الفكاهة مد أمين المخزن حـرك السـنجة وعندما استقرت قال له:

ـ ٣٨ كيلو.

بهت الفلاح. تساءل هل نقص جسمي عشرين كيلـو في ليلة واحدة. هذا معناه، أنه لن يبقى منه شيء بعد أسبوع. ثمة خاطر سعيد نبت في ذهنه. لا بـد وأن الميـزان غيـر مضبوط كالعادة. ولكنه سيكون في صـالحه. سـيأخذ ولـن يعطي. فارق الوزن سيكون له لا عليه. نـزل مـن فـوق الميزان أحضر الشيال جوال سماد سليم. الجوال مدون عليه الوزن، ولكنه يوزن من جديد لأن أكثر الأجولة ينقص منهـا أثناء عمليات النقل والتفريغ. وزن الأمين الجوال. والفـلاح يوقع بالاستلام كان يفكر في الفرق الذي سيحصل عليه نتيجة لعدم ضبط الميزان. في طريقه إلى منزله توقف بالحمار عند تاجر الغلال. وزن الجوال. ذهل عندما وجد أن الفارق لـم



يكن في صالحه. وأن ميزان الشونة بسبعة أرواح. في كل مرة يزن بطريقة مختلفة عن الأخرى. الفارق كان ضخما وضع الجوال على ظهر الحمار. أداره، عاد. لا يعرف إلى أين بدأ يرتب كلمات الشكوى. ولكن لمن سيقدمها إن مجرد خروجه من الشونة يفقده الحق في الشكوى. رغم هذا ضرب الحمار بعنف وسار به بيد أنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل.

الرغبة في البكاء

منزله أقرب إلى سور الشونة لا يفارق المنزل أبدا. يظل نائما على ظهره ناظرا إلى سقف حجرته الصغيرة. مشغولاً بعد كتل الخشب وعيدان البوص التي اختفى لونها الأصلي تحت طبقات السناج الأسود يتابع في نومه المخلوقات التي تسكن سقف حجرته، الصراصير الأبراص، يسمع أصوات الثعابين يقول إنهم ورد الدار. لا يمكن أن يؤذوا أحدا من أهل بيته. نومة كل يوم، لا يقوم منها إلا ليذهب إلى المقهى القريب أو الغرزة كما يجب أن يسميها لم تعرف قدماه مكانًا آخر. يعيش في انتظار دائم. انتظار أن تحضر عربة إلى الشونة. ينزل الأكياس والأجولة من العربة

إلى الشونة. إن كانت آتية من المستودع الرئيسي. ويحملهـا على عربات كبار أصحاب الأراضي. عندما يتسلمونها مـن الشونة. تحضر العربة ينادون عليه من الخارج، يقـوم مـن رقدته أو يترك جلسته في المقهى يأخذ عدة الشغل، الخطاف، الكتاف البردعة، حِبال يربط بها يديه وقدميه ووسطه يـذهب إلى الشونة. يقف بجوار العربة المحملة في انتظار أن ينتهي السائق من إجراءات تسليم الحمولة الواقفون حول السـيارة يبدأونه بالكلام:

ـ الحمولة صعبة.

يرفع يده دليل الاستهانة. وهنا يبدأ الفصل الأساسـي في كلامه. يترحم على أيام مضت ولن تعود. يشير إلى مكان الشونة الواسع. يقول إنه كان باحة لبيع قطـن البلـد. هنـا القباني. وفي هذا الركن تقف السيارات. وفي المكتب الذي لم يهدم بعد. كانت توجد رزم الأموال أثمان قطن البلد. تسـيل من شدقيه حكايات وكلمات. وقصص عن القناطير الخمسـة التي حملها فوق ظهره. شعر يومها بضـيق فـي الصـدر. وفوران في عروقه كادت الـدماء أن تنفجـر مـن بعـض

العروق. صعد على السقالة خطوة خطوة. وحبـات الأعـين المحيطة تتحرك معه. في خوف وحرص. أما اليوم..

ـ لم يبق لنا سوى الكسب والذرة والبطاطس.

بعد لحظة صمت يتنهد:

أيام.

شاب من أبناء الزمان البخيل قال له. إنه لا يصـلح لحمل أكياس القطن. الهزيلة التي تعبأ في مواسم القطن الآن. دون وعي منه. امتدت يده إلى أسفل بطنـه، تحسـس جلـد البطن الذي تكرمش بمرور الزمن. عرفت أصـابعه مكـان الفتق الذي أصابه منذ سنوات. من ساعتها وهو يتسع. ذهب إلى الأطباء، لم يجد عندهم حلاً سوى الجراحة. سـألهم كـم يستغرق من الوقت قالوا له أكثر من شهر حسب الأمور في ذهنه ثلاثين يوما. تنقضي دون مليم واحد يدخل بيته، كيـف يعيش؟ هو وزوجته، لا دخل لهما سوى ما يحصل عليه من الشونة. حياتهما من اليد إلى الفم. اليد أتت بـالكثير. والفـم ابتلع ما أتت به اليد. وفي كل مساء. ينام. لا يؤنس وحشـته غرف الحصيرة سوى خوفه من الغد. الذي لا يعرف كيـف سيقضيه ولا كيف سيمر عليه. أيام القطن لم يكن يعمل سوى

في الموسم. وما كان يحصل عليه يكفيه طول العـام. فجـأة ذهب التجار واختفت المحافظ المحشوة بأوراق النقد. حضـر شبان صغار. قالوا إنهم من مندوبي التسويق التعاوني للقطن. في اليوم الأول. استغنوا عن خدمات الكـل مـرة واحـدة. القبانى والشيال والكاتب والخفير والسماسرة ورجال الفـرز. وعدوهم بمحاولة الحصول على وظائف لهم في الحكومة أو القطاع العام. فالإجراءات الجديدة لا يمكن أن تتسـبب فـي إغلاق بيوت الأبرياء دون ذنب.

لن أحني رأسي للوظيفة

هكذا صاح الشيال في الباحة. عامله مندوبو التسويق بعطف. نادوه بكلمة يا أبي ولكنهم كانوا يحرمونه من أهم ما في العمر، أحب عمل إلى نفسه هو حمـل أكيـاس القطـن. ولحظة النشوة عندما كان يسمع الناس فـي المنطقـة كلهـا يتحدثون عن قدراته الخارقة. الآن. يـأتي هـؤلاء الشـبان الصغار. لكي يحرمونه من متعة العمر الوحيدة. بعد رفـض الوظيفة عاد إلى منزله. بدأ يشعر بألم في مكان الفتق. لأول مرة يقول آه بطول. التأوه في الأيام التالية. وجد نفسه بدون

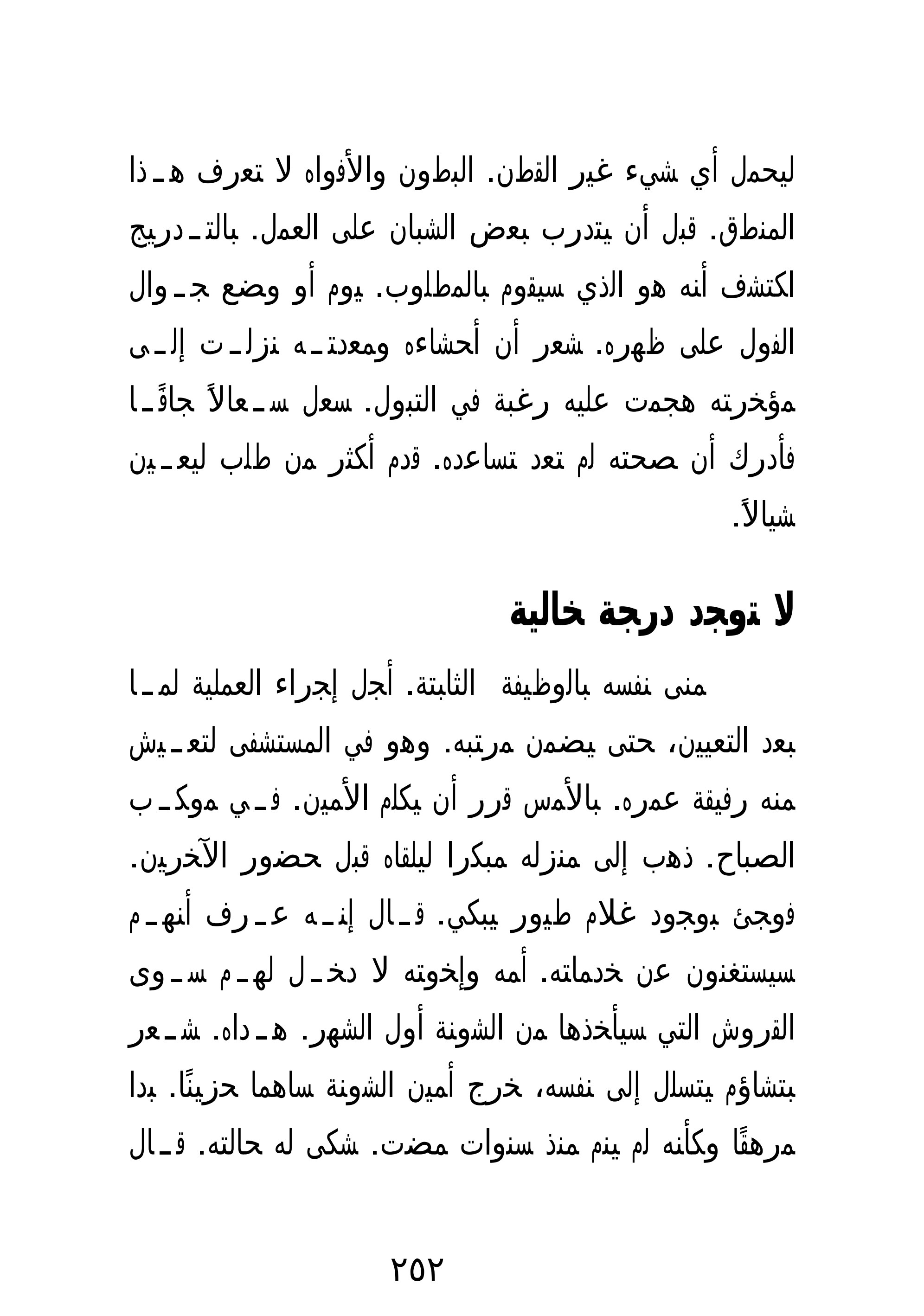
عمل. ذهب إلى الباحة وقت العصر. وقف في مكان بعيـد.
راح ينظر إلى المكان. وجد شبانًا صغارا، يحملون أكيـاس
القطن الهزيلة. لا يوجد بداخل الواحد منها نصـف قنطـار،
يهتزون بها فوق السقالات المصنوعة من الأبلكـاش بصـق
على الباحة والأيام الخائنة. وحاول أن يصيح فـيهم. لاعنًـا
إياهم. ولكن الفتق منعه.

المطلوب هو ألا يتسع الفتق أكثر من هذا

حذره الطبيب. قدم له قائمة الممنوعات، أن لا يقفـز
من مكان مرتفع.عدم الجري بسرعة. لا يحمل أشياء ثقيلـة.
الهدوء وقت الجماع مع حريمه. فالمسألة ليست استعراضـا
للعضلات. تجنب القيام بتمرينات رياضية عنيفة.

لو استمر الفتق ستخرج منه الأحشاء

تمتد يده إلى مكان الفتق ويبحث عن مصارينه. هـل
خرجت من الفتق أم لا؟ نصحه الكل بـإجراء العمليـة فـي
مستشفى البندر. رفض. قال إن كل الذين دخلوهـا خرجـوا
منها على النعوش. مشكلته أعمق. من أين يعـيش؟ بمـرور
الأيام دخل بقدميه إلى دائرة الانحناء. عندما أقيمت الشـونة.
طلبوا منه أن يعمل شيالاً. لم يكن يتصور أن ينحني ظهـره



ليحمل أي شيء غير القطن. البطون والأفواه لا تعرف هـذا المنطق. قبل أن يتدرب بعض الشبان على العمل. بالتـدريج اكتشف أنه هو الذي سيقوم بالمطلوب. يوم أو وضع جـوال الفول على ظهره. شعر أن أحشاءه ومعدتـه نزلـت إلـى مؤخرته هجمت عليه رغبة في التبول. سعل سـعالاً جافًـا فأدرك أن صحته لم تعد تساعده. قدم أكثر من طلب ليعـين شيالاً.

لا توجد درجة خالية

منى نفسه بالوظيفة الثابتة. أجل إجراء العملية لمـا بعد التعيين، حتى يضمن مرتبه. وهو في المستشفى لتعـيش منه رفيقة عمره. بالأمس قرر أن يكلم الأمين. فـي موكـب الصباح. ذهب إلى منزله مبكرا ليلقاه قبل حضور الآخرين. فوجئ بوجود غلام طيور يبكي. قـال إنـه عـرف أنهـم سيستغنون عن خدماته. أمه وإخوته لا دخـل لهـم سـوى القروش التي سيأخذها من الشونة أول الشهر. هـداه. شـعر بتشاؤم يتسلل إلى نفسه، خرج أمين الشونة ساهما حزينًا. بدا مرهقًا وكأنه لم ينم منذ سنوات مضت. شكى له حالته. قـال

إن الحكاية طالت. والصبر نفذ، رفع أمين الشونة يده. فـي المسافة بينهما، قال إن عنده خبرا. لم يكن يحب أن يقوله له. ولكن ما دام هو الذي فتح الموضوع. سيقول:

ـ الإدارة سترسل أوناشًا للتحميل الآلي السريع.

أوناش؟

تساءل الشيال ببطء. وسار خلف أمين الشونة.

الهموم في الأعالي

نسى الناس في الناحية كلها. كلمة القيالـة أو وقـت الظهر أصبحوا يسمونه ساعة الموكـب. والـذين يجـدون صعوبة في نطق كلمة موكب. يقولـون: " حصـة الزفـة " والموكب له مواعيد ثابتة. وعند مروره فـي المسـافة مـن الشونة إلى البلد. يعرف الكل أن وقت الراحة قد جاء أخيرا، من بعيد يبدو الموكب هكذا: غلام الطيور في المقدمة يسحب جديا وخروفًا. وعنزة صغيرة تملكها بنـات أمـين الشـونة يحضرهم معه. ليأكلوا ما يقع من المحاصـيل علـى أرض الشونة أثناء الوزن والتعبئة والتفريغ. إنها محاولـة للحفـاظ

على نظافة الشونة. والأمين يقوم بهذا العمل. متطوعا لحبـه في النظافة.

ـ هي أولى من العصافير.

يفسر أمين الشونة الأمر فهم ليسوا أعداء مصر مثل العصافير بلى غلام الطيور وعنزاته الشيال. الجوال الـذي يحمله لا يتغير. محتوياته تتغير من يوم لآخر. يحاول الناس معرفة محتويات الجوال عن طريق شكله الخارجي ومشـية الشيال. لم يفلح أحد في معرفة ما يحتويه الجوال من الشيال. رفض الحديث:

ـ أنما ما زلت زهورات:

ظلت الناس تخمن مرة في الجوال كُسـب أو رز أو كيماوي. كلها من المحاصيل المخزونة في الشـونة. علـى جانب الموكب الخفير النهاري للشونة. ليس معه سلاح. بيده عصا. يتولى نيابة عن أمين الشونة إلقاء السلام والرد علـى تحيات الفلاحين. يوفر على الأمين مشقة القيام بهذا العمـل بجوار الخفير ساعي مكتب الأمين. يحمل الـدفاتر والأوراق والأقلام ودواية الحبر. أمين الشونة دقيق يقـدس عملـه لا تعرف الراحة إلى نفسه سبيلاً إن ترك الدفاتر في أي مكان.

انقسم الناس في الناحية إلى فريقين بخصوص موضوع الدفاتر حسنو النية قالوا إنه يأخذها إلى منزله ليكمل عمله هناك. وهو لا يقوم بالعمل في الشونة. ترفعا عن صرف مرتب إضافي تمشيا مع سياسة التقشف ووقوفًا بجانب البلد الفريق الآخر يؤكد أن الأمين يأخذ الدفاتر والكمبيالات والإيصالات إلى منزله، حتى تكون أمامه فرصة ليفعل فيها ما يريد أن يفعله بالدفاتر. يقسمون على المصحف الشريف إن الدفاتر الأصلية هي التي توجد في منزله أما الدفاتر التي تروح وتجيء معه فهو يستعملها مع الناس فقط بجوار حامل الدفاتر مورد الأنفار الذين يعملون في الشونة. يسير الآن بصفته حامل هدايا أمين الشونة. يوميا توجد هدايا. أما أمين الشونة نفسه فهو يسير في آخر الموكب. يقول إنه يسير في آخر الكل تواضعا منه واحتراما لإنسانية البشر مهما كان العمل الذي يقومون به. لم يصدقه أحد. الكل يعرف أنه يفضل السير في آخر الموكب حتى يحرس ما يحمله الشيال وحامل الهدايا. الأمين غليظ سمين. وهو صاحب أضخم كرش في الناحية وأكثر النظارات سوادا. وأكبر كمية من العرق تسيل على كل مكان في جسمه صيفًا وشتاء. الموكب

يسير في الطريق محاط بالغيطان التي يعملون فيها فلاحون. أجساد نحيلة مسنودة على الفؤوس. لحظة مروره يتوقفـون عن العمل. يحسدونه. ينظرون إليه على أنه أسعد إنسان في بر مصر وأنه أكبر موظف يسكن بينهم ويشاهدونه كل يوم. لا يضايق الأمين سوى هذا الحسد. لا أحد يعرف أن الأمين له همومه التي لا تبدأ إلا بعد عودته إلـى البيـت. وتنـاول الغذاء ونوم القيالة بمجرد أن يبدأ عملية التسديد في الـدفاتر. تزحف الهموم على جدران بيته الريفي، يكون جسمه البرميل قد استراح في جلباب بيتي واسع ها هي رحلة كل يوم فـي الدفاتر والأوراق والسجلات. الكميات التـي تحضـر مـن المخازن الرئيسية ناقصة. لا يمكن الاعتراض. في أول أيامه اعترض وصلته التهديدات الخفية.

- نحن الحكومة. شعارنا في كل العصور.

في صوت واحد هتفوا له:

- انصرف..

وحذروه:

- من اعترض انطرد.

كان من الصعب عليه أن يتصرف بمفرده. اشـترك معه آخرون. ومن حضر القسمة فليقتسم. اتسـعت العمليـة، فاحت الرائحة. نظرا لكثرة العدد اضطر لإنشاء سجل لكـل الذين يحصلون على نصيبهم مـن العمليـة. قسـمهم إلـى مجموعات الفئة " م " المشاركون من الدرجة الأولى الفئـة " ب " المشاركون بصورة غير مباشرة. الفئـة " ج " الـذين يسهلون المسائل من بعيد الفئة " ز " المشاركون بالصـمت. يعرفون بالحكاية ومعهم وثائق وأدلة ويملكون القدرة علـى إثارة المتاعب. في البند الخاص بتوزيع الحصـيلة يختلـف الأمر. البعض يحصل على حقه نقدا والآخـرون يأخـذون بضائع عينية من الشونة. المجموعة الثالثة والأخيـرة تأخـذ حقها على شكل امتيازات خاصة في الشونة. هكذا يبدو الكل سعيدا. إلا هو تقع المسئولية عليه وحده. إن انكشف الأمر لم يحاكم أحد. سواء في اللحظة التي يبدأ فيها عمله في الـدفاتر المختلفة. يشعر بالخطر. يدب في جسمه الخـوف. تتسـلل رعشة إلى قلبه. المخالفات كثيـرة.. وكلمـا ازدادت شـعر بالوحدة الثلجية، لم يجد من يحدثه عن همومه. فكر فـي أن يحكي لزوجته أيقظها من نومها السعيد. عاتبته لأنه أيقظهـا

من سابع نومة. لكي يكلمها في أمر بسيط. قالت وهي تعـود للنوم:

ـ ربنا يستر.

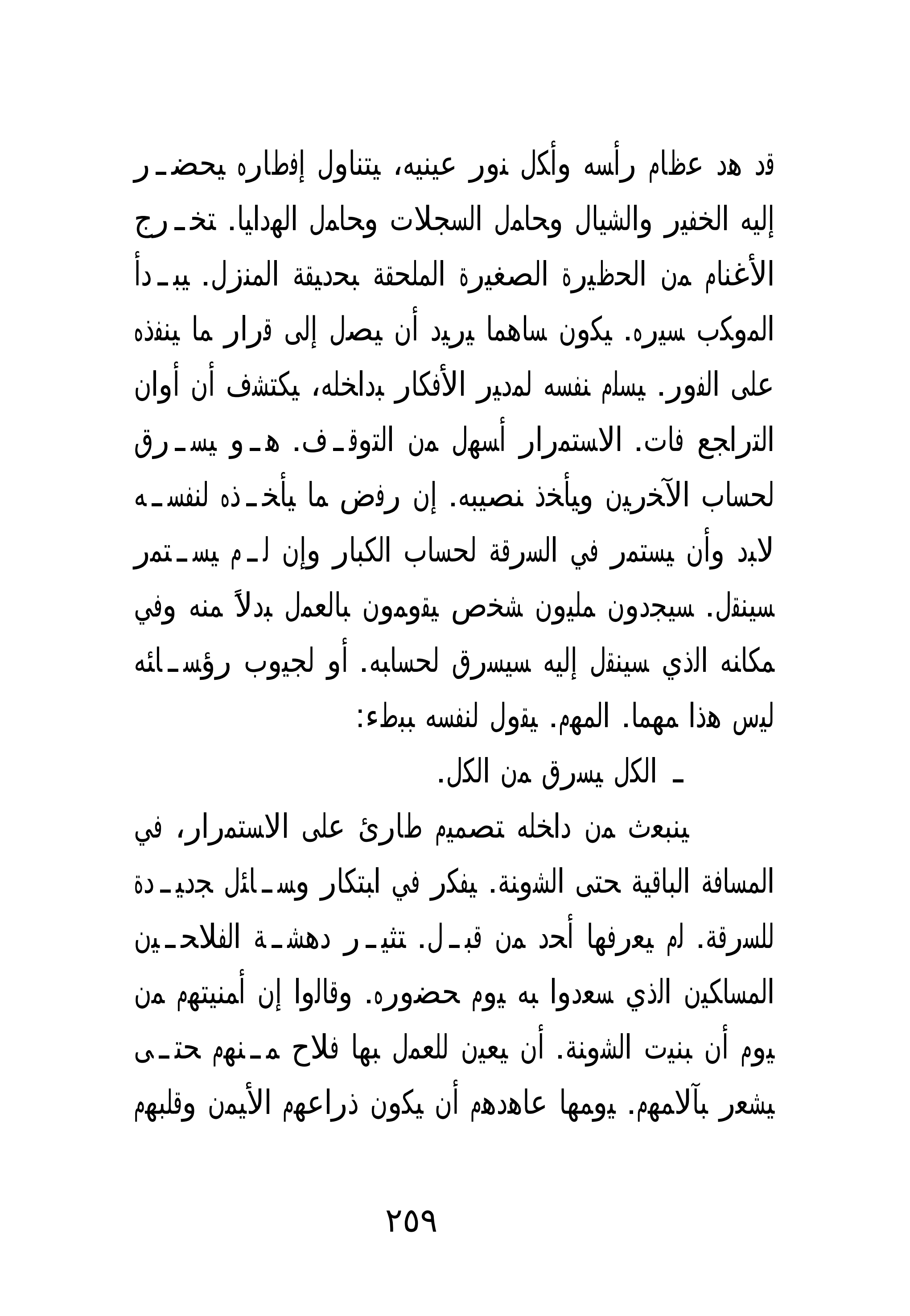
اكتشفت يقظته الحارقة. هدأته بقولها:

ـ معك كبار، لن يمسك سوء مراعاة لهم.

لم يقتنع بما قالته زوجته أثار قلقه. أصغر اللصوص تتم التضحية به. إن انكشف الأمر قالت وهي تنام من جديد:

ـ أنا موافقة على أن ذلك خطأ. ولكن هـل يكفـي مرتبك؟

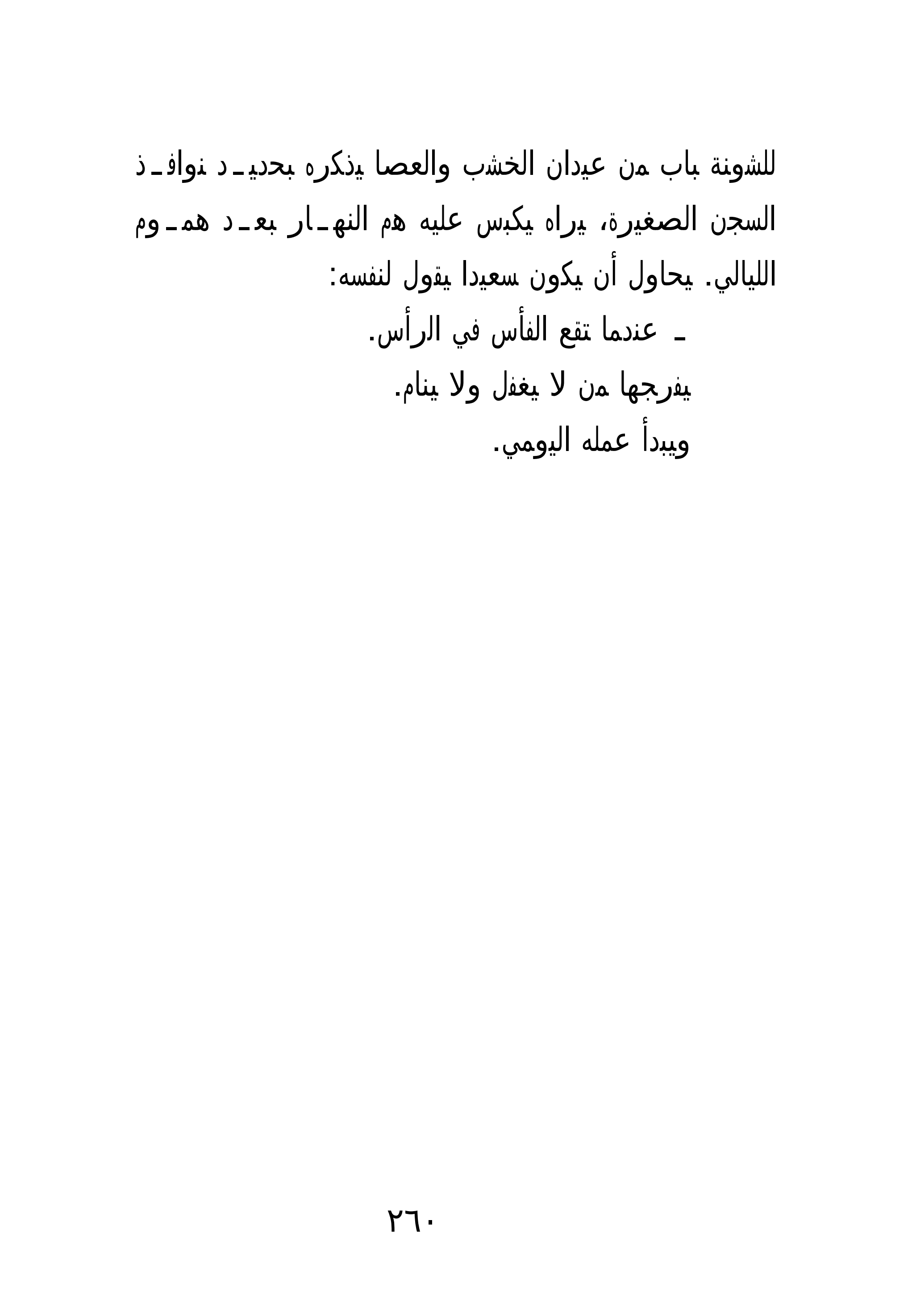
ذلك هو مربط الحصان كما يقولون فـي الحكايـات الشعبية. المرتب لا يتعدى الثلاثين جنيها. وهـو لا يكفـي. مطلوب منه أن يرسل ثلثه إلى أهله، الفلاحون الفقراء الذين يعيشون في قرية بعيدة ويصرخون من ظلم أمين شونة مثله. ينتهي الحديث إلى صمت. بعده يجيء النوم. خلالـه يحلـم بالتحقيق والسجن وزوجته البضة السمينة تتأوه وتئن تحـت أحد رؤسائه الذين أدخلوه السجن يفزع. يقوم من نومتـه، لا يستطيع النوم حتى الصباح. يجلس في شرفة منزله الريفـي الهادئ والذي بناه من دخله. يأتي الصباح. ويكون الصـداع



قد هد عظام رأسه وأكل نور عينيه، يتناول إفطاره يحضـر إليه الخفير والشيال وحامل السجلات وحامل الهدايا. تخـرج الأغنام من الحظيرة الصغيرة الملحقة بحديقة المنزل. يبـدأ الموكب سيره. يكون ساهما يريد أن يصل إلى قرار ما ينفذه على الفور. يسلم نفسه لمدير الأفكار بداخله، يكتشف أن أوان التراجع فات. الاستمرار أسهل من التوقـف. هـو يسـرق لحساب الآخرين ويأخذ نصيبه. إن رفض ما يأخـذه لنفسـه لابد وأن يستمر في السرقة لحساب الكبار وإن لـم يسـتمر سينقل. سيجدون مليون شخص يقومون بالعمل بدلاً منه وفي مكانه الذي سينقل إليه سيسرق لحسابه. أو لجيوب رؤسـائه ليس هذا مهما. المهم. يقول لنفسه ببطء:

ـ الكل يسرق من الكل.

ينبعث من داخله تصميم طارئ على الاستمرار، في المسافة الباقية حتى الشونة. يفكر في ابتكار وسـائل جديـدة للسرقة. لم يعرفها أحد من قبـل. تثيـر دهشـة الفلاحـين المساكين الذي سعدوا به يوم حضوره. وقالوا إن أمنيتهم من يوم أن بنيت الشونة. أن يعين للعمل بها فلاح مـنهم حتـى يشعر بآلامهم. يومها عاهدهم أن يكون ذراعهم الأيمن وقلبهم



للشونة باب من عيدان الخشب والعصا يذكره بحديـد نوافـذ السجن الصغيرة، يراه يكبس عليه هم النهـار بعـد همـوم الليالي. يحاول أن يكون سعيدا يقول لنفسه:

ـ عندما تقع الفأس في الرأس.

يفرجها من لا يغفل ولا ينام.

ويبدأ عمله اليومي.